# مشكلة
# الغلو في الدين
## في العصر الحاضر
الأسباب - الآثار - العلاج

تأليف
عبد الرحمن بن معلا اللويحق

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة قدمت لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراه) من قسم الثقافة الإسلامية بكلية الشريعة جامعة الامام/محمد بن سعود الإسلامية ونوقشت يوم ١٨/٢/١٤١٨هـ من لجنة المناقشة المكونة من:

فضيلة الشيخ الدكتور : عبد الله بن إبراهيم الطريقي
الأستاذ المشارك بعمادة الباحث العلمي (مشرفاً).

فضيلة الشيخ الدكتور : محمد بن عبدالله عرفة
الأستاذ المشارك بقسم الثقافة الإسلامية (عضواً)

فضيلة الأستاذ الشيخ : زين العابدين الركابي
الأستاذ المشارك بكلية الدعوة والإعلام (عضواً)

ونال صاحب الرسالة درجة الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة وتداولها بين الجامعات.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت-لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٦٠٣٢٤٣ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:603243-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

# مُشكِلَة

# الغُلوفي الدِّين

## في العصر الحاضر

### الأسباب - الآثار - العلاج

تأليف
عبد الرحمن بن معلا اللويحق

الجزء الأوّل

مؤسسة الرسالة
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديـــم

**فضيلة الدكتور محمد بن عبدالله عرفة**
عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة
قسم الثقافة الإسلامية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* * *

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن الغلو في الدين قضية قديمة قدم الأديان على هذه الأرض. أبتلي به أناس على مدار التاريخ البشري؛ إما بدافع الحرص على تحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه؛ فيندِّبهم حرصهم هذا عن الطريق السوي الذي ارتضاه الله ورسله لعبادته لأن اجتهادهم لم يرتكز على الفهم الواعي للنصوص الشرعية الداعية إلى عبادة الله عز وجل. وإما بسبب الاتباع والتقليد الأعمى للأشياخ الضالين عن الطريق السوي، أصحاب الأهواء والمصالح الدنيوية، الذين استغلوا جهل العامة وأشباههم بدينهم، وبعدهم عن تعاليمه، كما استغلوا ثقة هؤلاء فيهم باعتبارهم قائمين على شرع الله، أمناء على تبليغه ـ في ظنهم ـ فأساءوا القوامة، وخانوا

الأمانة في تبليغ الدين الحق، وزينوا لأتباعهم أباطيل زعموها من الدين، والدين منها براء، فصدق في الأتباع قول الله تعالى: **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾**.

وكما كان الغلو في الدين موجوداً في أتباع جميع الأديان ومنهم أتباع دين الإسلام، وكما كان الغلو موجوداً في كل الأزمنة على مدار التاريخ البشري، فإنه موجود أيضاً في الوقت الحاضر، وهو ليس مقصوراً على أتباع الإسلام كما يريد خصومه أن يوهموا الآخرين، ولكنه أصبح الآن ظاهرة عالمية، بل وتعددت أنواعه، وأشكاله، ودوافعه، واكتسب أهمية كبرى شغلت أذهان رجال العلم، والفكر، والسياسة، والأمن في البحث عن أسبابه ودوافعه للعمل على علاجه والتخفيف من آثاره. ومن هنا فإن ظاهرة الغلو في المجتمع الإسلامي اليوم ليست بدعاً، ولا مستغربة، إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذوا القذة بالقذة..**» الحديث. ولأن الدوافع المسببة لهذا الانحراف موجودة وبقوة في العصر الحاضر.

وقد أصاب الباحث ـ وفقه الله ـ كبد الحقيقة حينما سماها مشكلة، فظاهرة الغلو في الدين في العصر الحاضر تمثل بالفعل مشكلة من أكبر المشكلات وأخطرها على الإسلام والأمة الإسلامية.

وقد استغل خصوم الإسلام هذا التوجه المنحرف فرموا

الإسلام باعتباره ديناً ونظام حياة بأنه هو المسبب لهذا، واتهموا كل مستقيم على أمر الله ملتزم به بالغلو والتطرف إما جهلاً بالإسلام، وإما تجاهلاً، وإما عداءً له، وصُدِّقت هذه الفرية حتى من بعض من ينتسب إلى الإسلام.

وقد تصدى للكتابة في هذا الموضوع كثير من الباحثين من غير المسلمين، ومن المسلمين المحسوبين على الفكر الملتزم بالإسلام، ومن غيرهم من أصحاب التوجهات الأخرى، كلٌ عالج الموضوع من وجهة نظره ومن منطلقه الفكري والعقدي، وقد كان للعاطفة أثر واضح في كتابات كثير من هؤلاء.

وأحسب أن من أفضل وأهم ما أُلف في هذه القضية المشكلة حتى الآن هو هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للقاريء، الباحث عن الحق في هذا الموضوع.

وأقول ذلك لعدة أسباب منها:

١ـ إحاطة المؤلف الواعية، وإلمامه الشامل بجوانب الموضوع، ومعايشته إياه على مدى أكثر من ثمان سنوات؛ إذ كتب فيه رسالتيه الماجستير والدكتوراه، تناول في الأولى مظاهر الغلو، ومفاهيم التطرف والأصولية، وتناول في الأخرى الأسباب، والآثار، والعلاج. وبذا قدم عملاً متكاملاً في هذه القضية، يصدق عليه أنه عمل موسوعي في هذا المجال.

٢ـ المعالجة العلمية الموضوعية الهادئة التي اتسم بها عمل الباحث وهو يعالج قضايا البحث وموضوعاته بعيداً عن العاطفة الجامحة، والحماس المندفع اللذين قد يخلان بالموضوعية والمنهجية العلمية عندما يتحكمان بالباحث أي باحث فيلتويان بالرأي عن مساره السوي، ويحيدان بالحكم على الأشياء عن الصواب، ثم إن هذا الكتاب أصله رسالة دكتوراة قُدمت إلى قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ومعلوم أن الرسائل الجامعية تحكمها ضوابط علمية، ومنهجية، وشكلية، تجعل البحث أكثر رصانة، وأدق تحديداً للقضايا وأعمق معالجة لها. هذا بالإضافة إلى أن هذا البحث نال أعلى الدرجات في التقدير العلمي مرتبة الشرف الأولى، مع التوصية بطبع الرسالة وتبادلها مع الجامعات الأخرى.

٣ـ اهتمام الباحث الواضح بتأصيل القضايا التي اشتمل عليها بحثه بردها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإلى أقوال السلف الصالح وأفعالهم، ولا شك أن هذا يعطي قوة للحجة، ودعماً للرأي، وتعضيداً للنتائج التي توصل إليها الباحث، كما أنه يعطي اطمئناناً وثقة للنفس بسلامة ذلك كله من الهوى، والعاطفة الجامحة، والاجتهاد غير الموثق.

٤ـ يضاف إلى ماتقدم أنه كتب ماكتبه بأسلوب علمي رفيع، سهل ممتنع، أضفى على عمله هذا حلاوة وطلاوة، وروعة

وجمالاً، يجذب القاريء، ويشد انتباهه، ويحفزه إلى مواصلة القراءة، والتمعن فيما يقرأ.

ولقد أجاد الباحث أيما إجادة في تشخيص الأسباب الدافعة إلى الغلو في الدين وهو يرجعها إلى جذورها ومنطلقاتها الأساس، ثم يعرّج على الأسباب الأخرى التي غذَّت تلك الجذور حتى نمت وترسخت في النفوس ووقرت معتقداً في الباطن، تُرجم إلى سلوك عملي على أرض الواقع.

ثم يصور تصويراً دقيقاً الآثار المدمرة التي يمكن أن تحل بالأمة في عقيدتها وفي فكرها وفي سلوكياتها وفي حياتها الاجتماعية بعامة من جراء هذا الداء.

وفي نهاية المطاف يصف العلاج لهذا الداء، وقد صدّره ببيان أسس منهج الإسلام وخصائصه في علاج المشكلة، وختمه ببيان مناهج المعاصرين في معالجتها وتقويم تلك المناهج.

وانتهى إلى أن علاج مشكلة الغلو في الدين يجب أن يكون مبنياً على الضوابط العلمية الشرعية، ولابد أن يكون العلاج مقابلاً للأسباب المتنوعة للمشكلة كما خلص إلى نتيجة نقول: إن المعالجات المعاصرة لمشكلة الغلو تحتاج ـ في الغالب ـ إلى مراجعات شاملة، لأن الزلل والخطل فيها كثير.

ويظهر جهد الباحث جلياً وهو يحدد معالم العلاج، ويستنتج

وصفاته من خلال معايشته البصيرة للموضوع، وسبره لأغواره، وإحاطته الواعية بأسبابه وآثاره.

وبعد: وأنا أقدم لهذا السفر الثمين فإني أشيد بالمنهج الذي نهجه الباحث في معالجته لقضاياه، وماااتسم به من صدق وأمانة في الطرح، وحكمة في المعالجة، وإخلاص في الرغبة في تقديم الأفضل.

ويقيني أن هذا الكتاب سيسد فراغاً كبيراً في مجاله، وسيجيب على تساؤلات كثيرة تبحث عن جواب لها حول هذه المشكلة.

وأحسب أنه سيظل المرجع العلمي الأفضل في مشكلة الغلو في الدين زمناً ليس بالقصير.

أسأل الله أن ينفع به، وأن يجزي الباحث أحسن مايجازي عباده العاملين وصلى الله وسلم على نبينا وقدوتنا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

**دكتور محمد بن عبدالله عرفة**
عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة
قسم الثقافة الإسلامية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

# تقديـــم

فضيلة الشيخ: زين العابدين الركابي
عضو هيئة التدريس بكلية الدعوة والإعلام
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* * *

إن الغلو شر:

ومن عزائم الإسلام: إيصاد الأبواب في وجه الغلو والتشدد، ولقد سلك الإسلام طرائق شتى متنوعة، ابتغاء مكافحة الغلو ومطاردته، وتطهير حياة المسلمين من بوائقه.

فمن عزائم الإسلام في نفي الغلو ودينونته ومكافحته:

١ ـ نصب ميزان التوسط وامتداح الاعتدال، والدعوة إليه، والإغراء بمباشرته وتمثله:

ففي القرآن:

أ ـ **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** أمة وسطاً في الحسن والفضل، أم في القصد والاعتدال؟

وهذه الآية المجملة مبسوطة معانيها في آيات أخرى، حافزة على القصد والاعتدال.

ب ـ **﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾**.

جـ ـ ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

و ـ ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾.

هـ ـ ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾.

٢ ـ الدعوة القوية الساطعة إلى نقيض الغلو والتشدد وهو اليسر، ورفع الحرج، ونفي الشقوة:

أ ـ ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

ب ـ ﴿فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى﴾.

جـ ـ ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾.

د ـ ﴿ونيسرك لليسرى﴾.

هـ ـ ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾.

و ـ ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

٣ ـ الدعوة إلى الرحمة بالنفس واجتناب اعناتها وإتلافها: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾.

ومن هدي النبوة في رحمة المرء بنفسه، والنأي بها عن الغلو والتشدد:

أ ـ دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «**ما هذا الحبل**» قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت

تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد».

ب ـ وقال النبي ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة».

جـ ـ وقال ﷺ: «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا».

٤ ـ الدعوة إلى الرفق في كل شيء.. ومن هدي النبوة في ذلك قول الرسول ﷺ:

أ ـ «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

ب ـ «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه».

جـ ـ «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

٥ ـ النهي السافر، والتقبيح المباشر للغلو والتشدد:

أ ـ ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾.

ب ـ ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾. والخطاب موجه إلى المسلمين أيضاً.

جـ ـ ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾.. والأمر بمباشرة الاستقامة موجه إلى النبي ﷺ ـ والمسلمون معه ـ ومن مفاهيم هذا الأمر: أن استقيموا باستمرار، واستقيموا أبدا، ولا تتجاوزوا ما حده الله لكم من استقامة: لا تنقصوها، ولا تغلوا فيها.

د - ومن الدمدمة المباشرة على الغلو والتشدد، قول النبي ﷺ: «**هلك المتنطعون. هلك المتنطعون. هلك المتنطعون**».

إذن فالغلو حرام.

ولكن لماذا حرم الإسلام الغلو؟

- حرمه لأنه مشاقة حقيقية لهدي الإسلام، وإعراض عن منهجه في التوسط، والاعتدال، والرحمة، واليسر، والرفق.
- وحرمه لأنه نوع من ظلم الإنسان لنفسه، وقسوته على ذاته.
- وحرمه لأنه «صد عن سبيل الله»، بما يسببه من تشويه وفتنة وتنفير.

والظرف الزمني الراهن قرينة تتيح بسط القول في النقطة الأخيرة.

إن المسلمين اليوم ـ في الجملة ـ مقبلون على الإسلام، وذلك لأسباب وحوافز كثيرة: سبب التجارب المرة التي عاشها المسلمون ـ أو كثير منهم ـ بعيداً عن الإسلام، فعرفوا أن هجران الدين مجلبة للبؤس والتعاسة.. وسبب شعور المسلمين القوي بالتحديات الفكرية والاجتماعية والمعنوية التي تواجههم، ويتزايد ضغطها عليهم. فتحت وطأة هذا الشعور أدرك المسلمون أنه لا يمكنهم مواجهة هذه التحديات إلا بالإسلام الذي يعصمهم من الاستسلام والذوبان.. وسبب السياق البشري العالمي الذي يفيء إلى الأديان. فمنذ ربع قرن تقريباً، والعالم يشهد إقبالًا متتابعاً ومتصاعداً على الدين.. أيّ الدين.. والمسلمون ليسوا بدعاً في

ذلك، بل هم أحق الناس بالعودة إلى دينهم من حيث أنه الدين الحق، والرسالة الخاتمة.

وهناك أناس غير مسلمين تحدثهم أنفسهم باعتناق الإسلام، وقد أقدم خلق كثير منهم على الدخول في الإسلام في قارات الأرض كلها.

هذا الإقبال العام على الإسلام ـ من المسلمين وغير المسلمين ـ يمكن أن تعترضه عقبات كثيرة.

والغلو من أشد هذه العقبات عتوّاً وصداً، فهو موقف منفر وفتان ومزعج ومخيف ومشوه. ومن هنا قلنا: إن الإسلام حرم الغلو من حيث أنه صد عن سبيل الله بالسلوك المتنطع والفهم السقيم.

* * *

ولما كان الغلو على هذه النحو من الخطر والضرر، فإن مكافحته تعد واجباً ناجزاً لا يجوز تأجيله.

وبدهي أن لهذا الواجب الناجز شروطا لا يمكن أن يؤدي إلا بها وهي ثلاثة:

١ ـ شرط العلم الصحيح بالإسلام: عقيدة وشريعة ودعوة.

٢ ـ شرط العلم الصحيح بـ(الغلو) كمرض، أو واقعة أو مشكلة.

٣ ـ وشرط الشجاعة الأدبية، فإن الأخطاء المتلبسة بالدين لايصدع بالحق فيها إلا امرؤ ذو شجاعة أدبية.

* * *

ولقد ندب الدكتور عبدالرحمن بن معلا اللويحق نفسه ـ ونحسبه أهلا لذلك ـ للإسهام في أداء هذا الواجب الكبير الناجز من خلال كتابه القيم الذي نقدم له: كتاب (مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر: الأسباب، الآثار، العلاج). وهو الكتاب الذي نال به درجة الدكتوارة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وكان من قبل قد دفع إلى المكتبة العلمية كتاباً في المجال ذاته، ولكن في جانب تخصصي يختلف عن موضوع هذا الكتاب الجديد.

وكنت قد سعدت بالإشراف على الدكتور عبدالرحمن اللويحق في رسالة الماجستير التي أخرجها في كتاب قمت بالتقديم له. ثم سعدت بمناقشة رسالة الدكتوراة التي هي الآن بين يدي القراء في صورة هذا الكتاب.

ومن خلال الإشراف والمناقشة تبين لي أن الدكتور عبدالرحمن اللويحق قد وفقه الله إلى تقديم (موسوعة علمية) متكاملة ـ في قضية الغلو ـ إلى المكتبة الإسلامية، موسوعة علمية هي بمثابة (دليل علمي وعملي) لمن يريد أن يتعامل مع مشكلة الغلو الديني بعلم وضمير ورشد وصدع بالحق: نزيه وشجاع.

ولقد استصحبنا الدقة ونحن نصف النتاج السابق واللاحق بأنه (موسوعة علمية).

**وهذا هو البرهان:**

- في كتابه الأول (الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة) تناول المؤلف قضايا ثلاثا رئيسة وهي: مفهوم الغلو.. وحجم المشكلة.. ثم مظاهر الظاهرة.. وقد كان ذلك مفتحاً علميّاً لابد منه للدخول على الدراسة الموسعة التي نطالعها الآن.
- وقد اجتهد الدكتور اللويحق ـ في كتابه هذا ـ في استقصاء أسباب الغلو، فتوصل إلى نحو خمسين سبباً، وهي أسباب متنوعة. فهناك الأسباب المتعلقة بالجهل.. والأسباب المرتبطة بالمنهج العلمي.. والأسباب العملية.. والأسباب النفسية والتربوية.. والأسباب الاجتماعية والعالمية.

وفي رصده لآثار الغلو أحصى المؤلف خمسة عشر أثراً منها: الآثار العقدية والفكرية.. والآثار السلوكية والاجتماعية.. ثم قفَّى على ذلك كله بدليل العلاج الذي انتظم سبعة عشر علاجاً، من بينها: الاعتصام بالكتاب والسنة.. وضبط منهج الاستدلال والاستنباط.. ومعالجة الفساد العقدي.. وضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم.. والتلقي عن العلماء.. والتفاؤل والثقة بالله.. والاشتغال بالأعمال النافعة.. ونبذ التعصب.. والحوار.. والنظر في أحوال الناس واعتبار أعذارهم.. وقيام العلماء بواجبهم.

وإذا كان لابد من إثبات (المقياس الكمي) في وصف نتاج

المؤلف بأنه (موسوعة علمية) في المجال أو الفن، فإن صفحات هذه الموسوعة ـ الكتاب السابق والكتاب الذي معنا ـ قد بلغت (١٨٨٠) ألفاً وثمانمائة وثمانون صفحة.

إن من حق المحسن أن يظفر بكلمة (أحسنت): شهادة بالحق، وتعبيراً أميناً عن الشعور بجهد من أحسن، ولذا أقول: لقد أعجبني في هذا الكتاب:

١ ـ (الطموح العلمي). وهو استجابة للدعاء الكريم ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾. فليس يسوق الباحث في المسألة الواحدة حجة أو اثنتين أو ثلاثاً، بل لايزال يكثر من الحجج إلى درجة الإشباع والارتواء.

٢ ـ (الثروة العلمية) الريانة بالمصادر والمراجع والمظان (٥٧٧ خمسمائة وسبعة وسبعون مرجعاً). وليس العبرة بمطلق عدد المراجع. فقد تثبت المراجع والمصادر لمحض التكثير. وإنما العبرة بالاطلاع النابه عليها. وقد تبين لنا أن المؤلف يفهم ما يقرأ ويوظف ما يفهم توظيفاً حسناً.

٣ ـ (استقامة المنهج). فقد يكثر العلم ولا يستقيم التفكير. ولكن حين تجتمع استقامة التفكير مع الثروة العلمية، يحظى الباحث ـ وتحظى الأمة معه ـ بعلم سديد.

٤ ـ (سلامة الأداء) وأناقة العبارة، وهذا مرتقى يبدو صعباً في موضوع دقيق وشائك يتطلب ضبطاً حصيفاً في العبارة، من المبدأ إلى المنتهى.

٥ ـ (الاحتراز) في المفاهيم. مثلاً: ذكر المؤلف أن سقوط الدولة العثمانية، سبب من الأسباب العالمية للغلو. ولقد هممت أن أنتقده، وكدت أن أقول: إن الاستقامة على منهج الاعتدال ممكنة بدون خلافة. بيد أني عدلت عن النقد حين ختم المؤلف هذه النقطة بقوله: «ولكن إصلاح الأمة لا يتوقف على ذلك، بل الدعوة والتعليم والإصلاح أمور واجبة حتى مع عدم وجود خليفة. والطاعة واجبة لولي الأمر المسلم في طاعة الله مهما كان مسماه».

ونخلي الآن بينكم وبين هذه السفر، فإن التقديم لا يغني عن قراءة الكتاب.

وندعو الله الكريم العظيم اللطيف الودود النور الهادي البديع أن ينور بصائرنا والمؤلف والمسلمين أجمعين بنوره الذي أشرقت له السموات والأرض، وأن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يقيمنا على منهجه الوسط، الحنيفية السمحة، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يجعلنا مخلصين له الدين.

* * *

# مقدمة البحث

(١)

الحمد لله الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطنِ الذي ليس دونه شيء.

له الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً، وباطناً

وبه المعتصم من الأهواء المردية والبدع المضلة.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله البشير النذير رافع الإصر والأغلال، الداعي إلى خير الأخلاق وأيسر الأعمال.

فاللهم صل على محمد وعلى آل محمدٍ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

(٢)

**أما بعد:**

فإن للدين سمة هي اليسر ورفع الحرج ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [سورة الحج، الآية: ٧٨].

وللأمة سمة هي الوسطية ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣].

فمن شادّ الدين وغالبه، فقد خالف مقصد الشارع من التشريع، كما خرج عن سمة الأمة: العدل الخيار أمة محمدٍ ﷺ.

وتلك المشادة آفة من آفات الإعراض عن دين الله، بلي بها فئام من المتقدمين كما بليَ بها أيضاً قوم من المتأخرين، ولقد تصدى أهل العلم وطلبته ـ في العصر الحديث ـ لألوان من الانحراف شتىٰ ولكنهم لم يتصدوا للغلو بالقدر الذي يقطع الحجة، ويبين المحجة، ذلك أن انحراف الغلو صاحبه انحرافات في فهم الغلو، وتصور مظاهره، والتعامل مع أهله، فقد مدّ كل باعه في هذا الأمر بما لا يسدُّ نهمه ولا يبل أواماً، بل فيه السمّ الزعاف فخرج الأمر عن طوره، وأربى عن حده حتى غدت بعض الطروحات تتخذ من محاربة الغلو تكأة للطعن في الإسلام.

ونَقَدَ آخرون: مفكرون ومثقفون وصحفيون الغلو وليس لهم من العلم حظ يؤهلهم لتمييز الغلو من الاعتدال.

وفوق هذه الغثاثة تنفخٌ وتشبع يوهم به بعض الكتاب الموضوعية والعلمية والعلم منهم براء.

وكل هؤلاء يرجع إلى مشارب مختلفة في الاعتقاد والمقاصد، حتى تباينت الرؤى. ولا إخال قضية من القضايا، أو مشكلة من المشكلات تعددت فيها الآراء واختلفت الاتجاهات والمقاصد مثل مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر.

ولقد صار ذلك الخلط سبباً لاستنكاف كثيرٍ من أهل العلم وطلبته أن يكتبوا في هذا الموضوع إلا ما كان من ردود الأفعال التي ترى بين الحين والآخر، وخشوا أن يحمل كلامهم على غير ما قصدوا، ويظن بهم غير الذي أرادوا.

ولذلك كله اجتهدت أن أنشيء في هذا الموضوع ما يسد شيئاً من الثلمة، وإلا فالأمر أعظم، والبضاعة مزجاة، فاتصل حبلي بموضوع الغلو منذ دراستي لنيل درجة العالمية (الماجستير) فكتبت بحثاً عنوانه: «الغلو في الدين في حياة

المسلمين المعاصرة، دراسة نقدية». ويشاء الله الذي يقدر ويقضي ما يشاء ـ سبحانه ـ أن يكون حبل الوصال ممدوداً إلى مرحلة: العالمية العالية (الدكتوراة) فيكون البحث فيها متمماً لسابقه.

(٣)

**عنوان البحث:**

«مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر، الأسباب، الآثار، العلاج».

وظاهر من العنوان أن البحث للمشكلة عبر ثلاثة محاور:

**الأول:** الأسباب.

**الثاني:** الآثار.

**الثالث:** العلاج.

ولم آتِ في هذا البحث على كل الأسباب والآثار وطرق العلاج؛ ذلك إن من طبيعة مثل هذه الموضوعات: السعة حيث لا يمكن الحصر، خاصة عند تعقد المشكلات.

ولقد حرصت في هذا البحث أن أجمع الأصول والمعاقد في الأسباب والآثار والعلاج، وأما الحصر التام فذلك أمرٌ لا أستطيعه، إذ للمشكلة بعدٌ نسبي فتختلف الأسباب ـ مثلاً ـ باختلاف الأقطار والأشخاص والبيئات.

كما تتعدد الأسباب، وتتوالد فينتج اليوم ما لم يكن بالأمس من الأسباب.

وغاية الأمر أني حرصت على شمول البحث أصول الأسباب والآثار وطرق العلاج وإن لم آتِ على كل ذلك.

(٤)

**الصلة بين هذا البحث، وبحثي في مرحلة (الماجستير):**

قد يوهم القول بأن البحثين في مشكلة الغلو أن المادة العلمية متكررة،

ولكن الحق أن لكل من البحثين جوانب يختص بدراستها .

حيث يبحث موضوع (الماجستير) في الجوانب الآتية :

١ ـ الحقيقة أو (المفهوم) أي مفهوم الغلو بدراسة معنى الغلو في النصوص ونقد مفاهيم المعاصرين في ضوء ذلك .

٢ ـ طبيعة مشكلة الغلو ويشمل ذلك بيان حجم المشكلة وجذورها التاريخية ، وطبيعتها .

٣ ـ مظاهر الغلو التي تشكل بمجموعها : صورة مشكلة الغلو الواقعة في هذا الزمان .

وبهذا يتضح أن مجالات الدراسة مختلفة بين البحثين فالأول في المشكلة ذاتها ، والثاني فيما قبل المشكلة من العوامل والأسباب وما بعدها من الآثار، وما قبل المشكلة وما بعدها من الوقاية والعلاج .

وببحث هذين الموضوعين تتكامل الدراسة ، ويغطى هذا الموضوع من جميع جوانبه .

(٥)

**الفترة التي يدرسها البحث :**

لقد حددت الفترة التي أدرسها بما بعد عام ١٣٨٥هـ إلى اليوم ، ولم يكن ذلك التحديد اعتباطاً بل بحسبان تلك الفترة تمثل نشوء تيار الغلو المعاصر من جهة ، وظهور اتهام المتمسكين بالدين به من جهةٍ أخرى .

(٦)

**أهمية الموضوع وأسباب اختياره :**

إن قيمة البحث العلمي تتحدد بالنظر إلى جانبين :

١ ـ الثلمة التي سدها البحث .

٢ـ الأسئلة التي أجاب عنها.

وأظن أن الكلام عن الجانب الأول قد سبق، أما الجانب الثاني فثم أسئلة جد خطيرة في حاجة إلى إجابات علمية من أهمها:

* ما أسباب الغلو والخروج عن جادة الحق إلى جواد الباطل؟
* ما أثر هذا الغلو وما عواقبه؟
* ما خواص أهل الغلو ومميزاتهم؟
* ما حكم الغلو والغلاة؟
* ما منهج السلف في علاج الغلو؟
* ما مناهج المعاصرين في معالجة الغلو؟
* ما المنهج السليم لمعالجة الغلو في ضوء العلم بمنهج السلف، والعلم بمشكلة الغلو في العصر الحاضر، وما اكتنفها من ظروف؟

وبالعلم بهذه الأسئلة يتضح جانب من جوانب أهمية الموضوع، وثمة جوانب أخرى هذا بيانها:

١ـ أن دراسة أصول الانحراف، ومنابع الزيغ، أقطع لهذه المشكلة وأحسم لمادتها ذلك أن:

* الجهل.
* المنهج العلمي المعْوج.
* المنهج العملي الخاطيء.
* الظروف والبيئات الفاسدة.

كل أولئك موارد للغلو يصدر عنها، فكان المنهج الأجدى: الوقوف على تلك الموارد فتغور فلا تنبع مرةً أخرى.

٢ـ أن زيغ الغلاة قابله زيغٌ آخر يساميه خطراً وشراً، وذلك الزيغ رافدٌ من

روافد الغلو فكان لا بد من بيانه، وإدانة أولئك الزائغين الذين أوردوا الغلاة هذا المورد، وجعلوهم ـ لفرط ما يمارسون من خروج على أحكام الدين ـ يجنحون إلى الغلو، ويميلون إلى العنف رداً للفعل الذي يرونه .

٣ـ أن كشف المرض وبيان مظاهره وأعراضه ليس إلا خطوة نحو أمر أجدى وأنفع هي : معرفة الأسباب والعلاج لتحسم المشكلة .

٤ ـ أن بيان الآثار والعيوب مما ينفر الغلاة من الغلو بل وينفر الأسوياء منه، ويكشف لهم عواره .

٥ ـ أن بيان أحكام الغلو والغلاة، وتفاوتها بحسب تفاوت المراتب والدرجات مما يضبط ميزان النظر إلى الغلو ويمهد للعلاج، حتى لا يجنح المعالج إلى ضرب من الانحراف مقابل للضرب الذي يريد معالجته .

٦ ـ أن مناهج كثير من المعاصرين في علاج مشكلة الغلو مناهج شوهاء كثيرة الخطل، قليلة النفع ـ في غالبها ـ لذا كان لزاماً على من اهتم بهذه المشكلة أن يقدم لها علاجاً يسترشد فيه بمنهج السلف في معالجة الغلو الواقع في أزمانهم، وبمعرفة الغلو المعاصر والظروف المصاحبة له .

(٧)

**خطة البحث :**

تضمن البحث :

ـ مقدمة .

ـ وتمهيداً .

ـ وثلاثة أبواب .

فأما المقدمة فقد اشتملت على :

١ ـ الاستفتاح .

٢ ـ موضوع البحث.

٣ ـ عنوان البحث.

٤ ـ الصلة بين هذا البحث وبحثي في مرحلة (الماجستير).

٥ ـ الفترة التي يدرسها البحث.

٦ ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

٧ ـ خطة البحث.

٨ ـ منهج البحث.

٩ ـ الدراسات السابقة.

١٠ ـ الصعوبات التي واجهت الباحث.

١١ ـ شكر وتقدير.

وفي التمهيد مبحثان:

المبحث الأول: مصطلحات البحث.

المبحث الثاني: لمحة عن مشكلة الغلو.

ثم جاء الباب الأول المعنون له بأسباب مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر، متضمناً تمهيداً و ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأسباب العلمية والمنهجية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأسباب المتعلقة بالجهل.

المبحث الثاني: الأسباب المتعلقة بالمنهج العلمي.

المبحث الثالث: الأسباب المتعلقة بالمنهج العملي.

وعقدت الفصل الثاني لبيان: الأسباب النفسية والتربوية.

واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الأسباب النفسية.

المبحث الثاني: الأسباب التربوية.

وفي خاتمة فصول هذا الباب: الفصل الثالث: الأسباب الاجتماعية والعالمية وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب الاجتماعية.

المبحث الثاني: الأسباب العالمية.

ثم خصصت الباب الثاني من البحث لبيان: آثار مشكلة الغلو، وقد جعلته في فصلين:

الفصل الأول: الآثار العقدية والفكرية، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الآثار العقدية.

المبحث الثاني: الآثار الفكرية.

وأما الفصل الثاني: الآثار السلوكية والاجتماعية فهو في مبحثين ـ أيضاً ـ:

المبحث الأول: الآثار السلوكية.

المبحث الثاني: الآثار الاجتماعية.

ثم في خاتمة أبواب هذا البحث:

الباب الثالث: علاج مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر:

تمهيدٌ وثلاثة فصول، فالتمهيد في بيان أسس منهج الإسلام في علاج مشكلة الغلو وخصائصه.

ثم الفصل الأول: العلاج العقدي والعلمي، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العلاج العقدي.

المبحث الثاني: العلاجُ العِلمي.

وقد أفردت الفصل الثاني للعلاج التربوي والاجتماعي، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العلاج التربوي.

المبحث الثاني: العلاج الاجتماعي.

ثم ختمت بالفصل الثالث: مناهج المعاصرين في معالجة المشكلة وتقويمها.

وجعلته في خمسة مباحث:

المبحث الأول: منهج العلماء المعاصرين في معالجة مشكلة الغلو.

المبحث الثاني: المعالجة الأمنية والقانونية لمشكلة الغلو.

المبحث الثالث: منهج الإعلاميين في معالجة مشكلة الغلو.

المبحث الرابع: منهج الغربيين في معالجة مشكلة الغلو.

المبحث الخامس: منهج العلمانيين في معالجة مشكلة الغلو.

**(٨)**

**منهج البحث:**

لقد بذلت الوسع أن أنهج نهجاً علمياً خالصاً غير مشوب بغرض من هوى أو تعصب لرأي، إلا ما كان من الحمية للدين، فالخلو من الحمية للدين الحق وأهله، أمر لا يمكن أن أتجرد منه؛ لأنه من صميم الديانة، ولباب التوحيد.

ولا أبرىء نفسي بهذا من شوائب الإلحاح والحماسة في تقرير بعض المسائل ولكن حسبي أن ذلك صادرٌ عن قناعة بما أراه حقاً مما توصلت إليه عن طريق الأدلة والحجج فكان الدليل هو الموجه ولم يكن الرأي هو الموجه أو المؤول للدليل.

وهذه معالم من منهج البحث تدل على ما وراءها:

* **أولاً: المناهج المستخدمة:**

اعتمدت في كتابة هذا البحث جملةً من المناهج المعروفة عند الباحثين هي:

١ـ **المنهج التاريخي :**

وهو: (منهج يعتمد على النصوص والوثائق التي هي مادة التاريخ الأولى، ودعامة الحكم القوية، فيتأكد من صحتها ويفهمها على وجهها، ولا يحملها أكثر من طاقتها، وبذا يستعيد الماضي، ويكون أجزاءه، . . . ويعرض منه صورة تطابق الواقع ما أمكن)[١].

٢ـ **المنهج العلمي التحليلي :**

وذلك باستخدام خطة منظمة للوصول إلى كشف الحقائق والبرهنة عليها بتقسيم الكل إلى أجزائه وردّ الشيء إلى عناصره المكونة له[٢].

٣ـ **المنهج النقدي :**

وذلك بسبر النصوص والمذاهب والآراء لاختيارها وتمييز الأقوال ومعرفة مداخل الزيغ والانحراف فيها.

* **ثانياً : الاعتماد على المصادر الأصيلة :**

لقد اجتهدت في الاعتماد على المصادر الأصيلة؛ فمنَّ الله عليَّ بالاجتهاد في النقل من الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فلذلك ضم البحث في أعطافه وثناياه غرراً ودرراً من نصوص التنزيل أضفت عليه جلالاً وجمالاً ما كانا ليتأتيا لو عري البحث من تلك النصوص، فإن يكن شيء أفخر به في هذا البحث فكثرة الآي والأحاديث، ولله عز وجل ثم لرسوله ﷺ المنَّة.

ثم اجتهدت بعدُ في النقل عن السلف ومن تبعهم من أهل العلم المحققين فوشحت هذا البحث وزينته بالنقول عنهم. وقد كثرت تلك الأقوال ولكني اجتهدت ألاَّ تكون كثيرةً قليلة النفاسة فأجلت الفكر وأدمت النظر في كتب السلف لأستخرج درراً أستبين قيمتها بعرضها على نصوص الوحيين.

(١) مجمع اللغة العربية بمصر، «المعجم الفلسفي»: مادة المنهج التاريخي: (١٩٥).

(٢) المصدر السابق (١٩٥): مادة المنهج العلمي و (٤٠): مادة التحليل.

وقد كان من الاعتماد على المصادر الأصيلة اعتمادي في النقل عن كل قوم على مصادرهم فلم أعتمد على المصادرة الناقدة إلا في حالات استثنائية؛ كأن تكون الأقوال والأدلة التي استدل بها الغلاة معروفةً عبر النقل الشفهي عنهم، ولكن احتجت إلى توثيقها فنقلت عمَّن ناقشهم، أو كان الكتاب الذي نقل عنه مؤلفٌ معاصرٌ كتاباً مخطوطاً لجماعة غالية يصعب عليَّ الحصول عليه فأسندت النقل إلى ذلك المؤلف الذي توفر له الكتاب.

* **ثالثاً: الحواشي والتوثيق:**

١ـ عزوت الآيات إلى السور وذكرت أرقامها في صلب البحث توفيراً لجهد القارىء، ورغبة في تخفيف حجم البحث.

٢ـ خرجت الأحاديث تخريجاً استفرغت فيه الوسع وإن لم أكن من أهل هذه الصنعة.

٣ـ خرجت الآثار المروية عن السلف.

٤ـ وثقت الأقوال المنسوبة إلى أهل العلم، كما وثقت النقول عن غيرهم من الكتّاب أو المؤلفين.

٥ـ لم أعرّف بأحدٍ من الأعلام، مشهورهم ومغمورهم، إذ كانوا في طيات البحث كثيراً، وللتراجم كتب متخصصة وفي نقلها إثقال للبحث حتى يغدو كأنما هو تحقيق لا دراسة.

وأما آليات التوثيق فهذا مختصر القول فيها:

١ـ عند الإحالة إلى كتاب أصدر باسم المؤلف ثم الكتاب ثم الجزء والصفحة.

٢ـ عند الإحالة إلى كتاب ذكر اسم صاحبه في الأصل أكتفي بذكر اسم الكتاب والجزء والصفحة.

٣ـ عند الإحالة إلى كتاب ذكر اسمه واسم مؤلفه في الصلب أكتفي بذكر الجزء

والصفحة .

٤ـ عندما أنقل الكلام بتصرف أو أختصره أو أرجع إلى أكثر من مصدر أحيل بقول : ينظر .

٥ـ عند تكرار النقل من مصدر واحد، ولم يفصل بين النقلين هامش آخر أوثق النص بقولي: المصدر نفسه أو المصدر السابق إلا إذا كان اسم الكتاب قصيراً فأكرره .

٦ـ عند الإحالة إلى مرجع أجنبي أذكر اسمه في الحاشية باللغة العربية مثل «الموسوعة البريطانية» .

* **رابعاً : علامات الترقيم :**

فقد استخدمت الترقيم في هذا البحث حسب القدرة والإمكان .

* **خامساً : وضع الفهارس :**

لقد اجتهدت في وضع فهارس تجلّي للقاريء جوانب البحث ، وتظهره على «خبايا الزوايا» من نصوص التنزيل ، والآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين ، ولعل من طالع فهرس الأحاديث ـ مثلاً ـ يستدل بذلك الاطلاع على مظان موضوعات ما كان له أن يعرفها دون ذلك الفهرس ، وقد جاءت كما يلي :

١ـ فهرس الآيات .

٢ـ فهرس الأحاديث والآثار.

٣ـ فهرس المصطلحات .

٤ـ فهرس المذاهب والفرق والجماعات .

٥ـ فهرس المراجع .

٦ـ فهرس الموضوعات .

(٩)

**الدراسات السابقة :**

لقد ألفت في موضوع الغلو مؤلفات كثيرة، لكني عند استعراضها لم أجد تشابهاً بينها وبين هذه الدراسة إلا مؤلفين أخصهما بالذكر:

**الأول**: ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث. لمؤلفه: الشيخ/ محمد عبد الحكيم حامد. والكتاب في أصله رسالة (ماجستير) قدمت لشعبة العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وقد اشتملت على أربعة أبواب:

الباب الأول: مفهوم الغلو وحكمه وتاريخه.

الباب الثاني: مظاهر الغلو في العصر الحديث.

الباب الثالث: أسباب الغلو في العصر الحديث وآثاره.

الباب الرابع: العلاج.

وتقع في خمسمائة صفحة، وهذه الدراسة، وإن كانت في صلب البحث، إلا أنها عالجت الموضوع معالجة عامة غير متعمقة فكل أسباب الغلو على سبيل المثال في سبع وستين صفحة من البحث. وفي الكلام عن إقصاء شريعة الله من أسباب الغلو كتب المؤلف أحد عشر سطراً، وفي الإعراض عن العلماء كتب المؤلف صفحتين.

ولا أعيب جهده فقد بذل جهداً يحمد له زاده الله من توفيقه.

**الثاني**: «ظاهرة التطرف: الأسباب والعلاج». للدكتور: محمد أحمد بيومي أستاذ ورئيس قسم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة الاسكندرية.

ومن عنوان الدراسة يتضح قربها من موضوع رسالتي غير أن الدراسة دراسة اجتماعية متخصصة، وليست شاملة مبنية على العلوم الشرعية.

وفي الموضوع كتب مثل:

«الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» للدكتور: يوسف القرضاوي.

و«التكفير جذوره أسبابه، مبرراته» للدكتور: نعمان السامرائي.

وهذه المؤلفات ليست دراسات بحثية علمية.

فمن هذا الوجه هي تخالف هذا البحث كما أنها لا تعالج الموضوع من جميع جوانبه بل من بعضها.

## (١٠)

**الصعوبات التي واجهت الباحث:**

لم يكن الطريق أمامي لاحباً سهل المسالك بل عرضت لي جملة من الصعوبات أوجزها فيما يلي:

١ـ تشعب الموضوع، وكثرة جزئياته، وتلك الجزئيات لا تجتمع تحت وحدة موضوعية واحدة، وقد اقتضاني ذلك أن أتنقل بين موضوعات شتىٰ، أبدأ الأمر جذعاً مع كل موضوع، وقراءة الخطة تظهر القاريء على هذا.

٢ـ أني أخذت على نفسي أن يكون استخراج الأسباب والآثار وطرق العلاج نتاجاً لاستقرائي، وقراءتي لكتابات الغلاة والمهتمين بالغلو، وتتبعي لتاريخ جماعات الغلو، وكان ذلك صعباً باديء الأمر إذ دفع تيار الغلو بأقوامٍ إلى مواطنَ شتىٰ من مواطن الزيغ، وصار من سمات رؤوسهم اللسانة حتى غدا كل واحدٍ منهم مجادلاً لا يزال يصرِّف القول يمنةً ويسرة، يهوِّش على الناس، ويجرهم بجدله إلى انحرافه وزيغه، واستخراجُ سبل الزيغ، وطرائق الانحراف من نصوص الجَدِلين أمر يحتاج إلى طول دربة، ودقة نظر بعد الاستعانة والاعتصام بالله عز وجل.

٣ـ تعدد الأسباب، وقوة الصلة بين كثيرٍ منها، حتى استلزم ذلك بعض التكرار، أو توظيف النص في أكثر من موضع، وقد كان التخلص من

التكرار، والاجتهاد في وضع النص في موضعه الخليق به، همًّا مصاحباً للعمل في هذا البحث.

٤ ـ دقة الموضوع وأهمية ضبط البحث فيه، ولا يعرف مبلغ الجهد الذي يحتاجه الأمر إلا من استحضر تلك الدقة، وتجاذب أطرافه من فئات شتىٰ، وتباين وجهات النظر فيه، حتى يحتاج الأمر إلى تفصيل القول تفصيلاً بيناً لئلا يحمل قومٌ الكلام على ما يوافق أهواءهم وظنونهم.

٥ ـ كثرة الدراسات والبحوث والمقالات التي تحدثت عن الموضوع، وهي وإن ظن أنها محمودة إلا أن من درس تلك الدراسات علم أنها كثيرة العناء قليلة الغنى، فقد اقتضت مني دراسة تلك المؤلفات جهداً غير يسير، فكنت أمام بحرٍ خضمٍ لا تربطه في الغالب روابط، ولعل العلم بأني قد جمعت عن طريق المراكز الإعلامية المتخصصة مما نشر في الصحف آلافاً من القصاصات التي كتبها أناس من أصناف شتىٰ، ومع كثرتها إلا أنها صيغ مكررة، وعبارات مجترة، ليس فيها شيء من العلم ـ لعل العلم بذلك يوضح حقيقة ما أقول ولو ذهبت أتتبع ذيول وأطراف ما كتب لما انتهيت إلى منتهى أو مقصد.

٦ ـ صعوبة التمثيل على ما أقرر من كلام الغلاة، إذ إن التمثيل بأقوال فرد أو جماعة يعني الحكم عليهم بالغلو، وهذا يشكل صعوبة نفسية لا تخفى، وللقضية وجه آخر هو أن معظم الغلاة والمتهمين بالغلو ليس لهم كتابات فلا يمكن توثيق أقوالهم توثيقاً مقبولاً في الأبحاث العلمية.

وقد خرجت من ذلك بالتمثيل بأفراد وجماعات عرفوا بالغلو، وأقوالهم الموثقة تشهد بذلك كجماعة شكري مصطفى المعروفة بجماعة المسلمين عند أتباعها، وجماعة: التكفير والهجرة في الأوساط الإعلامية.

وهذا التمثيل وإن ظنَّ أن فيه نوعاً من التخصيص إلا أنه ليس كذلك، إذ أقوالهم ومداخل انحرافهم هي بعينها أقوال ومداخل انحراف أقوام آخرين لكن أولئك وثقوا أقوالهم في مؤلفات، والآخرون لم يوثقوها.

**( ١١ )**

**وبعد:**

فقد كان وكدي وجل همي ومقصدي أن أسدّ ثغرة من الثغرات، ولو بأن أجمع نصوصاً وأنظم عقدها، إذ الإطراف والابتكار ليسا من شأني، ومع ذلك كله فلا أظنّ أني قد أتيت إلا بوشل من محيط، ومهما كان التقصير محزناً، إلا أنَّ مما يجلب العزاء أنَّ الجهد قد استفرغ، والعلم تراكمي، فلعلي قد وضعت لبنة توضع بعدها لبنات فيتم البناء.

وما كان لي أن أصل شيئاً مما ابتغيت لولا عون ربي فله الحمد أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً؛ فما أصبح بي أو بأحدٍ من العباد نعمة إلا هو موليها ومسديها.

ولوالديَّ الكريمين الفضل بعد الله عز وجل، فقد أسديا إليَّ من المعروف، وحسن الرعاية ما لا أملك القدرة على مقابلته ومكافأته.

فلقد كان لفضيلة والدي الشيخ العميد «متقاعد»: معلا بن معيض اللويحق الفضلُ بالحرص على تعليمي وتربيتي فجزاه الله ووالدتي خير ما يجزي والداً عن ولده.

ولفضيلة الشيخ الدكتور: عبد الله بن إبراهيم الطريقي علي فضلٌ لا أنساه، فقد كان ـ حفظه الله ـ يشد من عزيمتي، ويستنهض همتي، ويراجع ما كتبت ويرشدني إلى أساليب جديدة من النظر والبحث، فيصوِّب ويقوِّم ويرشد؛ وهذا يوجب عليَّ أن أسجل له الشكر الصادق، والدعاء أن يعظم الله له الأجر والمثوبة وأن يصلح له النية والذرية.

وأهل الفضل عليَّ من مشايخي وزملائي أكثر من أن أحصرهم فجزاهم الله عني خيراً، وأجزل لهم المثوبة.

وسأبقى حافظاً معروف الجميع ما مُدَّ لي في الحياة ونسيء لي في الأثر.

إن هذه المقدمة صورة أردت تشكيلها لتكون حادية للقاريء أن يتم قراءة البحث كله، وإن لم يكن فهي صورة تقرب المحتوى، وتخط الخطوط الرئيسة للبحث، وفي ذلك بلغة للعجلان.

وإنني إذا أقدم هذا الجهد؛ لأرجو أن يكون لي فيه من إخلاص القصد ما يبلغني مرضاة الرب سبحانه، ومن صواب القول ما ينفع الخلق، ومن التوفيق ما أسلم به من العثرات.

وأسأل الله المغفرة عمَّا سلف وكان من الذنوب والعصيان، واستمد منه العون فهو وحده المستعان، وعليه التكلان.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وآله وصحبه.

وكتب

**عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري**

في ضحى يوم الجمعة السابع عشر من شهر شعبان لعام ١٤١٧هـ

# التّمهيد

**المبحث الأول : مصطلحات البحث .**

**المبحث الثاني : لمحة عن مشكلة الغلو .**

# مُصطلحات البَحث

## المبحث الأول

## مصطلحات البحث

إن فهم مصطلحات البحث، هو مفتاح فهم مرامي الباحث ومقاصده؛ لأن مدار البحث هو على تلك المصطلحات التي هي: ألفاظ جامعة ذات معاني محددة. وفي بحثي هذا جملة من المصطلحات التي يمكن تصنيفها إلى نوعين:

**الأول**: المصطلحات الواردة في البحث، وهي من صميم موضوعه وذلك مثل: الأسباب، المتشابه، التحريف، الصبر، التعصب.

**الصنف الثاني**: المصطلحات العامة، وهي الظاهرة في عنوان البحث.

وكلا الصنفين حقيق بالبيان، بيد أن الصنف الأول تجاذبه مواضع عدة من هذا البحث؛ ولاعتبارات عدة أهمها: عدم قطع المصطلح عن سياقه، كان إرجاء بيانها إلى مواضعها الخاصة بها. وأما مصطلحات الصنف الثاني، فقد عقدت هذا المبحث لبيانها، وهي أربعة مصطلحات:

١ ـ الغلو.

٢ ـ الدين.

٣ ـ العصر.

٤ ـ الحاضر.

* **أولاً: الغلو:**

**تعريف الغلو في اللغة:**

تدور الأحرف الأصلية لهذه الكلمة ومشتقاتها على معنى واحد يدل على مجاوزة الحد والقدر. قال ابن فارس: (الغين واللام والحرف المعتل، أصل

صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر، يقال: غلا السِّعر يغلو غلاء، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلواً، إذا جاوز حده)(١).

وقال ابن منظور: (غلا في الدين والأمر، يغلو غلواً: جاوز حده)(٢).

**معنى الغلو في الشرع:**

ورد النهي في القرآن الكريم عن الغلو، وجاء الخطاب في النهي موجهاً لأهل الكتاب على وجه الخصوص ﴿يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إلٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السمٰوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ [سورة النساء، الآية: ١٧١]، ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٧].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (ينهى ـ تعالى ـ أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو إرشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣١].)(٣).

---

(١) «معجم مقاييس اللغة، مادة (غلوى): (٨١٢).

(٢) «لسان العرب»: مادة (غلا).

(٣) «تفسير ابن كثير»: (١/ ٥٨٩).

وهاتان الآيتان وإن تعلقتا بأهل الكتاب ابتداء، فإن المراد منها موعظة هذه الأمة؛ لتجتنب الأسباب التي أوجبت غضب الله على الأمم السابقة[١].

وفي سنة الرسول ﷺ أحاديث، فيها نهيه ﷺ عن الغلو، وتحذيره من سلوك طرق السابقين بالغلو في الدين، وهذه بعض منها:

١ ـ عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع: «هلمَّ القط لي الحصى» فلقطت له حصيات من حصى الخذف، فلما وضعهن في يده، قال: «نعم بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[٢].

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

(وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رميُ الجمار، وهو داخل فيه، مثل: الرمي بالحجارة الكبار بناء على أنها أبلغ من الصغار، ثم علّله بما يقتضي مجانبة هديهم، أي هدي من كان قبلنا؛ إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك)[٣].

---

(١) ينظر محمد الطاهر بن عاشور: «مقاصد الشريعة الإسلامية»: (٦٠).

(٢) رواه أحمد: (١/ ٢١٥، ٣٤٧)، وابن خزيمة: (٤/ ٢٨٦٧، ٢٨٦٨)، والنسائي: (٥/ ٢٦٨)، كتاب الحج، باب التقاط الحصى، وابن ماجه: (حديث ٣٠٢٩)، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، والحاكم: (١/ ٤٦٦)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والحديث صححه شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء»: (١/ ٢٨٩)، والنووي في «المجموع»: (٨/ ١٣٨).

(٣) نقلاً عن الشيخ سليمان بن عبد الله: «تيسير العزيز الحميد»: (٢٧٥)، ولم أجده في كتابات شيخ الإسلام التي بين يديّ إلا نحوه في «الاقتضاء»: (١/ ٢٨٩).

٢ـ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً[١].

قال النووي: (هلك المتنطعون، أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم)[٢].

٣ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم؛ فإن قوماً شددوا فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[٣].

ومن خلال مجمل النصوص المشتملة على النهي عن الغلو، يتبين أن الغلو نوعان:

**الأول: الغلو الكلي الاعتقادي.**

**الثاني: الغلو الجزئي العملي[٤].**

---

(١) رواه مسلم: (٣/ ٢٠٥٥)، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، وأبو داود: (٥/ ١٥، رقم ٤٦٠٨)، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، وأحمد: (١/ ٣٨٦).

(٢) «شرح صحيح مسلم»: (١٦/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٠٩ ـ ٢١٠، رقم ٤٩٠٤)، كتاب الأدب، باب في الحسد، وأبو يعلى: (حديث ٣٦٩٤)، وفي سنده: سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء، وثقه ابن حبان، وقال الذهبي في «الكاشف»: «وثق» وقال ابن حجر في «التقريب»: «مقبول»، وقال الهيثمي: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء وهو ثقة»، «مجمع الزوائد»: (٦/ ٢٥٦)، وينظر ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٤/ ٣١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٤/ ١٧٨)، والهندي: «كنز العمال»: (حديث ٥٣٤٦)، وقال محقق «مسند أبي يعلى»: «إسناده حسن»: (٦/ ٣٦٥).

(٤) ينظر شيخ الإسلام: «الاقتضاء»: (١/ ٢٨٩).

والمراد بالغلو الكلي الاعتقادي: الغلو المتعلق بكليات الشريعة، وبمسائل الاعتقاد، مثل: الغلو في الولاء والبراء، كالغلو في الأئمة وادعاء العصمة لهم، أو الغلو في البراءة من المجتمع العاصي. ومثل الغلو في التكفير؛ كالتكفير بالمعصية. وهذا الغلو الكلي الاعتقادي أشد خطراً من الغلو الجزئي العملي (ذلك أن هذه الفرق، إنما تصير فرقاً بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين، وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات؛ إذ الجزئي أو الفرع الشاذ، لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرقُ عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية)[1].

فمن أسباب نشوء الفرق: غلوها غلواً كلياً اعتقادياً، ولذلك فإن ثمة أوصافاً وخصائص تجمع بين الفرق الغالية على مر التاريخ، ذكر أهل العلم بعضاً منها. ومما يطرد كثيراً في فرق الغلاة وصفان يجمعهما حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - في حديث قصة الرجل الذي اعترض على قسمة النبي ﷺ وإعطائه صناديد نجد أكثر من غيرهم، وفيه: ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجل من القوم في قتله، فقال النبي ﷺ: «إن من ضئضيء هذا قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»[2].

وهذا تفصيل هذين الوصفين:

---

(١) الشاطبي: «الاعتصام»: (٢/ ٧١٢).

(٢) رواه البخاري: (٨/ ٥٢)، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، ومسلم: (١/ ٧٤٠، رقم ١٠٦٣)، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

**الأول: عدم فهم القرآن**: فهم يقرءونه دون فقه، وعدم فهمهم القرآن جعلهم يأخذون آيات نزلت في الكفار، فيحملونها على المسلمين، فقد قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في الخوارج: «إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين»(١).

**الثاني: التكفير، ويضم بعضهم إلى التكفير استحلال الدماء**: وهذا يكاد يكون مشتركاً بين أكثر أهل البدع. قال أبو قلابة: (ما ابتدع رجل بدعة إلا استحل السيف)(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (طريقة أهل البدع يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ويكفِّرون من خالفهم في بدعهم)(٣).

* * *

**وأما الغلو الجزئي العملي**: فهو ما كان متعلقاً بجزئية أو أكثر من جزئيات الشريعة العملية، سواء كان قولاً باللسان أم عملاً بالجوارح. وذلك مثل: قيام الليل كله.

وإذا كان الغلو الجزئي العملي مرتبطاً بعقيدة فاسدة، انتقل إلى كونه غلواً كلياً اعتقادياً. وذلك مثل من يعتزل مساجد المسلمين؛ لأنه يراها مساجد ضرار، فهذا غالٍ غلواً كلياً اعتقادياً.

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً: (٨/ ٥١)، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين . . .، وأفاد الحافظ في «الفتح»: (١/ ٢٨٢) أن الطبري وصله في «تهذيب الآثار» من مسند علي بإسناد صحيح.

(٢) رواه الدارمي: (١/ ٤٤، رقم ١٠٠)، المقدمة، باب اتباع السنة.

(٣) «الرد على البكري»: (٢/ ٢٥٥).

وكذا إذا تعددت أبواب الغلو الجزئي العملي، تحول إلى غلو كلي اعتقادي؛ إذ إن المعارضة الحاصلة به للشرع مماثلة للغلو في أمر اعتقادي كلي[١].

وقد عالج النبي ﷺ صوراً من الغلو العملي التي حدثت في عصره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فمن ذلك:

١ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٢].

فاستنكر ﷺ هذا الأمر الذي فيه نوع غلو في الدين، وجعله خروجاً عن سنته وهديه، فوقف الصحابة عند الحد، والتزموا هديَ النبي ﷺ.

٢ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ دخل وعندها امرأة، فقال: «من هذه»؟ قالت: فلانة تذكر من صلاتها. قال: «مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل اللهُ حتى تملوا» وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه[٣].

---

(١) ينظر الشاطبي: «الاعتصام»: (٢/ ٧١٣).

(٢) رواه البخاري: (٦/ ١١٦)، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ومسلم: (٢/ ١٠٢٠، رقم ١٤٠١)، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.

(٣) رواه البخاري: (١/ ١٦)، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه، و(٢/ ٤٨)، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، ومسلم: (١/ ٥٤٢)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (عليكم بما تطيقون: أي اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه. فمنطوقه يقتضي الأمر بالاقتصار على ما يطاق من العبادة، ومفهومه يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق)[١].

٣ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «بينما كان النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[٢].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (وفيه: أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلاً، مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة، كالمشي حافياً، والجلوس في الشمس ليس هو من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر)[٣].

* * *

إنه في ضوء النصوص الناهية عن الغلو، والنصوص التي فيها معالجة لبعض قضاياه، والنصوص التي فيها بيان قيام الدين على اليسر ورفع الحرج، تتضح ملامح الغلو فيما يلي:

١ ـ أن يكون الغلو متعلقاً بفقه النصوص، وذلك بأحد أمرين:

أ ـ تفسير النصوص تفسيراً متشدداً، يتعارض مع السمة العامة للشريعة، ومقاصدها الأساسية، فيشدد على نفسه وعلى الآخرين.

---

(١) «فتح الباري»: (١/ ١٠٢).

(٢) رواه البخاري: (٧/ ٢٣٤)، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، وأبو داود: (٣/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠، رقم ٣٣٠٠)، كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية.

(٣) «فتح الباري»: (١١/ ٥٩٠).

ب ـ تكلف التعمق في معاني التنزيل ما لم يكلف به المسلم (ومن طماح النفوس إلى ما لم تكلف به، نشأت الفرق كلُّها أو أكثرها)[١].

٢ ـ أن يكون متعلقاً بالأحكام، وذلك بأحد أمرين:

أ ـ إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله عز وجل عبادة وترهباً. وهذا معياره الذي يحدده الطاقة الذاتية؛ حيث إن تجاوز الطاقة وإن كان بممارسة شيء مشروع الأصل، يعتبر غلواً، كما في حديث أبي إسرائيل السابق ذكره، والقضية في هذا تختلف باختلاف الناس، قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ:

(الفرق بين المشقة التي لا تعد مشقة عادة أو التي تعد مشقة، هو أنه إن كان العملُ يؤدي الدوام عليه إلى الانقطاع عنه، أو عن بعضه، أو وقوع خلل في صاحبه في نفسه أو ماله، أو حال من أحواله، فالمشقة هنا خارجة عن المعتاد، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك في الغالب، فلا يعد في العادة مشقة)[٢].

ب ـ تحريم الطيبات التي أباحها الله ـ عز وجل ـ على وجه التعبد، فهذا من الغلو. كما يتضح ذلك في بعض روايات النفر الثلاثة، حيث حرَّم بعضهم على نفسه أكل اللحم.

ج ـ ترك الضروريات أو بعضها، وذلك كالأكل والشرب والنوم والنكاح، فتركها يعتبر غلواً، ويتضح ذلك في قصة النفر الثلاثة.

٣ ـ أن يكون الغلو متعلقاً بالموقف من الآخرين، وذلك بأحد أمرين:

---

(١) الشاطبي: «الموافقات»: (٢/ ٨٩).

(٢) المصدر نفسه: (٢/ ١٢٣).

أ ـ أن يقف الإنسان من البعض موقف المادح الغالي الذي يوصل ممدوحه سواء كان فرداً أو جماعة إلى درجة العصمة، فيجعله مصدر الحق.

وإنما مصدر الحق: كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ.

ب ـ أن يقف الإنسان من بعض الناس أفرادٍ أو جماعات موقف الذام الغالي، فيصم المسلم بالكفر والمروق من الدين، أو يصم المجتمع المسلم بأنه مجتمع جاهلي.

* * *

لقد اجتهد العلماء في وضع تعريف للغلو في عبارة موجزة. وهذه بعض تلك التعريفات:

١ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (الغلو: مجاوزة الحد، بأن يزاد في الشيء، في حمده أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك)[١]. وبنحو هذا التعريف عرفه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب[٢] ـ رحمهم الله ـ.

٢ ـ وعرفه الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ بأنه: (المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد)[٣].

وهذه التعاريف كلها متقاربة، وتفيد أن الغلو هو تجاوز الحد الشرعي بالزيادة. و(الحدود: هي النهاياتُ لما يجاوز من المباح المأمور به، وغير المأمور به)[٤].

ويزيدُ الشيخ: سليمانُ بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله ـ الأمرَ وضوحاً، فيحدد ضابط الغلو فيقول:

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٢٨٩).
(٢) «تيسير العزيز الحميد»: (٢٥٦).
(٣) «فتح الباري»: (١٣/ ٢٧٨).
(٤) ابن تيمية: «الفتاوى»: (٣/ ٣٦٢).

(وضابطه: تعدي ما أمر الله به. وهو الطغيان الذي نهى الله عنه في قوله: ﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي﴾ [سورة طه، الآية: ٨١].)[١].

وذلك لأن الحق واسطة بين الإفراط والتفريط. يقول عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في كتاب أرسله إلى رجل يسأله عن القدر: (.. وقد قصَّر قوم دونهم[٢] فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم)[٣].

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: (سننكم والله الذي لا إله إلا هو بينهما: بين الغالي والجافي)[٤].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد)[٥]. (وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط، وهو معنى قول مطرِّف بن عبد الله: «الحسنة بين السيئتين»[٦]، وبه تعلم أنَّ من جانب التفريط والإفراط، فقد اهتدى)[٧].

---

(١) «تيسير العزيز الحميد»: (٢٥٦).

(٢) دونهم أي دون السلف: الصحابة رضي الله عنهم.

(٣) رواه أبو داود: (٥/١٩، رقم ٤٦١٢)، كتاب السنة، باب لزوم السنة، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها»: (٣٠)، وابن بطة في «الإبانة»: (١/ ٣٢١).

(٤) رواه الدارمي: (١/ ٦٣، رقم ٢٢٢)، المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي.

(٥) «مدارج السالكين»: (٢/ ٤٩٦)، و«الفوائد»: (١٣٩ ـ ١٤٠).

(٦) نص قوله ـ رحمه الله ـ: (خير الأمور أوسطها، الحسنة بين السيئتين، وشر الأمور الحقحقة)، ينظر ابن رجب الحنبلي: «المحجة في سير الدلجة»: (١٨).

(٧) الشنقيطي: «أضواء البيان»: (١/ ٤٩٤).

## * ثانياً: الدين:

### تعريف الدين لغة:

قال ابن فارس: (دين: الدال والياء والنون: أصل واحد إليه ترجع فروعه كلها، وهو من الانقياد والذل. فالدين الطاعة، يقال: دان له يدين دِيناً، إذا أصحب وانقاد وطاع، وقوم دِينٌ، أي مطيعون منقادون)[(١)].

وقال ابن منظور: (الدِّين: الجزاء والمكافأة . . . والدِّين الحساب، ومنه قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ [سورة الفاتحة، الآية: ٣]، وقيل معناه: مالك يوم الجزاء . . . والدِّين الطاعة. وقد دِنته ودنتُ له، أي أطعته . . . والجمع الأديان . . . والدِّين الإسلام . . . والدِّين العادة والشأن، تقول العرب: مازال ذلك ديني وديدني، أي عادتي)[(٢)].

### المقصود بالدين في هذا البحث:

اشتهر عند من كتب في المصطلحات، تعريف الدين بأنه: (وضع إلٰهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات قلبياً أو قالبياً، كالاعتقاد والعلم والصلاة)[(٣)]. أو (وضع إلٰهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل)[(٤)].

ويفرقون بين الدين والملة والمذهب، بأن (الدين منسوب إلى الله، والملة إلى الرسول، والمذهب إلى المجتهد)[(٥)]، هذا كلامهم مطلقاً عن الدين، فإذا كان

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٣٧٢)، مادة (دين).

(٢) «لسان العرب»: (١٣/ ١٦٩)، مادة (دين).

(٣) أبو البقاء الكفوي: «الكليات»: (٤٤٣).

(٤) ينظر د. محمد دراز: «الدين» بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان: (٢٣).

(٥) ينظر أبو البقاء الكفوي: «الكليات»: (٤٤٣)، والجرجاني: «التعريفات»: (١٤١).

الكلام عن الدين عند قوم، فالمراد ما يدينون به، فأهل الإسلام إذا قالوا: الدين فالمراد به الإسلام.

وعلى هذا فالمراد بالدين في هذا البحث: الإسلام، فأل للعهد. فهذا البحث يدرس مشكلة الغلو في دين الإسلام، بتجاوز حدوده في هذا العصر الحاضر.

* **ثالثاً: العصر:**

**تعريف العصر لغة:**

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: (العين والصاد والراء، أصول ثلاثة صحيحة: فالأول: دهر وحين. والثاني: ضغط شيء حتى يتحلب. والثالث: تعلق بشيء وامتساك به.

فالأول: العصر وهو الدهر، قال الله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ [سورة العصر، الآيتان: ١، ٢].)[١].

**تعريف العصر اصطلاحاً:**

في «المعجم الوسيط»: (العصر: الدهر، والزمن ينسب إلى ملك أو دولة أو إلى تطورات طبيعية أو اجتماعية، يقال: عصرُ الدولة العباسية، وعصر هارون الرشيد، والعصر الحجري، وعصر البخار والكهرباء، وعصر الذرة. ويقال في التاريخ: العصر القديم، والعصر المتوسط، والعصر الحديث)[٢].

والعصر هنا مضاف إلى الحاضر، فهو العصر الذي نعيش فيه الآن، على ما سيأتي بيانه.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٤/ ٣٤٠ ـ ٣٤٤)، مادة (عصر)، وينظر ابن منظور: «لسان العرب»: (٤/ ٥٧٥ـ٥٧٦)، مادة (عصر).

(٢) مجموعة من المؤلفين في مجمع اللغة العربية بمصر: (٢/ ٦١٠).

* **رابعاً : الحاضر :**

**تعريف الحاضر في اللغة :**

قال ابن فارس : (الحاء والضاد والراء : إيراد الشيء ، ووروده ، ومشاهدته ، وقد يجيء ما يبعد عن هذا وإن كان الأصل واحداً)[١] .

**المراد بالحاضر في هذا البحث :**

المراد بالحاضر هنا: الزمن الذي نعيشه. وذلك بتركيز الدراسة في هذا البحث على الفترة التي اشتهرت فيها نسبة بعض المنتسبين للدعوة إلى الغلو، وهي بشكل تقريبي: من أواخر عقد الثمانينات من القرن الهجري السابق إلى اليوم.

❑ ❑ ❑

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٢/ ٧٥ـ٧٦)، مادة (حضر).

# لمحة عن مُشكلة الغلوّ

## المبحث الثاني

## لمحة عن مشكلة الغلو

من الحقائق الظاهرة لكل من تتبع دعوات الرسل تنوع استجابات الناس لها، وتفاوتهم في مقدار الاستجابة لهم بين:

١ ـ متمسك بالحق، مستقيم على طريقه.

٢ ـ مفرِّطٍ زائغ مضيع لحدود الله.

٣ ـ غالٍ تجاوز حدود الله.

وكل أولئك وجدوا فيمن سبق أمة محمد ﷺ فبنو إسرائيل غلو في دينهم؛ ولذلك نهاهم الله عن الغلو فقال: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إلٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السمٰوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ [سورة النساء، الآية: ١٧١].

وقال سبحانه: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٧]. أي: (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم فتجاوزوا الحق؛ فإن قولكم بأن عيسى ابن الله قول منكم على الله بغير الحق، ولا ترفعوه إلى مقام الألوهية، فتجعلوه ربّاً وإلٰهاً)[1].

---

(١) ينظر الطبري: «جامع البيان»: (٦/ ٣٤)، والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»: (٦/ ٢١).

وهاتان الآيتان وإن كانتا متعلقتين بأهل الكتاب، فإن المراد تحذير هذه الأمة؛ لتجتنب أسباب هلاك الأمم السابقة. ولذلك قرن النبي ﷺ النهي عن الغلو ببيان أنه سببُ هلاك الأمم السابقة، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع: «هلم القط لي الحصى» فلقطت له حصيات من حصى الخذف، فلما وضعهن في يده قال: «نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»(١).

وقد وقع هذا الغلو بالفعل في هذه الأمة بنوعيه:

١ ـ الغلو الكلي الاعتقادي.

٢ ـ الغلو العملي الجزئي(٢).

فقد وقعت بذرة الغلو العقدي في زمن النبي ﷺ «إن من ضئضيء هذا قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان»(٣).

كما وقع الغلو العملي في عهده ﷺ ففي الحديث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٤).

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٢).

(٢) ينظر شيخ الإسلام ابن تيمية: «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٢٨٩).

(٣) سبق تخريجه ص (٢٤).

(٤) سبق تخريجه ص (٢٦).

وهذا الغلو العملي الجزئي، تتكرر صوره في كل زمان على أيدي أفراد من الناس.

وأما الغلو الكلي الاعتقادي، فقد نمت تلك البذرة الخبيثة؛ لتثمر شراً وفتناً. وبدأ الأمر حين أوغر المغرضون الصدور على الخليفة الراشد أمير المؤمنين: عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ حتى امتدت إليه الأيدي الآثمة فقتلته، فكان قتله هو الفتيل الذي أشعل نار الفتنة الهوجاء؛ إذ وقع الاختلاف بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ففريق يرى وجوب المبادرة إلى القصاص من قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ، وفريق يرى تأخير ذلك حتى تقوى شوكة الدولة، وتتمكن من متابعة قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ[1]. فجاءت وقعة الجمل لتمثل الصراع الذي أثاره الاختلاف. وكان لمثيري الفتنة فيه دور كبير؛ إذ بعد أن اتفق الصحابة على الصلح أثيرت الفتنة ووقعت المعركة. وليس فريق من الفريقين بدأها، وإنما بدأها المغرضون[2].

ثم بعد وقعة الجمل حدثت وقعة صفين بين علي ـ رضي الله عنه ـ وأشياعه، ومعاوية ـ رضي الله عنه ـ وأشياعه. فكانت هذه المرحلة الأكثر تأثيراً في انتشار الفتن ونشوء الفرق؛ إذ تعد حادثة التحكيم التي أعقبت الوقعة المنتج لأكبر فرقتين غاليتين في تاريخ المسلمين (الخوارجُ والروافضُ) وكلتا الفرقتين غاليتان، ولكنه غلو متقابل في جوانب متفق في جوانب: ففي جانب الولاء والبراء غلت الخوارج في البراءة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومنهم علي بن أبي طالب. وغلت الروافض في الولاء لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وذريته من بعده.

---

(١) ينظر: د. أحمد محمد جلي: «دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين»: (٢٩ ـ ٣٠).

(٢) ينظر: أحمد راتب عرموش: «الفتنة ووقعة الجمل برواية سيف بن عمر الضبي»: (١٤٤ ـ ١٧٩)، والدكتور أحمد جلي: «دراسة عن الفرق»: (٢٩ ـ ٣٠).

وهم متفقون في التكفير، فكلهم يكفر، ولكن اختلافهم هو في محل التكفير وموضوعه[١].

ثم تتابع ظهور الفرق في تاريخ المسلمين، فخرجت المرجئة والقدرية والمعتزلة . . وغيرهم.

ولم ينقطع حبل هذه الفرق إلى هذا العصر ابتلاء من الله عز وجل ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حيَّ عن بينة﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٢].

فكانت مشكلة الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، فكادت أن تكون المشكلة الأولى في العالم المعاصر. ولم تشغل المشكلة الناس إلا من وجهها الكلي الاعتقادي. أما الغلو الفردي الجزئي العملي، فهو غلو سلوك فردي لم يشغل الناس.

* **مظاهر الغلو في الدين في العصر الحديث :**

لقد غلا أقوام في الدين فوقعوا في جملة من مظاهر الغلو، مثل:

١ ـ الغلو في مفهوم الجماعة. وجعل الجماعة التي أمرنا بلزومها جماعتهم الخاصة.

٢ ـ الغلو في التعصب للجماعة.

٣ ـ الغلو بجعل الجماعة مصدر الحق.

٤ ـ الغلو في قائد الجماعة.

٥ ـ التكفير بالمعصية.

٦ ـ تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله بإطلاق.

٧ ـ تكفير الأتباع المحكومين بغير ما أنزل الله بإطلاق.

---

(١) ينظر مجمل آراء الخوارج عند الشهرستاني في «الملل والنحل»: (١/ ١١٤ ـ ١٣٨)، ومجمل آراء الرافضة عنده أيضاً: (١/ ١٤٦ ـ ١٩٠).

٨ـ تكفير الخارج عن الجماعة.

٩ـ تكفير المقيم ـ الذي لم يهاجر ـ في المجتمعات المسلمة المعاصرة.

١٠ـ تكفير المعين دون اعتبار للضوابط الشرعية.

١١ـ تكفير من لم يكفروه، فكفروا الناس ظلماً، ثم كفروا من لم يكفرهم.

١٢ـ التوقف في المسلمين وعدم الحكم بإسلامهم إلا بعد امتحانهم وتبين حالهم.

١٣ـ القول بجاهلية المجتمعات المسلمة المعاصرة.

١٤ـ الحكم على بلاد المسلمين بأنها دار كفر، واستحلال الدماء والأموال بناء على ذلك.

١٥ـ الغلو في مفهوم التقليد، وإنكار الإجماع.

١٦ـ الغلو في ذم المقلدين، والزعم أنهم بالتقليد كفروا.

١٧ـ إلزام جميع الناس بالاجتهاد للوصول إلى الأحكام الشرعية.

١٨ـ تحريم الطيبات.

١٩ـ التشديد على الناس.

٢٠ـ الخروج على الحاكم المسلم.

٢١ـ الخروج على الحاكم الجائر أو الظالم.

٢٢ـ الاغتيالات للمسلمين أو المعصومين، كالمعاهدين ونحوهم، والقيام بأعمال تخريبية.

٢٣ـ تحريم التعليم والدعوة إلى الأمية.

٢٤ـ تحريم الصلاة في المساجد؛ لأنها لم تؤسس على التقوى ـ كما يزعمون ـ إلا المساجد الأربعة: الحرام، والنبوي، والأقصى، وقباء.

٢٥ـ إيقاف صلاة الجمعة؛ لأن الأمة في عهد استضعاف ـ كما يزعمون ـ.

٢٦ـ الغلو باعتزال المجتمعات ومفاصلتها.

٢٧ـ الغلو بهجرة المجتمعات .

٢٨ـ القول بمرحلية الأحكام، وأننا نعيش فيما يشبه العهد المكي، فنطبق الإسلام كما كان يطبق إذ ذاك .

٢٩ـ الغلو بتحريم العمل في الوظائف الحكومية(١).

* **جذور الغلو في الدين في العصر الحاضر :**

تعود جذور الغلو في العصر الحديث إلى :

١ ـ جذور تاريخية .

٢ ـ جذور فكرية وعلمية .

٣ـ جذور نفسية .

وهذا مختصر القول في هذه الجذور:

**١ ـ الجذور التاريخية :**

إن الدارس لمذهب الخوارج ـ مثلاً ـ يجد شيئاً من التشابه مع آراء الغلاة المعاصرين . فمن ذلك مثلاً :

أ ـ تكفير العصاة أصحاب الكبائر(١).

ب ـ الانفصال الكامل عن المجتمع(٢).

ج ـ تكفير المسلم غير المهاجر(٣).

---

(١) وقد فصلت القول في هذه المظاهر في بحثي : «الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة» .

(١) ينظر رأي الخوارج عند الشهرستاني : «الملل والنحل» : (١/ ١١٥)، ورأي الغلاة المعاصرين في بحثي : «الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة» : (٢٦٥ ـ ٢٨٨) .

(٢) ينظر رأي الأزارقة من الخوارج عند محمد الدجيلي : «فرقة الأزارقة» : (٨٠)، ورأي الغلاة المعاصرين في بحثي السابق ذكره : (٤٧٦ ـ ٥٠١) .

(٣) ينظر رأي الخوارج عند الشهرستاني : «الملل والنحل» : (١/ ١٢١)، ورأي الغلاة المعاصرين في بحثي السابق ذكره : (٣٠٦ ـ ٣١٠) .

د ـ القول بأن ديار المسلمين دار كفر، تستباح فيها الدماء[١].

ولكن هذا التوافق لا يعني أن الغلاة المعاصرين، استمدوا غلوهم من السابقين، فمن دراسة الغلو المعاصر، تبين لي أنه لم يتصل بفكر الخوارج ولا الروافض ولا الفرق الأخرى، بل هو مبتوت الصلة بهذه الأفكار. يدل على ذلك الحقائق الآتية:

أ ـ إن الظرف الزماني والمكاني الذي نشأت فيه هذه الآراء، لم يكن من السهولة فيه الاتصالُ بالكتب التي تتحدث عن فرق أهل الضلال. يقول أحد الواقعين في الغلو: (هذه الأحكام وليدة الزنزانات، والفقه البعيد عن أي كتاب؛ إذ لم يكن مع الجميع كتاب واحد، حتى المصاحف كانت تصادر منا، وما توصل إليه الشباب، فهو اجتهاد يقوم على ما يحفظون من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ)[٢].

ب ـ إن الغلو حَدَثَ بعد مناقشات لبعض المسائل المستجدة، فهو وليدُ ظروف وأحداث، ولم يكن عند أصحابه الأوائل مبادىء التقوا عليها من الأساس

ج ـ إن غالب الأفراد الذين ابتدءوا الغلو ـ إن لم يكن كلهم ـ على جهل، وغير متخصصين في العلوم الشرعية؛ إذ لم يسبق لهم اطلاع على هذه الكتب. ولذلك عندما بيّن لهم بعض من ناقشهم، أن آراءهم موجودة في الملل والنحل للشهرستاني ونحوه من كتب الفرق، قال بعضهم: بأنه لم يسمع بهذه الكتب. وقال آخرون: إنهم سمعوا بها ولم يروها[٣].

---

(١) ينظر رأي فرقة الأزارقة من الخوارج عند البغدادي: «الفرق بين الفرق»: (٨٤)، ورأي الغلاة المعاصرين في بحثي السابق ذكره: (٣٣٠ـ٣٤٦).

(٢) نقلاً عن د. نعمان السامرائي: «التكفير: جذوره، أسبابه، مبرراته»: (٨).

(٣) ينظر المصدر السابق: (١٢).

د ـ إن ممن وقع في الغلو قوماً رجعوا عن آرائهم، لما رأوا أصلها عند الخوارج. مما يدل على ظنهم أنهم سابقون إلى هذه الأفكار[1].

ولكن هذا لا يقصد به عدم استفادة المتصدرين من الغلاة المعاصرين مما طرحه الخوارج. فالذي يظهر أنهم استفادوا منهم بصورة ما. ويمكن أن يستأنس في ذلك بما يلي:

أ ـ إن المناقشين لمنظري الغلاة، بينوا لهم سبق الخوارج وغيرهم من الفرق إلى مثل هذه الآراء، مما دفعهم إلى الاطلاع عليها.

ب ـ إن تطور فكرهم، وقوة استدلالاتهم في المراحل المتأخرة، دال على استنادهم إلى آراء سابقة لآرائهم.

ج ـ إن بعض الآراء التي طرحها الغلاة، مثل غلوهم في تكفير مرتكب الكبيرة، تكاد أدلتها أن تكون صورة لأدلة الخوارج من قبل.

وبهذا يتبين أن أثر الفرق القديمة على الغلاة المعاصرين؛ جاء تالياً ولاحقاً. فقد انحصر في إثراء تيارات الغلو وتأييد حججها لا في إيجادها؛ إذ إن وجودها كان أثراً لجملة من العوامل والجذور. وليس في هذا تبرئة لساحة الغلاة، أو تسويغاً لما وقعوا فيه، ولكنه عرض لجذور أفكارهم تاريخياً، بما يساعد على تصور هذه القضية وفهمها، ومن ثمَّ علاجها العلاج الصحيح الرشيد.

**٢ ـ الجذور الفكرية والعلمية:**

يمكن تصنيف جذور الغلو من الناحية الفكرية إلى جانبين:

أ ـ الجهل بمعنى انعدام العلم أو قصور العلم.

ب ـ اختلال المنهج.

---

(١) ينظر البهنساوي: «الحكم وقضية تكفير المسلم»: (١٧٩).

وفي الباب الأول من هذا البحث، تفصيل واف ـ بحول الله ـ ببيان هذه الجذور.

٣ـ الجذور النفسية :

ويمكن تلخيص القول في هذه الجذور فيما يلي :

* إن وجود خلل في التركيبة النفسية للغلاة، أمر لا ينكر في الجملة. ولكن ذلك الخلل في التركيبة النفسية شأن فردي. فكون فرد من الغلاة ذا نفسية غير سوية، لا يقصد به اطراد هذه القاعدة في كل الغلاة ولا أن الغلو نشأ في الجملة بسبب ذلك العوج.

* إن كثيراً من الاختلال النفسي عائد إلى الضغوط التي يتعرض لها الإنسان، والإنسان لا يولد معوج النفس، بل تتشكل نفسيته بحسب التربية والظروف التي يتعرض لها.

* إنه قد توجد قابلية نفسية عند بعض الغلاة؛ حيث استجابوا للضغوط، فنتجت ردة الفعل (الغلو) وخصوصاً عند فئة الشباب؛ إذ إنهم أكثر فئات المجتمع تعرضاً للوقوع في الغلو؛ لما يتوافر لهذه الفئة من الإمكانات والطاقات مع ضعف التجربة وقلة العلم.

* إن الغلو يمثل رد فعل، أو إفرازاً طبيعياً لسلسلة من المشكلات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ إذ وقع الغلاة تحت التأثير الشديد للضغوط في هذه المجالات. فهناك إذاً جانبان للقضية :

أ ـ ظواهر وأنماط فكرية تثير أعضاء مجتمع معين (الفعل).

ب ـ التعبير عن عدم الرضا بهذه الظواهر (رد الفعل).

وإنما كان التعبير عن عدم الرضا بهذا الأسلوب الغالي لأمرين :

الأول : اختلال المناهج العلمية.

الثاني: اختلال المناهج العملية.

وبيان ذلك الاختلال، مع بيان الأوضاع المشكِّلة للفعل المنتج لردود الأفعال، هي التي قمت بدراستها في الباب الأول من هذا البحث.

* **أهمية مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر:**

لقد أضحت مشكلة الغلو من أهم المشكلات في العصر الحديث، وصارت همّاً يؤرق أعداء الإسلام والمسلمين، كما هي هم يؤرق أهل الإسلام. ولهذا الاهتمام مظاهر منها:

١ـ كثرة الكتابات، والمؤلفات، والمقالات، والندوات عن هذه المشكلة؛ حيث تعد تلك الكتابات اليوم بالألوف، ولا يكاد يمرُّ يوم لا يظهر فيه مقال أو كتاب عن المشكلة.

٢ـ تصدر الأخبار المتعلقة بالغلو نشرات الأخبار، والصفحات الأولى من الجرائد، وأغلفة المجلات. مما يدل على عظيم الاهتمام بهذه المشكلة.

٣ـ اهتمام الساسة بهذه المشكلة في معظم أصقاع العالم؛ إذ تجد لها مكاناً في تصريحاتهم، والبيانات الختامية للقاءاتهم، والبيانات الختامية للمؤتمرات.

٤ـ اهتمام المختصين في القوانين في كثير من الدول، بسن القوانين الخاصة بالإرهاب والعنف.

فأصبحت المشكلة بهذا هماً عاماً. وانتقل الحديث عنها من الخاصة إلى العامة. كما أصبحت هما دولياً بعد أن كانت هماً محلياً. وأصبحت هماً عاماً في كل دين وملة، بعد أن كان الحديث عنها محدوداً بأهل بعض الأديان والملل.

* * *

لقد صارت مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر مشكلة مركبة، فلم تعد مشكلة سهلة مقتصرة على غلو الغلاة، بل اكتنفتها ظروف زادت الأمر إشكالاً. فمن تلك الظروف:

١ـ عالمية المشكلة:

لقد نقل الإعلام المعاصر الحدث من المحلية إلى العالمية، فأصبح العالم (قرية واحدة) من جهة نقل الحدث، ومن جهة تشابك المصالح، فصار الحدث منقولاً في الساعة ذاتها إلى العالم كله. وتشابكت المصالح، بحيث أضحى أي تهديد لمصالح بلد ما، يمثل نوعاً من التهديد لمصالح بلدان أخرى.

كما أن لعالمية المشكلة وجهاً آخر، هو كون الغلو و(التطرف) و(العنف) و(الإرهاب) من السمات الظاهرة في هذا العصر؛ إذ صار في كل بلد طائفة تحمل عقيدة ما، تستميت في الدفاع عنها. وتهدد ـ أو يقال عنها: إنها تهدد ـ مصالح الأمة.

٢ـ اندراس المفهوم الصحيح للغلو:

إن مما زاد المشكلة: اندراس المفهوم الصحيح للغلو، حتى أضحى ضائعاً بين طرفين:

ـ طرف مُفرِّط، يرى الالتزام بالإسلام، والحكم بشريعة سيد الأنام ﷺ نوعاً من الغلو. فصاروا يكتبون في الغلو من هذا المنطلق، فاختلطت الأمور، حيث عدوا الحجاب من الغلو، وتحريم الربا من الغلو، وإعفاء اللحى من الغلو.

ـ وطرف غلا، فيرى أن غلوه إنما هو اعتدال مطابق للوحي الذي بعث به محمد ﷺ.

٣ـ تعدد المظاهر والأسباب وتشابكها :

إن مما يعقد المشكلة في العصر الحديث: تعدد مظاهر المشكلة وتعدد أسبابها ومواردها؛ حيث لم تعد تلك المشكلة التي ليس لها إلا مظهر أو مظهران؛ بل تعددت المظاهر وتنوعت. فمنها المظاهر العقدية، ومنها المظاهر السلوكية، ومنها المظاهر المتعلقة بالتشريع، ومنها المظاهر المتعلقة بالتعامل مع الناس والحكم عليهم.

وفي الجانب الواحد تجد تعدداً كبيراً، فمظاهر الغلو في التكفير تزيد عن عشرة مظاهر. وهذه المظاهر مع تنوعها وتعددها هي مظاهر متشابكة بعضها آخذ بحجز بعض. فتكفير الحاكم بغير ما أنزل الله، ساق إلى إطلاق القول بتكفير المحكوم بغير ما أنزل الله، ثم تكفير العاملين في الوظائف الحكومية، ثم القول بجاهلية المجتمعات، وأن البلاد الإسلامية أضحت دار كفر. ثم تتابع الأمر فحرمت الصلاة في المساجد، وهلم جراً.

كما تنوع الوقوع في مظاهر الغلو بتنوع الواقعين فيه أفرادٍ وجماعات، مما وسَّع المشكلة وزادها اشتعالاً.

وفي الأسباب يقال مثل ذلك. فقد تنوعت وتعددت، كما يظهر من قراءة فهرست هذا البحث. وتشابكت تلك الأسباب لتشكل المشكلة المعاصرة. وأضحى الكلام في هذه المشكلة بعَدّلٍ مقتضياً لتوسيع النظر في هذه الأسباب وتلك المظاهر.

٤ ـ تصدي أصناف متعددة لهذه المشكلة :

إن مشكلة الغلو في الدين، منسوبة إلى الدين. فالحكم فيها هو الدين يحدد المفهوم الصحيح ويحدد مظاهر الغلو وأسبابه وموارده. ولكن الواقع المعاصر يظهر أن هذه المشكلة أضحت كلأً مباحاً يرتع فيه كل أحد، فتكلم في

المشكلة اليهود، والنصارى، والعلمانيون، والجهلة، والمثقفون ثقافة غير شرعية. فاختلطت المفاهيم، وتنوعت الأقوال وتعددت بحسب تعدد عقول هؤلاء ومشاربهم واعتقاداتهم؛ فإن (الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء. وإذا ردوا إلى عقولهم، فلكل واحد منهم عقل)(١).

والقارىء للمؤلفات والكتابات حول الغلو يجد مصداق ذلك؛ فقد وصل الطرح في قضايا الغلو إلى حد ممجوج من طوائف ليست لها أدنى صلة بهذا الدين.

**٥ـ جعل محاربة الغلو تكأة لمحاربة الإسلام:**

إن من الصعب على بعض الكفار والمنافقين، إظهار العداوة للإسلام. ولكن إظهار العداوة للغلو ومحاربته لها ما يسوِّغها. لذلك اتخذ أقوام محاربة الغلو تكأة لمحاربة الإسلام، فباسم محاربة الغلو حورب الدين ذاته. يظهر ذلك في نقدهم للحكم بالشريعة، وللحاكمين بالشريعة، وللدعاة إلى تطبيق الشريعة. ولذلك يشخِّص بعض العلمانيين المشكلة فيقول: (المشكلة ـ في تشخيصها الأولي ـ هي بروز تيار ديني سياسي، أو سياسي ديني، يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، دون أن يحدِّد ما هي الشريعة الإسلامية تحديداً واضحاً.

إن هذا التيار يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية فوراً، أي بدون نقاش عام حول ذلك، وبدون إتاحة الفرصة للمواطنين كي يختاروا ماذا يريدون أن يختاروا، حتى لو اختاروا الشريعة الإسلامية. إنهم يطالبون بتطبيقها بدون نقاش حول أي شريعة يختارها المواطنون. وكيف يواجهون بالشريعة مختلف التحديات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؟)(٢).

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «درء التعارض»: (١/ ٢٢٩)، وينظر: «الفتاوى»: (٢٠/ ١٦٣).

(٢) د. فرج فودة: «ندوة التطرف السياسي والديني»: مجلة فكر، عدد (٨)، (١٠١ـ١٠٢).

كما يقحم العلمانيون دولتين عربيتين مسلمتين، إحداهما تطبق الشريعة الإسلامية، هي المملكة العربية السعودية. والأخرى مرت بها محاولة لتطبيقها هي السودان في عهد الرئيس السوداني الأسبق: محمد جعفر النميري[١].

ويقول د. فؤاد زكريا: (إن امتلاء الساحة بالكتب التي تحرم التصوير، والموسيقى، وتخوف الناس من عذاب القبر، ليس سبباً لتطرف هؤلاء الشباب، بل نتيجة له، وهو ذاته جزء لا يتجزأ من ظاهرة التطرف التي نسعى إلى تقليلها)[٢].

فإذا حورب تطبيق الشريعة الإسلامية، وعد من الغلو، وقيل إن تخويف الناس من عذاب القبر، وتحريم التصوير والموسيقى من الغلو، فإن ذلك يبين أن المحارب ليس الغلو، وإنما هو الإسلام ذاته.

٦ـ تضخيم المشكلة:

لقد ضخمت مشكلة الغلو عند المسلمين وهوّلت في مقابل تيارات الغلو و(التطرف) في الديانات المختلفة. فالغلو الهندوسي ظاهر ظهوراً بيناً، حتى أصبحت الاضطرابات التي يشعلها الهندوس مع ما يقابلها من خسائر في الأرواح والممتلكات، ظاهرة تهدد حياة المسلمين، وتضرب مقومات حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، بل تطال مساجدهم. وفي عام واحد هو عام ١٩٨٠م بلغت الحوادث الطائفية في الهند ٤٢٧ حادثاً، قتل فيها ٣٧٥، وجرح ٢٨٣٨، وهذا عدد كبير[٣].

(١) المصدر نفسه: (٥٧ـ٥٨). (٢) جريدة الأهرام: ١٢/٦/١٩٨٨م.

(٣) ينظر أبو ذر كمال الدين: «طبيعة وحجم المشكلات الاقتصادية للمسلمين الهنود»، من بحوث مؤتمر الأقليات المسلمة في العالم: (٧٨٩)، والإحصائية مستقاة من التقرير السنوي لوزارة الداخلية الهندية لعام ١٩٨٣ـ١٩٨٤م.

والفلبين تعاني من الغلو النصراني، الذي ذهب ضحيته الآلاف. والبوسنة عانت من الغلو و(التطرف) الصربي، الذي راح ضحيته عشرات الآلاف. والغلو اليهودي الذي تتعدد منظماته، وجماعاته التي تسفك الدماء وتسرق الأراضي والدور، وتمتهن حرمات المقدسات[١].

كل أولئك غلاة ملء السمع والبصر، ولكن يغض البصر عنهم، ويهول تيار الغلو والتطرف عند المسلمين، فأصبح مجرد ذكر (التطرف الديني) ينصرف الذهن فيه إلى المسلمين. فالمعنيون بالتطرف في نظر الغرب هم: (المسلمون فقط من شعوب وحركات وجمعيات. فاليهود مثلاً رغم كل ما قاموا به من إرهاب وقتل وإحراق وتخريب للمسلمين وديارهم، منذ قيام إسرائيل وحتى الآن، لا يعتبر عملهم تطرفاً دينياً!! وما تقوم به حكومات مسيحية كالفلبين ضد المسلمين، لم يصنفه أحد في الغرب بأنه تطرف ديني)[٢].

بل (تمر أخبار التطرف اليميني واليساري في الغرب بهدوء تام في الوقت الذي يَدُق فيه الإعلام الغربي يومياً ناقوس الخطر ضد التطرف الديني)[٣].

ويمكن أن يعرف ذلك من دراسة التعامل الإعلامي مع حادث التفجير في مركز التجارة العالمي في نيويورك، والذي اتهم فيه بعض المسلمين، والتعامل الإعلامي مع حادث تفجير المبنى الاتحادي في أوكلاهوما بالولايات المتحدة الذي اتهم فيه بعض الأمريكيين، بعد أن تداعى الإعلاميون الغربيون، والمختصون في القضايا المتعلقة بالمسلمين إلى متابعة الفعلة من (الإرهابيين المسلمين) بزعمهم.

---

(١) ينظر إدريس الكتاني: «كيف نفهم التطرف الديني»: (٧٥ ـ ٧٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

إن تهويل المشكلة يفقد الدارس لها الرؤية الصحيحة، كما أن تهوينها يفقده الرؤية الصحيحة أيضاً .

إن المشكلة بهذا، لم تعد مشكلة الغلو فقط ولكنها :

- مشكلة الغلو.
- ومشكلة الخطأ في فهم الغلو.
- ومشكلة تصدي من ليس بأهل للكلام في المشكلة للكلام فيها .
- ومشكلة اتخاذ الغلو ذريعة لمحاربة الإسلام .
- ومشكلة تضخيم المشكلة وتهويلها .

# البَابُ الأوّلُ

# أَسْبَابُ مُشْكِلَةِ الغُلوّ فِي الدِّين فِي العَصْرِ الحَاضِر

**وفيه ثلاثة فصول:**

**الفصل الأول : الأسباب العلمية والمنهجية.**

**الفصل الثاني: الأسباب النفسية والتربوية.**

**الفصل الثالث: الأسباب الاجتماعية والعالمية.**

## تمهيد

لقد جعل الله عز وجل لكل شيء سبباً، وجعل الظواهر والمشكلات التي يقع فيها النّاس راجعةً إلى أسباب سائقة إليها، وهذه سنة من سنن الله عز وجل في الخلق والكون، وإن كان سبحانه قادراً على إيجاد الأمر دون أن تكون له أسبابٌ طبيعية، فهو الخالق للمخلوق وسببه وهو مسبب الأسباب ـ جل شأنه ـ.

ومشكلة الغلو ليست بدعاً من المشكلات، إذ لها أسبابٌ لإيجادها، وأسبابٌ لإمدادها، وهذا الباب معقودٌ لبحث أسباب مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر ومصدرٌ بتمهيدٍ يتضمن ما يلي:

١ ـ تعريف السبب في اللغة، والمراد به في هذا البحث.

٢ ـ منهجي في استخراج أسباب الغلو.

٣ ـ ملاحظ عامة حول أسباب الغلو.

٤ ـ ملاحظ على مناهج الدارسين لأسباب الغلو.

* **أولاً: تعريف السبب:**

السبب في اللغة: ما يتوصل به إلى غيره.

بهذا عرفه الفيروزآبادي وابن منظورٍ وغيرهما[1].

والمراد به هنا: العوامل المؤدية إلى الوقوع في الغلو سواء أكانت متعلقة بالجانب الذاتي للغالي أو الجماعة الغالية، أم كانت متعلقة بالبيئة المحيطة به.

---

(١) ينظر «القاموس المحيط»: مادة سبب (١٢٣). و«لسان العرب»: مادة سبب (٢/ ١٠١١).

وهذه الأسباب قد يكون تأثيرها في إحداث المشكلة ابتداء وقد يكون تأثيرها في إمداد المشكلة واستمرارها، ونشر مظاهرها.

* **ثانياً : منهجي في استخراج الأسباب :**

لقد اجتهدت في استخراج الأسباب عبر وسائل عدةٍ هي :

١ ـ قراءة كتاباتِ الواقعين في الغلو، ومحاولة استنتاج الأسباب التي دفعتهم إلى الآراء الغالية فمن صريح بعض النصوص، ومن ظلال بعض النصوص الأخرى تتبين الأمورُ التي أثارت حفيظة الغالي فأسجل هذا الأمر، ثم أحاول دراسة أقوالهم الأخرى لمعرفة مدى تأثير ذلك السبب في نفوسهم.

كما تفيد دراسة مؤلفات الغلاة معرفةَ المداخل المنهجية التي أدت بهم إلى الغلو، أو الثغرات التي نفذت منها مظاهره ومؤلفات الغلاة أقوى المصادر الدالة على سببية الأمر وسوقه إلى الغلو.

٢ ـ الدراسة التاريخية للنظر في نظائر هذه المشكلة في داخل المجتمعات المسلمة ـ قديماً وحديثاً ـ وهذا يفيد من جهتين :

الأولى : معرفة المداخل المنهجية السائقة إلى الغلو.

الثانية : معرفة الظروف التي نشأ فيها ذلك الانحراف.

ذلك أن صورة الغلو قد تتكرر في جيلين من أجيال التاريخ مع أن التالي لم يتلق غلوه من السابق يقول د. نعمان السامرائي عن آراء الخوارج والمعتزلة في قضايا الإيمان، لقد (جاء اليوم من ينفض عنها الغبار، ويحاول أن يعيد إليها الحياة، وفي كثير من الأحيان ـ كما يبدو لي ـ لم يكن «الطارحون الجدد» على علم مسبق، ولكنّه لون غريب من التوافق في التفكير أدّى إلى عين النتائج كما يمكن أن يكون البعض قد درس هذه الفرق وتأثر بمعتقداتها،

وبما توصلت إليه من أفكار وما استشهدت به من حجج)[١].

فهذا التوافق سيسوق ولا بدّ لمعرفة قواسم مشتركة في المنهج العلمي أو العملي، أو في الواقع من جهة العلم أو الجهل، أو من جهة الظروف والسياق العام. كما قد يلفت هذا النظر إلى لون من ألوان المشاركة في مصادر التلقي، ولذلك فإنّي وجدت أنّه لا يمكن إغفال الجذور التاريخية للمشكلة، فالغلاة المعاصرون حلقة من حلقات الغلو والابتداع التي ظهرت في هذه الأمة.

٣ـ دراسة تاريخ الجماعات الغالية المعاصرة وذلك بتتبع أحوال تلك الجماعات منذ بداية تكوينها ثم دراسة تطورها، وتتبع حالات المدّ والجزر في تاريخها، ودراسة المؤلفات التي ألفت في تلك الحقب لمعرفة التحولات الفكرية والعلمية، إذ من شأن تلك الدراسة أن توقفَ الباحث على الأسباب والمواقف الدافعة للغلو.

٤ ـ دراسة أشباه هذه الظاهرة في مجتمعات غير المسلمين ـ قديماً وحديثاً ـ لمعرفة الأسباب العامة التي يمكن أن تكون مشتركة بين أهل الأديان في النزوع إلى الغلو والعنف و(التطرف) فكما عند المسلمين فإن عند النصارى الأقباط ـ مثلاً ـ تيارات متطرفة، والظروف المنشئة قد تكون مشتركة من بعض الوجوه يقول المستشرق الفرنسي جيل كيبل: (نظراً لأن الأجيال الشابّة من الأقباط أصبحت تعاني من نفس التوترات الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية التي يعاني منها كل المصريين فقد أظهرت مؤخراً ميلاً للعودة إلى الكنيسة تماماً مثلما اتجه الشباب المسلم إلى المساجد أو إلى أنشطة الإسلاميين

---

(١) «التكفير: جذوره، أسبابه، مبرراته»: (٧ ـ ٨).

وحتى أماكن الأديرة القبطية التي انبعث فيها النشاطُ من جديد)[١].

٥ ـ دراسة السياق التاريخي العام الذي حدثت فيه المشكلة فتلك الدراسة نافعة في تصور المشكلة ومعرفة أبعادها، ومعرفة الظروف العامّة لنشأة الأفكار والاتجاهات العامة.

ويحتاج الأمر إلى توسيع الأفق في الدراسة لمعرفة التحولات في المجتمعات البشرية المعاصرة فالنظر إلى العصر الحديث يفيدنا أن النصف الثاني من القرن الهجري الماضي شهد بعداً عن الدين والتدين ـ بشكل عام ـ في معظم أصقاع الأرض وكان ذلك البعد متفاوتاً.

ـ فمن البلاد بلادٌ اتخذت الإلحاد منهجاً ففارقت الدين بشكل تام، كما يتضح ذلك في البلاد الشيوعية

ـ ومن البلاد من اتخذت المنهج العلماني الذي فصل الدين عن حياة الناس. وقد عصم الله بلاداً كالمملكة العربية السعودية من هذه الاتجاهات المتقابلة في الانحراف. ثم شهد عقد التسعينات الهجرية السبعينات الميلادية عودةً للدين في العالم كله، وظهر ذلك بشكل أوضح في العقد التالي الذي بدأ به القرن الخامس عشر الهجري ففي تلك السنين اتخذت ظاهرة العودة إلى الدين بعداً عالمياً (وشملت المعمورة كلها، فقد انبعثت حضارات تختلف في أصلها الثقافي مثل ما تتباين في مستوى نموها لكنها كانت تندلع وتنتشر في كل صقع كردة فعل على أزمة المجتمع الذي تقول إنها شخصت أسبابها العميقة التي تتعدى الأعراض الاقتصادية أو

(١) «يوم الله»: (١٥٧)، ولكن يلاحظ هنا أن العودة إلى الدين (الأصولية) تمثل الغلو من وجهة النظر الغربية. ويراجع في هذا مبحث: علاج الغربيين للغلو في الباب الثالث من هذا البحث.

السياسية أو الثقافية التي تتجلىٰ هذه الأزمة عبرها)[١].

وهذه العودة إلى الدين ـ عندنا معشر المسلمين ـ واكبها ضعف في العلوم الشرعية العاصمة من الانحراف وتحدٍّ سافرٌ من أعداء الإسلام، وانحلال أخلاقي في بعض المجتمعات، وهذا دفع بعض الناس إلى انحراف مقابل للانحراف السابق: الغلو.

ومن وجهٍ آخر فإنَّ الباحث في هذه المشكلة لا يمكن أن يعزلها عن السياق الاجتماعي العام، فلا يمكن عزل مشكلة الغلو عن مشكلة البعد عن دين الله بشكل عام، وتفشي الظلم وكثرة الجهل، وتبادل الأحقاد بين طبقات المجتمع، والانحلال الأخلاقي فهذه هي البيئة المبكرة لظهور الغلو في الدين والتطرف غير الديني، وانتشار موجات التمرد والرفض بين الشباب[٢].

وبهذا التصور التاريخي الشامل لواقع البشرية، مع التركيز على واقع المسلمين، يمكن للباحث أن ينظر إلى المشكلة نظرة متكاملةً تدفعه إلى الربط بين المظاهر المختلفة للخروج بالسنن العامة للانحراف، والجنوح إلى الغلو.

٦ ـ قراءة المؤلفات التي درست مشكلة الغلو، أو عالجت بعض جوانبها؛ لمعرفة أسباب الغلو من وجهة نظر أصحابِ تلك المؤلفات، وتلك الاستفادةُ لا تعني أن ذكر الأسبابِ نابعٌ من رأي الآخرين، بل هو جهدٌ شخصي ناتجٌ عن تتبع واستقراء، وإنما وقع الاستئناس بآراء الآخرين وتحليلاتهم فهي مؤكدةٌ لا مؤسسة.

---

(١) جيل كيبل: «يوم الله»: (١٠).

(٢) ينظر د. محمد بيومي: «ظاهرة التطرف»: (٧).

٧ـ دراسة الطبيعة النفسية للمتهمين بالغلو، أو الجانحين إلى شيء منه، وهذا يمثل نوعاً من التجربة الشخصية والتي كانت نتاج التأمل، وتدوين الملاحظات بعد المقابلات الشخصية لبعض أولئك ثم قراءة ما كتبه المختصون في علم النفس عن هذه المشكلة ونظائرها.

* * *

وبهذا يظهر أن تحديد الأسباب يمرّ بمرحلتين أساسيتين:

**الأولى**: جمع البيانات الأولية والآراء والأقوال حول الأسباب.

**الثاني**: الدراسة للأسباب، ومحاولة الكشف عن صدق تأثيرها، ومدى ذلك التأثير.

وبعد تحديد السبب أشرعُ في بيانه مبيناً تأثيره في الانحراف والابتداع، وتأثيره في إحداث الغلو بشكل خاص، فعند الكلام عن الجهل بمذهب السلف أهل السنة والجماعة بحسبانه سبباً من أسباب الغلو كان لابد من البدء ببيان معنى السلف في اللغة والاصطلاح، وكذا السنة والجماعة ثم التثنية ببيان العلاقة بين خفاء السنة وظهور البدعة، والاستدلال لذلك بأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف، ثم بيانُ أن أهل الحق إنَّما هم السلفُ أهل السنة والجماعة، وأن أهلَ البدع ضلُّوا لافتراقهم عنهم، ثم كان الختام بالتمثيل على ضلال أهل الغلو بسبب جهلهم بمذهب السلف بمثالين: أحدهما متعلقٌ بمنهج الفهم، والثاني متعلق بمنهج الحكمِ على النَّاس.

* **ثالثاً: ملاحظ عامةٌ حول أسباب الغلو:**

لقد تبيّن من خلال دراسة أسباب الغلو ملاحظُ عامةٌ منها ما يتعلق بطبيعة الأسباب، ومنها ما يتعلق بمنهج دراستها، والعلم بهذه الملاحظ يسهم في كشف الأطر العامة لموضوع الأسباب، وهذا بيان بأهمها:

**الملحظ الأول**: أن مشكلة الغلو ونحوها من المشكلات المركبة لا يمكن تفسير حدوثها بسبب واحدٍ فهي مشكلة مركبةٌ ذاتُ أبعاد مختلفة تتجاذبها من كل جانب، ومن ثمَّ لا ينبغي أن يكون تشخيص المشكلة وذكر عواملها، وسبل علاجها منحصراً في إطار واحدٍ مهما بدت له من أهمية واعتبار[١]؛ إذ من طبيعة المشكلات المركبة عودها إلى أسباب عدةٍ، فلا ينفرد سببٌ واحدٌ بالتأثير بل تتضافر جملة من الأسباب مع اختلافها في درجة التأثير[٢]، وغالباً ما تتداخل هذه الأسباب فتكوِّن المشكلة، وهذا يظهر عندما نركز النظر على شخص أو فئة، إذ نجد أن مجموعة من الأسباب تفاعلت وتداخلت فيما بينها لتنتج المشكلة، وهذه الأسباب مع تداخلها مترابطة فعند التأمل في الخلل المتعلق بالمنهج ـ مثلاً ـ نجده مترابطاً مع الخلل المتعلق بالجهل، فالجاهلُ لا يسير وفق منهج واضح فمن جهل الكتاب والسُّنَّة فإن من الواضح أنه لن يكون صاحب منهجٍ علمي في الاستنباط والنظر؛ كما أن هذه الأسباب أيضاً تتبادلُ التأثير فيؤثر بعضها في بعض فيكون الأمر سبباً للغلو، وسبباً لبعض أسباب الغلو الأخرى، فاختلال منهج العلم والتلقي يؤدي إلى اختلال منهج العمل الذي هو سبب آخر من أسباب الغلو. وتعدد الأسباب لا يعني أنه لن يكون غلوٌّ إلا عند اجتماعها إذ قد يوجد الغلو بسبب واحدٍ منها، أو بجملة أسباب.

**الملحظ الثاني**: أن أسباب الغلو متفاوتةٌ في مدى تأثيرها، ولا يمكن القول بتساوي تأثير هذه الأسباب على الأشخاص أو على المجتمعات، فالأسباب متفاوتة باعتبارات عدةٍ أهمها:

---

(١) ينظر د. أحمد أبو المجد: «التطرف غير الجريمة»، مجلة العربي عدد ٢٧٩ (٣٦ ـ ٤٠)، ود. عبد العزيز كامل: «القمع سببٌ للتطرف وليس علاجاً له»: (٤٨ ـ ٥١)، المجلة نفسها.

(٢) ينظر ابن القيم: «الفوائد»: (٥١)، ومعتز عبد الله: «الاتجاهات التعصبية»: (٨).

١ ـ التفاوت من جهة المجتمعات في الوجود أو في التأثير: فقد يوجد سبب في مجتمع، ولا يوجد في مجتمع آخر.
وفي التأثير قد يكون السبب موجوداً في مجتمعين، ولكنه يؤثر في أحدهما، ولا يؤثر في الآخر.

٢ ـ التفاوت من جهة الأشخاص وجوداً أو تأثيراً: فقد يوجد السبب في حياة بعض الناس دون بعض، وقد يتأثر به بعد الوجودِ شخصٌ دون غيره من الناس.

٣ ـ التفاوت من جهة الفترات التاريخية، فقد يوجد السبب ولكنّه يؤثر في فترة تاريخية ما لا يؤثر في الفترات التاريخية الأخرى، إذ تتميز فترات الأزمات التاريخية بكونها فترات خصبة لحدوث الغلو و(التطرف).

٤ ـ التفاوت من جهة مصدرها: فقد تكون راجعةً إلى التكوين الشخصي العلمي أو النفسي، وقد تكون راجعة إلى المجتمع العام، وقد تكون راجعةً إلى المجتمع الخاص بالغالي، وقد تكون راجعة إلى أسباب خارجة عن هؤلاء جميعاً، ولكنّها تؤثر في حدوث المشكلة وتستثير ردود الأفعال.

**الملحظ الثالث**: أن الأسباب نوعان:

١ ـ الأسبابُ الأساسية.

٢ ـ الأسبابُ المباشرة.

فالأسبابُ الأساسية هي التي تولّد المشكلة، وهي التي تنميها بعد ولادتها، وتغذي أفكارها، وأما الأسباب المباشرة فهي التي تولّد الحدث، وهذه الأسباب المباشرة تعدُّ عَرَضاً للسبب الرئيس المتجذر في بناء المجتمع، ونظراً لقوة تأثير الأسباب المباشرة فإنها تلفِتُ أنظار الدارسين أكثر من الأسباب الأساسية، والواجب أن يعكس الأمر فتولى الأسباب الأساسية عناية رئيسة من الباحثين

الدارسين لهذه المشكلة، ولذلك فإنَّه لا بد من دراسة أحوال الغلاة والمجتمعات التي يحدث فيها الغلو للوصول إلى تصنيف علمي لتلك الأسباب، مع أنّه من الملاحظ أن بعض الأسباب المباشرة قد تكون من الأهمية بمكان، وذلك حين يكون لها دور الكاشف لأزمة المجتمع، وقد أشار إلى ذلك باحثٌ غربي إذ يقولُ بعد أن ساق جملة من أسباب ما أسماه ظهور (الأصولية) في العالم العربي من مثل: فقدان الهوية، والتحديث، والتضييق على الاتجاه الإسلامي ونحو ذلك: (وقد استمر هذا الوضع إلى حين وقوعِ صدمة الهزيمة العسكرية الكاملة أمام إسرائيل في يونيو حزيران ١٩٦٧م التي لعبت دور الكاشف، وسرّعت أزمة المجتمعات العربية المستقلة، وقلبت قواعد اللعبة الأيدلوجية رأساً على عقب، وفتحت الطريق أمام الاحتجاجات الإسلامية، والرفض الإسلامي)[1].

**الملحظ الرابع**: إن الدارس لهذه المشكلة، وفي ذكر أسبابها يقف بين ثلاثة اتجاهات:

**الاتجاه الأول**: الاقتصار على سبب أو اثنين، والزعمُ بأن المشكلة عائدة إلى هذا السبب دون غيره.

**الاتجاه الثاني**: الإحاطة الشاملة بكل الأسباب وعند التأمل نجد أن الاقتصار على سبب واحد ليس منهجاً رشيداً؛ إذ تقرر أن المشكلات والظواهر البشرية لا يمكن أن تحصر مواردها في سبب واحد.

وأما الإحاطة الشاملة بجميع الأسباب فهي غير ممكنة إذ طرق الشر والانحراف غير منحصرة في الأصل، قال أبو بكر الطرطوشي ـ رحمه الله ـ:

---

(١) جيل كيبل: «يوم الله»: (١٨).

(والخطأ لا تنحصر سُبُله، ولا تتحصل طرقه، فاخط كيف شئت، وإنما الذي تنحصرُ مداركه وتنضبط مآخذه فهو الحق؛ لأنه أمرٌ واحدٌ مقصودٌ يمكنُ إعمال الفِكر والخواطر في استخراجه.

وما مَثَلُ هذا إلا كالرّامي للهدف؛ فإنَّ طرق الإصابة تنحصر، وتتحصل من إحكام الآلات، وأسباب النّزع، وتسديد السهم.

فأما من أراد أن يخطيء الهدف فجهات الأخطاء لا تنحصر ولا تنضبط إلا أن نذكر من ذلك حسب الإمكان)[1].

**والاتجاه الثالث**: هو محاولة جمع الأسباب العامة المؤثرة تأثيراً كبيراً دون زعم الإحاطة وهذا ما سرت عليه في هذا البحث.

**الملحظ الخامس**: أن هذه الأسباب منها ما يكون مؤدياً إلى موارد شتى منها: الحسن والقبيح، فقد يكون سببٌ ما طريقاً للعودة إلى الدين والالتزام به، وهو في الوقت ذاته طريقٌ للغلو بحسب حدّة تأثر المرء، فالانحلال الأخلاقي في المجتمعات قد يؤثر في نفسية أمرىء ما فيزيده تمسكاً بدينه ورجوعاً إليه، ويؤثر في نفسية امرىء فيغلو لقوة غيرته، وعدم قدرته على التغيير، أو عدم فقهه للضوابط الشرعية لذلك.

بل قد يكون السبب مشتركاً بين مشكلة الغلو، ومشكلة أخرى فاتباع المتشابه طريق للغلو، وهو في الوقت ذاته طريقٌ لأبواب أخرى من الانحراف والابتداع.

**الملحظ السادس**: أن محاولة استخراج الأسباب محاولة تحتمل الإصابة والخطأ من جهتين:

---

(١) «الحوادث والبدع»: (٢٢).

**الأولى**: من جهة تحديد السبب فقد يخطيء المرء فيعدُّ سبباً ما ليس سبباً، وقد يجتهد فيغفل أمراً بزعم أنّه ليس من أسباب الغلو، وهو من أسبابه.

**الثانية**: تقدير مدى تأثير السبب فقد يكون الأمر المحدّد سبباً لكنّه ليس بذلك الحجم من التأثير الذي يظنه الباحث، ولقد اجتهدت في السلامة من الخطأ في الأمرين.

**الملحظ السابع**: أنه بعد استخراج الأسباب يتبين تفاوتها من جهة موضوعها، وذلك يستلزم توسعاً في البحث والنظر، فهذا سببٌ عائدٌ إلى الجهل بالكتاب العزيز أو أصول فهمه، وذاك سببٌ عائدٌ إلى الجهل بالسنة المطهرة وعدم التثبت من صحة الأحاديث، وسوء فهمها.

وهناك أسباب عائدة إلى أصول الاعتقاد وأخرى إلى علم أصول الفقه أو علم النفس أو علم الاجتماع أو غير ذلك.

**الملحظ الثامن**: أنه قد ظهر بدراسة الأسباب أن مشكلة الغلو في الدين ـ مثلها مثل أي ظاهرة من الظواهر المتعلقة بالناس والأديان ـ تتسم بالتعقيد، وتعدد الجوانب، كما أن هناك انقسامات في صفوف المتهمين بهذه المشكلة مما يحتم وجود الفوارق والاعتبارات المختلفة مثل: اعتبارات المكان أو الظروف والبيئات، وقد تنبهت لهذا فاجتهدت ألاَّ تستعرقني تلك الفوارق التي تخص قوماً دون آخرين ممن وقعوا في الغلو، وجعلت جلّ اهتمامي على القواسم المشتركة بين المتهمين بالغلو بغض النظر عن بيئاتهم وأحوالهم الخاصة.

**الملحظ التاسع**: أن ذكر الأوضاع والظروف المنتجة للغلو، لا يعني أن هذه الأوضاع لم تؤثر إلا في الغلاة فقط، فقد أثرت في الجميع فتنادىٰ أهل الخير للدعوة إلى إعادة الأمة إلى دينها، ثم وقع الاختلاف في أمرين ببيانهما يتضح افتراق المعتدلين عن الغلاة:

**الأول**: فهم الموقف القائم الذي يراد تغييره، وتقييم أوضاع المجتمع بناءً على ذلك بدءاً بالحاكم ومؤسسات الحكم، وانتهاءً بالمحكوم والأسرة والفرد.

فالمعتدلون وإن رأوا أن الحكم بغير ما أنزل الله مخالفة عظيمة لدين الله وشرعه إلا أنهم لم يطلقوا القول بكفر الحاكم بغير ما أنزل الله، ولم يكفروا المحكومين بغير ما أنزل الله بإطلاق. في حين عمد الغلاة إلى القول بكفر الحاكم بغير ما أنزل الله بغض النظر عن أحواله، وكذا عمدوا إلى القول بكفر المحكوم بغير ما أنزل الله دون الاستفصال ومعرفة الحال.

**الثاني**: فهم وسائل التغيير بتحديدها ابتداءً ثم بالعمل بها، فقد يتفق الجميع على أن مجتمعاً كثرت فيه المعاصي، ولكن الغلاة يرون وجوب اعتزال المجتمع والهجرة منه، وتحريم أكل ذبائح أهله، وعدم الصلاة في المساجد، واستحلال دماء المخالفين وأموالهم وذلك في طريق تغيير الواقع وإصلاح المجتمع. في حين رأى المعتدلون أن الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومخالطة الناس مع الصبر على أذاهم هو المنهج الحق.

وبهذا يتضح أن ذكر تلك الأوضاع لتحليلها بحسبانها من أسباب الغلو لا يعني أن تأثيرها قاصرٌ على الغلاة، فقد أثّرت في الجميع ولكن اختلف تقييم تلك الأوضاع كما اختلف فهم وسائل تغييرها.

**رابعاً: ملاحظ على مناهج الدارسين لأسباب الغلو**: إنَّ الناس يختلفون في تحليل الأحداث التاريخية، أو المذاهب والنظريات من جهاتٍ عدّة:

- فيختلفون في الوصف، فينتبه البعض إلى مظاهر للمشكلة المراد دراستها لا يلتفت إليها الآخرون.

- ويختلفون في الربط بين أطراف المشكلة، والنظر إليها نظرة كلية شمولية فيدرسها البعض دراسة ذرية جزئية، ويغفل عن دراسة الجوانب المشتركة.

ـ ويختلفون في تحليل الأسباب فقد يَعُدُّ بعض الدارسين أسباباً للمشكلة لا يَعُدّها الآخرون.

ـ ويختلفون في تحديد النتائج التي بنيت على كل ما سبق. ومن خلال الدراسة لأسباب الغلو، ومراجعة المؤلفات التي ألفت في هذا الموضوع تبدت لي جملة من الأخطاء المنهجية التي وقع فيها بعض الكتاب وهي:

١ ـ الدراسة السطحية للأسباب، وردّها إلى عاملٍ واحدٍ، والفرار من الدراسة الجادّة للمشكلة من مثل: الزعم بأن المشكلة ناتجةٌ عن اختلال عقلي[1]، ولقد نعى بعض الباحثين الغربيين على أولئك الذين يدرسون ما أسماه (الأصولية) دراسة ليس فيها أي نوع من الجد، بل فيها الفرار إلى افتراضاتٍ متوهمة، وأبان أن الدعوة إلى الجدية في دراسة المشكلة لا تعني التعاطف مع أصحابها بله الانتماء إليهم إذ يقول: (فرضية العمل التي ننطلق منها هي: أن خطاب وممارسة هذه الحركات إنّما يحملان دلالة ومعنى، فهما ليسا نتاجاً لاختلال العقل ولا لتلاعب قوى مظلمة، وإنّما الشهادة التي لا مثيل لها، ولا بديل عنها على الوجع الاجتماعي الذي لم تَعُد مقولاتنا الفكرية التقليدية تسمح بكشفه وفك رموزه، وحَمْلُها على محمل الجدّ لا يعني المحاماة عنها والمرافعة عن قضيتها، أو مصاحبتها في طريقها مثلما لم يكن على ذلك الذي فتحت مقالات وبيانات الحركة العمّالية عينيه على وضع البروليتاريا أن ينتسب إلى الحزب الشيوعي)[2].

---

(١) ينظر د. سمير نعيم أحمد: «محددات التطرف الديني»، مجلة المستقبل العربي، عدد ١٣١، (١١٢).

(٢) جيل كيبل: «يوم الله»: (١٩).

٢ـ التشيع لمذهب أو رأي أو قول ومحاكمة الغلو والغلاة من خلاله فهذا يؤدي للتحيز للمذهب وتفسير الآراء والأقوال والأحداث من خلال ذلك النظر.

إنَّ المحلل للمذهب أو الحدث يتأثر في دراسته من وجهين:

الأول: في دراسة المشكلة ذاتها من وجهة نظر مخالفة؛ فيُعدُّ منها ما ليس داخلاً فيها؛ فيعدُّ من مشكلة الغلو مثلاً: القول بكفر اليهود والنصارى فإذا عدّ ذلك من الغلو أثَّر هذا في تفسيره للمشكلة ونظرته لعواملها.

الثاني: عند دراسة الأسباب يركز على ما يتفق مع مذهبه، فاليساريون ـ مثلاً ـ يفسرون القضية تفسيراً مادياً فيقولون إن الغلو نوع من صراع الطبقات فيرجعون أسباب المشكلة إلى البعد المادي.

٣ـ الاعتماد على النقل دون دراسة لمؤلفات وكتابات الغلاة والمتهمين بالغلو، مع الثقة المطلقة بالناقلين، ولهذا يختلط الحق بالباطل يقول أحد الباحثين المهتمين بهذه المشكلة: (لا يمكن أن يكون الاعتماد في التحليل والتشخيص نابعاً في شأن هذه الظاهرة وجماعاتها من تصريحات وبيانات أجهزة الأمن مهما كانت قدرتها وكفاءتها، ذلك أن التقرير العلمي شيء والتقرير الأمني شيء آخر)[١].

٤ـ الإفراط في التجزئة: إنَّ هذه المشكلة تتميز بتعددية الجوانب التي يمكن النظر من خلالها: تعددية من جهة الجماعات الغالية نفسها؛ فهي تيارات مختلفة تتعدد أسباب غلوها بحسب تعدد تلك الجماعات، وتعدد من جهة المجتمعات والبلدان؛ فالغلاة ينتمون إلى مجتمعات مختلفة متباينة الأحوال.

---

(١) د. محمد أحمد بيومي: «ظاهرة التطرف: الأسباب والعلاج»: (٧).

وتعددية من جهة مظاهر الغلو فيغلو هذا في أمر لا يغلو فيه الآخرون وهكذا.

وهناك توجهان أخطآ في ذلك:

- توجه يميل إلى التجزئة.
- وتوجه يميل إلى التعميم.

وكلا هذين الجانبين مخطيء، فإنَّ دراسة هذه المشكلة يتوجب النظر إلى الأسباب العامة مع عدم إغفال الأسباب الخاصة.

إنَّ التجزئة في دراسة مثل هذه المشكلة قد تكون نافعة حين تؤدي إلى اكتشاف القاسم المشترك بين الجزئيات المتعددة، ولكنَّها تكون سلبية حين نفرط فيها[١].

٥ـ عدم فهم طبيعة المشكلة: إن المشكلة ذات أبعادٍ مختلفة؛ فهي مشكلة شرعية دينية؛ لأن المنطلق الرئيس للمتهمين بالغلو هو الدين؛ إذ يمثل المحور لكل المطالب التي يدعون إليها، والدين ذاته أعمَّ من أن يضيق فهو دين شاملٌ لكل جوانب الحياة.

وهي مشكلة سياسية؛ لأن السياسة جزءٌ من الدين المتكامل البناء؛ ولأن الغلو يمثل خطراً على المجتمع في جانبه السياسي أكبر من أي جانب آخر.

وهي مشكلة هوية؛ لأن المتهمين بالغلو يهدفون إلى إثبات الهوية الإسلامية في مقابل التطرف التغريبي والعلماني.

وهي مشكلة حضارية؛ لأن المتهمين بالغلو كانوا ردَّ فعل على أخذ الحضارة بعجرها وبجرها.

---

(١) ينظر فرانسوا بورجا: «الإسلام السياسي»: صوت الجنوب: (٢٠).

وبين فهم طبيعة المشكلة وأسبابها ترابط واضح، إذ إن فهم طبيعة المشكلة معين على فهم أسبابها فإذا قُصرتْ على الجانب الديني البحث كان القائلُ بذلك قاصر النظر في الأسباب على الجانب الديني، وكذا لو فهمت المشكلة على أنها مشكلة سياسية فحسب، فإن القائل بذلك سيكون قاصر النظر من جهة الأسباب على هذا الجانب.

وهذا الخطأ وقع فيه دارسون كثر لهذه المشكلة حيث وقفوا في ذكر الأسباب على جانب واحدٍ من جوانب المشكلة.

٦ـ التهويش في ذكر الأسباب: إنَّ تحديد الأسباب عمل علمي يحتاج إلى إقامة البراهين، وذكر الأدلة ولكن بعض من درس هذه المشكلة وقع في ألوان من التهويش والأساليب الدعائية.

❏ ❏ ❏

# الفصل الأول

# الأسباب العلميّة والمنهجيّة

**وفيه ثلاثة مباحث:**

**المبحث الأول : الأسباب المتعلقة بالجهل.**

**المبحث الثاني: الأسباب المتعلقة بالمنهج العلمي.**

**المبحث الثالث: الأسباب المتعلقة بالمنهج العملي.**

## المبحث الأول

# الأسباب المتعلقة بالجهل

**وفيه عشرة مطالب :**

المطلب الأول : الجهل بالكتاب.

المطلب الثاني : الجهل بالسنّة.

المطلب الثالث : الجهل بمنهج السلف.

المطلب الرابع : الجهل بمقاصد الشريعة.

المطلب الخامس : الجهل بالسنن الربانية.

المطلب السادس : الجهل بحقيقة الإيمان وعلاقته بالأعمال.

المطلب السابع : الجهل بمراتب الأحكام.

المطلب الثامن : الجهل بمراتب الناس.

المطلب التاسع : الجهل باللغة العربية.

المطلب العاشر : الجهل بالتاريخ.

## المطلب الأول

## الجهل بالكتاب العزيز

لقد أنزل الله القرآنَ الكريم كتاب هداية للبشرية، وجعل فيه النور، والشفاء لما في الصدور، وقد تضافرت الأدلة على بيان ما في الكتاب العزيز من الهدى والحق والخير، وما في الإعراض عنه من الضلال والشر والزيغ، ومن هذه الأدلة:

* قول الله تعالى: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقىٰ، ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير الآيتين: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة»[(١)].

* قول الله تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣].

فأمر باتباع القرآن وحذَّر من اتباع أولياء من دونه فذلك مفضٍ إلى الضلال والهلاك.

* قوله تعالى: ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون، أن تقولوا إنَّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنَّا عن دراستهم لغافلين، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتابُ لكنَّا أهدى منهم، فقد جاءكم

---

(١) رواه الطبري: (١٦/ ٢٢٥).

بينةٌ من ربكم، وهدى ورحمة، فمن أظلم ممن كذَّب بآيات الله وصَدَفَ عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ [سورة الأنعام، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (ذكر سبحانه أنه يجزي الصادف عن آياته مطلقاً ـ سواء كان مكذباً أو لم يكن ـ سوء العذاب بما كانوا يصدفون، يبين ذلك أن كل من لم يقر بما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر، سواء اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعاً لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذبٍ بما جاء به فهو كافر، وقد يكون كافراً من لا يكذبه إذا لم يؤمن به.

ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله، وإن كان له نظر وجدل في عقلياتٍ وأمور غير ذلك، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين)[١].

بل إن المفرط في اتباع القرآن يأثم بتفريطه بعكس من اجتهد فإنه مأجور غير مأزور (فمن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلاً، أو لتعديه حدود الله بسلوك السبل التي نهي عنها أو لاتباع هواه بغير هدى من الله فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله ﷺ باطناً وظاهراً الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله فهذا مغفورٌ له خطؤه)[٢].

إن القرآن الكريم هو عمدة الملة، وكلية الشريعة وينبوع الحكمة، ولا طريق إلى الله ـ عز وجل ـ سواه ولا نجاة لأحدٍ بغيره. وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلالٍ عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة بالضرورة وإذا كان كذلك لزم من رام

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل»: (١/ ٥٦).

(٢) شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٣/ ٣١٧)، وهو بنصه في «درء التعارض»: (١/ ٥٩).

الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها أن يتخذه سميره وأنيسه على مر الليالي والأيام، نظراً وعملاً لا اقتصاراً على أحدهما[١] وحتى يمكن الاستفادة من هذا الكتاب العزيز لابد من تفهمه وتدبره وتعقله، وهذا ما نَدَب الله إليه الناس في قوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢].

وقوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩].

وقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها﴾ [سورة محمد، الآية: ٢٤].

وهذا التدبر والتأمل ينتج فهم الكتاب العزيز، وأن يكون بعضه مصدقاً لبعضٍ في فهم القارىء كما هو مصدقٌ بعضه بعضاً في حقيقة الأمر.

يقول الإمام الطبري في تفسير الآية الأولى: (يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمدُ كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم لاتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض)[٢].

ثم ينضاف إلى ذلك التدبر تطلب فهمه بسؤال أهل العلم ليكشفوا معانيه ويفسروها، من أجل ذلك كان أمر العلماء بالبيان، وأخذ الميثاق عليهم بعدم الكتمان ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه

---

(١) ينظر الشاطبي: «الموافقات»: (٣/ ٣٤٦).

(٢) «جامع البيان»: (٥/ ١٧٩).

فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٨٧].

فبين أنه أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب وأن أهل الكتابِ قبلنا أعرضوا عنه، وأقبلوا على الدنيا فهم بذلك مذمومون وعليه معاقبون: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ إليم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧٧].

وتبيين العلماء للكتاب هو بإظهار الناس عليه، وتعليمهم نصوصه وتفسيرها، وتوضيحها لهم، وإنما احتاج الناس لتفسير كلام الله لأمور أهمها:

١ـ كمال فضيلة المتكلم به سبحانه، وقوة إعجازه، إذ يجمع المعاني العظيمة الكثيرة في الألفاظ القليلة الوجيزة، فربما عسر فهم القارىء للمراد، أو ظَنَّه قاصراً على أمرٍ وهو أشمل من ذلك، فيكون التفسير ببسط هذه الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها.

٢ـ أن القرآن في جملته جاء بالقواعد العامة والكليات، وأما تفصيلاتها فقد جاءت في السنة المطهرة فاحتيج إلى تفسير القرآن بها، فإن الله يقول: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٣] فجاءت السنة ببيان أوقات الصلاة وأعدادها وكيفياتها.

٣ـ أن يكون هناك تعارض بين نصوص التنزيل ـ حسبما يظهر للقارىء ـ فيفسر العالم هذه النصوص ويدفع التعارض بالجمع بين الأدلة والترجيح بينها.

٤ـ أن يكون في الجملة حذفٌ يقتضيه اختصار الكلام وبلاغة المتكلم به فيحتاج الناس إلى بيان ذلك الحذف.

٥ ـ أن يكون اللفظ الوارد في القرآن محتملاً لعدة معان فيُحتاج إلى بيان المعنى المراد[١].

وبالجملة فالناس محتاجون إلى فهم القرآن الكريم وتفسير آياته، فإن الصحابة استشكلوا آياتٍ، وفهم بعضهم آيات أُخرَ على غير وجهها، كما فهم عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قوله تعالى: ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٧]. فعن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: أخذ عديٌّ عقالاً أبيض وعقالاً أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يا رسول الله جعلتُ تحت وسادتي، قال: «إن وسادك إذاً لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك»[٢].

وهناك أمثلة أخرى من حياة الصحابة شاهدة على حاجتهم إلى تفسير آياتٍ من القرآن الكريم.

وإذا كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بهذه المثابة من الحاجة إلى التفسير فإننا (نحتاج إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ما لم يكونوا محتاجين إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير)[٣] إضافة إلى أن تفسير الكتاب الكريم، لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة بجملته.

---

(١) ينظر في بعض ما ذكرت: الزركشي: «البرهان»: (١/ ١٤).

(٢) رواه البخاري: (٥/ ١٥٦)، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود . . . ﴾.

(٣) الزركشي: «البرهان»: (١/ ١٥)، ونقله عنه السيوطي في «الإتقان»: (٤/ ١٧١)، وفيه بعض اختلاف.

ولا تعني حاجة الناس إلى تفسيره أنه مخالف لصريح العقل والحس، ولا يمكن إدراكه، بل (قد يشكل على كثير من الناس نصوصٌ لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإنَّ القرآن جعله الله شفاءً لما في الصدور وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ؛ إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإمَّا أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذٍ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة)[(١)].

والتفسير الذي هو الطريق لفهم كتاب الله عز وجل يُعرَّفُ بأنه: (علم يعرف به فهم كتابِ الله المنزل على نبيه محمدٍ ﷺ وبيانُ معانيه واستخراجُ أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيانِ وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ)[(٢)].

وهو علم شريف اكتسب هذا الشرف من ثلاث جهات:

**الأولى**: جهة الموضوع إذ موضوعه: كلام الله عز وجل، والعلم يشرف بشرف المعلوم.

**الثانية**: جهة الغرض؛ إذ الغرض من هذا العلم الاعتصام بالعروة الوثقىٰ، والوصولُ إلى السعادة الحقيقية التي لا تبلىٰ.

**الثالثة**: جهة شدة الحاجة؛ فإن كل كمالٍ ديني أو دنيويٍّ عاجلٍ أو آجلٍ مفتقر إلى العلوم الشرعية المتوقفة على العلم بكتاب الله تعالى[(٣)].

---

(١) ابن تيمية: «الفتاوى»: (١٧/ ٣٠٧). (٢) الزركشي: «البرهان»: (١/ ١٣).

(٣) ينظر الراغب الأصفهاني: «مقدمة جامع التفاسير»: (٩١)، وعنه السيوطي في «الإتقان»: (٤/ ١٧٣).

وتفسير كتاب الله عز وجل ليس اعتباطياً أو بالأهواء والآراء بل له منهج وطريق. فأحسن طرق التفسير مرتبة ما يأتي:

الطريق الأول: تفسير القرآن بالقرآن.

الطريق الثاني: تفسير القرآن بالسنة.

الطريق الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة.

الطريق الرابع: تفسير القرآن بأقوال التابعين.

وهذا بيانُ هذه الطرق:

❑ **الطريق الأول: تفسير القرآن بالقرآن:**

إن الله سبحانه هو المتكلم بالقرآن وهو أعلم بمراده من غيره، وهذه الطريقة من التفسير مقدمةٌ على غيرها من الطرق التالية ولقد ألف في تفسير القرآن بالقرآن بعضُ العلماء، منهم الإمام الشنقيطي ـ رحمه الله ـ وسأذكر بعض ما ذكره من أنواع تفسير القرآن بالقرآن، ممثلاً لنوعٍ واحدٍ منها طلباً للاختصار:

١ ـ بيان الإجمال الواقع بسبب اشتراك في اسمٍ أو فعلٍ أو حرف.

٢ ـ بيان الإجمال الواقع بسبب احتمال في مفسر الضمير.

٣ ـ ورود الشيء مبهماً في موضعٍ، ثم يأتي بيانه في موضع إجابةً على سؤال.

٤ ـ بيان أن الظاهر المتبادر من الآية بحسب الوضع اللغوي غير مراد بدليل آخر على أن المراد غيره.

٥ ـ أن يرد طلبُ أمرٍ ثم يأتي بيانه في موضع آخر.

٦ ـ ذكر السبب فيرد خبرٌ ثم يأتي سببه لاحقاً.

فأما النوع الأخير فمثاله من التنزيل قوله تعالى: ﴿يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ وتسود وجوهٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٦] فإنه هنا لم يذكرُ سبب اسوداد وجوه الكافرين، ولكنه بين في موضع لاحقٍ السبب فقال: ﴿فأما الذين اسودت

وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٦] وقال ـ أيضاً ـ: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦٠].

- **الطريق الثاني: تفسير القرآن بالسنة:**

لقد نصَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز على أن النبي ﷺ مبين للناس ما نُزِّل إليهم، وأن الله كما أنزل عليه القرآن أوحى إليه ببيانه يقول سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٤][1].

ويقول ناصّاً على أن السنة وحي: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحىٰ﴾ [سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤].

والسنة في جملتها بيان للقرآن، فإن القرآن جاء بالقواعد والكليات والسنة بينت ذلك وفصلته، ثم قد نصَّ النبي ﷺ على تفسير بعض الآيات فمن ذلك: دفعه ﷺ الإشكال الذي وقع فيه الصحابة في فهم قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٨٢]، فعن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّه ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿يا بني لا تشرك بالله إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم﴾ [سورة لقمان، الآية: ١٣]»[2].

---

(١) وينظر تفصيل هذا في «أضواء البيان»: (١/ ٥ ـ ٣٠).

(٢) رواه البخاري: (١/ ١٤)، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم: (١/ ١١٤، رقم١٢٤)، كتاب الإيمان، والترمذي: (٥/ ٢٦٢، رقم ٣٠٧)، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام.

□ **الطريق الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة:**

ذلك أن الصحابة أدرى بالقرآن (لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم)[١].

فالاعتماد على بيانِ الصحابة للقرآن من وجهين:

**الأول**: معرفتهم باللسان العربي الذي نزل به القرآن، فإنهم عربٌ فصحاء لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أقدر على فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قولٌ أو عملٌ واقع موقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة.

**الثاني**: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة فهم بهذا أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم؛ لأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب منهم، فقد رأوا عين المقصود، وذلك أعلى درجات فهم الخطاب[٢]، ومما يدل على ذلك قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[٣].

---

(١) ابن تيمية: «الفتاوى»: (١٣/ ٣٦٤)، ونقل عنه النص ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ١٣).

(٢) ينظر الشاطبي: «الموافقات»: (٣/ ٣٣٨).

(٣) رواه البخاري: (٦/ ١٠٢)، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ومسلم: (٢/ ١٩١٣، رقم ٢٤٦٣)، كتاب فضائل الصحابة.

□ **الطريق الرابع: تفسير القرآن بأقوال التابعين:**

لقد تلقى التابعون تفسير القرآن الكريم عن صحابة رسول الله ﷺ فكانوا أعلم الأمة بعد الصحابة بتفسير القرآن الكريم، ومن هؤلاء التابعين مجاهدٌ الذي كان يقول عن نفسه: (عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقفه على كل آية، أسأله فيم نزلت وكيف كانت؟)[١].

(وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلمُ بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم، وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً)[٢].

❊ ❊ ❊

ولقد كان عدم فهم الكتاب العزيز سبباً في انحراف أقوام من المبتدعة؛ فقوم صرفوا دلالته عن معانيها إلى معانٍ أخرى، واعتمدوا على العقل في تفسير القرآن الكريم، وقومٌ جعلوا للقرآن ظاهراً وباطناً ولبسوا على عوام الناس بذلك، وقومٌ اعتمدوا في تفسير القرآن على الرأي المجرد والأهواء والظنون.

وما انحراف الخوارج في القديم إلا بسبب جهلهم بالقرآن وعدم فقههم له فقد قال النبي ﷺ في وصفهم: «يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية»: (٣/ ٢٧٩)، والذهبي في «السير» من طريق ابن إسحاق: (٤/ ٤٥٠).

(٢) ابن تيمية: «الفتاوى»: (١٣/ ٣٦١ ـ ٣٦٢)، وينظر في طرق التفسير ابن تيمية: «الفتاوى»: (١٣/ ٣٦١ـ٣٧٥).

(٣) سبق تخريجه ص (٢٤).

أي أنهم يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن وإقرائه ولكنهم لا يتفقهون فيه، ولا يعرفون مقاصده، قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: (المراد أنهم ليس لهم منه حظٌّ إلا مرروه على لسانهم [هكذا] لا يصل إلى حلوقهم فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم؛ لأن المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب)(١).

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمى؟ لأن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يعني ـ والله أعلم ـ أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم؛ لأن الفهمَ راجعٌ إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل به فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف المسموعة فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم)(٢).

وفي الحياة المعاصرة اليوم ضروب من الغلو سببها سوء الفهم لآيات التنزيل فمن ذلك: تحريم التعليم، والدعوةُ إلى الأمية استدلالاً بمثل قول الله عز وجل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾ [سورة الجمعة، الآية: ٢].

يقول شكري مصطفىٰ بعد سوقه لهذه الآية: (إن هذه الأمة الأمية ليست أميةً فحسب، من بعث فيهم رسول الله ﷺ في أول الأمر . . . ولكن ﴿وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ [سورة الجمعة، الآية: ٣] وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين الذين يسيرون على الدرب)(٣) وفي الاستدلال بهذه الآية على تحريم التعليم والدعوة إلى الأمية وجهان من الخطأ:

(١) نقلاً عن ابن حجر: «الفتح»: (١٢/ ٢٩٣)، ولم أجده في شرح النووي على مسلم، وينظر في معنى هذا الجملة شرح النووي، ورأي القاضي عياض في ذلك: (٧/ ١٥٩).

(٢) «الاعتصام»: (٢/ ٦٩١).

(٣) «التوسمات»: (١٦).

**الأول**: الظن بأن الأمية المرادة هنا أمية الحرف مع أن المراد ليس ذلك، وإنما هو أن الأمة التي أنزل عليها هذا الكتاب كانت أمة أمية لم يُنزَّل عليها كتاب من الله قبل ذلك، يقول سبحانه: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠] فغاير بين أهل الكتاب والأميين الذين لم ينزل عليهم الكتاب، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «الأميون العرب كلهم من كتب ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب»[١].

قال الطبريُّ: (. . . والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب)[٢].

وبعد مبعث النبي ﷺ لم يبق العرب على أميتهم فقد (صاروا أهل كتاب وعلم، بل صاروا أعلم الخلق، وأفضلهم في العلوم النافعة وزالت عنهم الأمية المذمومة الناقصة وهي: عدم العلم والكتاب المنزل)[٣].

**الثاني**: أن الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ على أن المراد أن اللاحقين من الأمة يجب أن يكونوا أميين لا يصح؛ إذ ليس قوله: ﴿وآخرين﴾ عطف على ﴿الأميين﴾؛ لأن آخرين يقتضي المغايرة لما قبله، وعليه فإنه صادقٌ على غير العرب، فهو إما معطوفٌ على الضمير في ﴿عليهم﴾ من قوله: ﴿يتلو عليهم﴾ أي ويتلو على آخرين.

وأما أن يكون قوله: ﴿وآخرين﴾ مفعولٌ معه، والتقدير: يتلو على الأميين آياتنا ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة مع آخرين.

ويوضح ذلك أن النبي ﷺ بين بالتفسير الجزئي (التفسير بالمثال) قوله سبحانه: ﴿وآخرين﴾ بأنهم الفرس، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كُنَّا

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: (١٨/ ٩١).

(٢) «جامع البيان»: (١٣/ ٢١٤)، وينظر: القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن»: (٤/ ٤٥).

(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٢٥/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها، فلمَّا بلغ: ﴿وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم﴾ قال له رجلٌ: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي، ووضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، وقال: «لو كان الإيمان عند الثريا لنا له رجالٌ من هؤلاء»[1].

فواضح من هذه النصوص أن شكري مصطفى ومن معه لم يفهموا الآية على وجهها، فبنوا عليها غلوهم بتحريم التعليم، والدعوة إلى الأمية.

❑ ❑ ❑

(١) رواه البخاري: (٦/ ٦٣)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾، ومسلم: (٢/ ١٩٧٢، رقم ٢٥٤٦)، كتاب فضائل الصحابة، وينظر في تفسير الآية: محمد الطاهر بن عاشور: «التحرير والتنوير»: (٢٨/ ٢١٠ـ ٢١٢).

## المطلب الثاني
## الجهل بالسنة

□ **تعريف السنة:**

**السنة في اللغة:** جاء في «معجم مقاييس اللغة»:

(السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم: سننت الماء على وجهي أسنّه سناً إذا أرسلته إرسالاً، ثم اشتق منه رجل مسنون الوجه كأن اللحم قد سن على وجهه، والحمأ المسنون من ذلك، كأنه قد صُبّ صباً، ومما اشتق منه السنة وهي السيرة، وسنة رسول الله عليه السلام: سيرته، قال الهذلي:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتـها
فأول راض سنة مـن يسيرهـا)[1]

وفي «المصباح المنير»: (السنة: الطريقة، والسنة: السيرة، حميدة كانت أو ذميمة، والجمع سنن مثل غرفة وغرف)[2].

**السنة في الاصطلاح:** يختلف تعريف السنة عند الأصوليين عن تعريفها عند أهل الحديث والفقهاء.

فعند المحدثين: السنة: ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلقية أو سيرة، سواء أكان قبل البعثة أم بعدها، وهي بهذا

---

(١) ابن فارس: (٣/ ٦٠ ـ ٦١)، باب ما جاء من كلام العرب وأوله سين في المضاعف والمطابق مادة: «سن».

(٢) الفيومي، السين مع النون وما يثلثهما، مادة: «سنن»: (١/ ٣٤٥).

ترادف الحديث عند بعضهم[١].

وأما في اصطلاح الأصوليين، فقد جاء في «إرشاد الفحول»: (السنة في اصطلاح أهل الشرع قول النبي ﷺ وفعله وتقريره)[٢].

(وأما في عرف أهل الفقه فإنما يطلقونها على ما ليس بواجب، وتطلق على ما يقال البدعة، كقولهم فلان من أهل السنة . . . ، وقيل في حدها اصطلاحاً: ما يرجح جانب وجوده على جانب عدمه ترجيحاً ليس معه المنع من النقيض، وقيل: هي ما واظب على فعله النبي ﷺ مع ترك ما بلا عذر، وقيل: هي في العبادات النافلة. وفي الأدلة: ما صدر عن النبي ﷺ من غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير)[٣].

وقد بيَّن الدكتور السباعي سبب الخلاف في تعريف السنة بين علماء الحديث وعلماء الأصول والفقهاء، فقال: (ومرد هذا الاختلاف في الاصطلاح إلى اختلافهم في الأغراض التي يعنى بها كل فئة من أهل العلم، فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الإمام الهادي الذي أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة، وخلق، وشمائل، وأخبار، وأقوال، وأفعال سواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لا.

وعلماء الأصول إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ المشرع الذي يضع القواعد للمجتهدين من بعده، ويبين للناس دستور الحياة، فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تثبت الأحكام وتقررها.

---

(١) ابن حجر: «الفتح»: (١٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، وينظر السيوطي: «تدريب الراوي»: (١/ ٤٢ ـ ٤٣)، والسباعي: «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»: (٤٧)، ومحمد عجاج الخطيب: «السنة قبل التدوين»: (١٦).

(٢) الشوكاني: (١/ ١٥٥).

(٣) المصدر السابق.

وعلماء الفقه إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الذي لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعي، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوباً أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك)[١].

□ **الأدلة على حجية السنة:**

لقد تضافرت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة على حجية السنة ووجوب اتباعها والعمل بما جاءت به من أحكام وأخلاق وتوجيهات، كما دل على ذلك إجماع الأمة، واقتضاه العقل.

❋ **الأدلة من الكتاب:**

١ـ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٩] فأمر الله عز وجل بطاعته، وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه[٣].

٢ـ وقوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٣١].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها:

(هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن

---

(١) مصطفى السباعي: «السنة ومكانتها في التشريع»: (٤٨ ـ ٤٩).

(٢) ينظرابن القيم: «إعلام الموقعين»: (١/ ٤٨).

رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». )[١].

٣ـ وقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [سورة النور، الآية: ٦٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: (أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». )[٢].

٤ـ وقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٥].

٥ـ وقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٩].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: (أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ﷺ . . . ومن لم ير هذا اختل إيمانه لقوله تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾. )[٣].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٥٣٦)، والحديث رواه البخاري: (٨/ ١٥٦)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم . . .، ومسلم (٢/ ١٣٤٤، رقم ١٧١٨)، كتاب الأقضية، وأحمد في «مسنده»: (٦/ ١٤٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (٣/ ٤٩١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن»: (٥/ ٢٦١).

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في الآية: (وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة)[١].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (إنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر)[٢].

٦ـ وقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [سورة الحشر، الآية: ٧].

٧ـ وقوله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٣].

* **الأدلة من السنة:**

ودلت على حجية السنة مجموعة من الأحاديث النبوية، وقد عقد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ كتاباً أسماه: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة[٣] أورد تحته مجموعة من الأحاديث منها:

١ـ ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا يا رسول الله: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[٤].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٧٨٥).
(٢) «إعلام الموقعين»: (١/ ٥٠).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري مع فتح الباري»: (١٣/ ٣٤٥).
(٤) رواه البخاري: (٨/ ١٣٩)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وقول الله تعالى: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾.

٢ـ وما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»(١).

ومن الأدلة الأخرى ما رواه العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال: «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودّع فبماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم ير اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»(٢).

* **الإجماع على حجية السنة:**

أجمع أهل العلم على وجوب الرجوع إلى الرسول نفسه عند التنازع في حياته وإلى سنته بعد وفاته، ومضى على ذلك أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم فمن ذلك ما كتبه عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى شريح لما ولاه قضاء الكوفة:

---

(١) رواه البخاري: (٨/ ١٤٢)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وقول الله تعالى: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾.

(٢) رواه أبو داود: (٥/ ١٠ ـ ١١، رقم ٤٦٠٤)، كتاب السنة، باب في لزوم السنة واللفظ له، ورواه أيضاً بمعناه العرباض بن سارية في: (٣/ ٤٣٦، رقم ٣٠٥٠)، كتاب الخرج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة . . .، والترمذي: (٥/ ٣٧ ـ ٣٨، رقم ٢٦٦٣، ٢٦٦٤)، كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، وأحمد: (٤/ ١٣١، ١٣٢)، وابن ماجه: (١/ ٦ ـ ٧، رقم ١٢، ١٣)، المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ، والدارمي: (١/ ١١٧، رقم ٥٩٢)، المقدمة باب السنة قاضية على الكتاب.

(ما استبان لك من كتاب الله فلا تسأل عنه، فإن لم يستبن في كتاب الله فمن السنة فإن لم تجده في السنن فاجتهد رأيك)[١].

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: (ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحداً أخبر عن رسول الله ﷺ إلا قبل خبره، وانتهى إليه، وأثبت ذلك سنة . . . كلهم يثبت الأخبار ويجعلها سنة يحمد من تبعها، ويعاب من خالفها، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مفارق سبيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل العلم بعدهم إلى اليوم وكان من أهل الجهالة)[٢].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في سياق بيان الفوائد التي تضمنتها آية ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه . . الآية﴾، قال: (ومنها أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته)[٣].

❊ ❊ ❊

وسأذكر هنا جملة من القواعد وأبين كيف كان الجهل بها سبيلاً من سبل الضلال وطريقاً من طرق الانحراف والغلو:

□ **القاعدة الأولى: التوثق من صحة الحديث:**

لقد دعا القرآن العزيز، والسنة المطهرة إلى التثبت في نقل الأخبار ـ أيا كانت ـ والتثبت في نقل الأخبار الشرعية ـ من باب أولى ـ بحسبانها خبراً عن الله تعالى ورسوله ﷺ، وليس كذبٌ عليهما ككذب على أحد ممن سواهما.

---

(١) نقلاً عن ابن القيم: «أعلام الموقعين»: (١/ ٨٥).

(٢) نقلاً عن السيوطي: «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة»: (٤/ ٢٣ ـ ٢٤)، ضمن مجموع الرسائل المنيرية.

(٣) «إعلام الموقعين»: (١/ ٤٩ ـ ٥٠)، وينظر الشوكاني: «إرشاد الفحول»: (٣٣).

والأحاديث متظاهرة على التحذير من الكذب على النبي ﷺ، فمن ذلك:

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «لا تكذبوا عليّ فإنه من كذب عليّ متعمداً فليلج النار»(١).

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(٢).

فقد توعد النبي ﷺ بالنار كل من كذب عليه، وهذا يبيّنُ أنه أمر أن يبلغ عنه الصحيح دون السقيم، والحق دون الباطل، والهدى دون الضلال والزور، لا أن يبلغ الإنسان عنه كل ما روى من الأقوال والافعال فقد قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»(٣).

ويخشى على من روى كل ما سمع، ولم يتثبت ولم يميز بين المنقولات يخشى عليه إن يبؤ بالإثم، ويستحق الوعيد المذكور في الحديث، فيكون من الكاذبين على سيد المرسلين ﷺ، المستحقين للعقوبة.

وللسلامة من ذلك لابد من التثبت، والتثبت بطلب أسانيد تلك الأحاديث، والنظر في رجال السند، والتوثق من عدالتهم واتصال السند، فالإسناد هو المرْقاة التي يُصعد بها إلى الحديث، ولذلك جعله العلماء من الدين،

---

(١) رواه البخاري: (١/ ٣٥)، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، ومسلم في المقدمة: (١/ ٩)، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

(٢) رواه البخاري: (٢/ ٨١)، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، ومسلم في مقدمة «صحيحه»: (١/ ١٠)، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، حديث رقم ٤.

(٣) رواه مسلم في مقدمة «صحيحه»: (١/ ١٠)، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، حديث رقم ٥.

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «انظروا عمَّن تأخذون هذا العلم فإنما هو الدين»[(١)].

وقال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: (الإسناد عندي من الدين لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)[(٢)]. (وقولهم: الإسناد من الدين لا يعنون به قول المحدث: «حدثني فلان عن فلان» مجرداً، بل يريدون ذلك لما تضمنه من معرفة الرجال الذين يحدث عنهم حتى لا يسند عن مجهول ولا مجروح ولا متهم إلا عمَّن تحصل الثقة بروايته؛ لأن روح المسألة أن يغلب على الظن من غير ريبة أن ذلك الحديث قد قاله النبي ﷺ ليعتمد عليه في الشريعة وتسند إليه الأحكام)[(٣)].

والمنقولات فيها صدق وكذب، والمرجع في ذلك إنما هو إلى علم الحديث، وعلماء الحديث الجهابذة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في بيان قاعدة في التمييز بين الصدق والكذب في المنقولات: (المقصود هنا أن نذكر قاعدة فنقول: المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب، والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث، كما نرجع إلى النحاة في الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة، وما ليس من اللغة، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك، فلكل علم رجال يعرفون به، والعلماء بالحديث أجل هؤلاء قدراً، وأعظمهم صدقاً وأعلاهم منزلة وأكثرهم ديناً)[(٤)].

---

(١) رواه الخطيب في «الكفاية في علوم الرواية»: (١٩٦).

(٢) رواه مسلم في مقدمة «صحيحه»: (١/ ١٥)، باب بيان أن الإسناد من الدين ... إلخ، والترمذي في «سننه»: (٥/ ٧٤٠)، كتاب العلل.

(٣) الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ٢٨٨)، بتصرف يسير.

(٤) «منهاج السنة»: (٧/ ٣٤ ـ ٣٥).

فلا يكفي إذاً أن يجد المرء حديث في كتاب أو يسمعه على لسان امرىء فيأخذ به، بل لا بد من التثبت والتأكد من صحة نسبة هذا الحديث إلى النبي ﷺ.

ولقد أتى قوم من أهل البدعة والغلو من اعتمادهم على الأحاديث الموضوعة والضعيفة. قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ في بيان أسباب وقوع المبتدعة في البدع: (فمنها اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة والمكذوب فيها على النبي ﷺ والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها . . . والأحاديث الضعيفة الإسناد لا يغلب على الظن أن النبي ﷺ قالها، فلا يمكن أن يسند إليها حكم، فما ظنك بالأحاديث المعروفة الكذب»[١].

ومن ذلك في العصر الحديث اعتماد شكري مصطفى وجماعته على أحاديث لا يتوثقون منها ولا يتثبتون، ولذلك يقول أحد من كتب عن هذه الجماعة: (يؤكد قوم شكري في مناقشاتهم مع خصومهم . . . أن السنة النبوية من أهم مصادر التلقي عندهم . . . ومثل هذا الاعتقاد يقتضي احترام السنة، ومزيداً من الاهتمام بها . . . غير أن الأحاديث التي حشدوها واحتجوا بها في بيان موقفهم من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ تعطينا دليلاً قوياً على ضعف عنايتهم بالحديث، ومن الملاحظ أنهم لا يحققون هذه الأحاديث ولا يخرجونها كما أنهم لا يشيرون إلى أمهات كتب الحديث التي اعتمدوا عليها)[٢].

وقد ذكر أمثلة على ذلك. منها هذا المثال:

---

(١) «الاعتصام»: (١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٢) محمد سرور بن نايف زين العابدين: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (٩٢).

في نقدهم لتعريفات أهل السنة[١] قالوا: (وفيهم الثمانية من المنافقين الذين أخبرهم الرسول ﷺ لحذيفة) وعند التتبع لا نجد ما يدل على خصوص هذا الرقم، مع أنهم لم يذكروا ما يدل عليه ولم يسندوا قولهم، وفي الموضوع نفسه ذكرٌ لجملة من المنقولات التي لا زمام لها ولا خطام[٢].

* * *

❏ **القاعدة الثانية: لزوم الفهم الرشيد لأحاديث النبي ﷺ:**

إن صحة الأحكام المأخوذة من أحاديث النبي ﷺ مرتهنة بحسن الفهم لتلك الأحاديث، وحسن الفهم لها عائد إلى أمرين:

**الأول**: اللغة التي تكلم بها الرسول ﷺ. **الثاني**: مقصود الرسول ﷺ من تلك الألفاظ (فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعينُ على أن نفقه مراد الله ورسوله لكلامه. وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني)[٣].

وفهم مراد الشارع بالألفاظ يكون بمعرفة عادته في الخطاب ذلك أن اللفظ يكون له معنىً في أصل اللغة، ولكنه في استعمال الشارع يكون منقولاً إلى معنى أخص أو أعم. يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية ـ رحمه الله ـ:

---

(١) ملخص قولهم أنهم ينتقدون أهل السنة في تعريف الصحابي، يقول شكري مصطفى في كتاب «الحجيات»: (والصحابة عندكم: كل من صاحب النبي ﷺ رآه وسمعه، فإن قالوا: هم كذلك، قلنا: هؤلاء يدخل فيهم: من ارتد عن الإسلام وكفر بعد ذلك، ويدخل فيهم كل الثلاثين ألفاً في حجة الوداع ... ويدخل فيهم من جعلوها ملكاً عضوضاً، ويدخل فيهم قتلة عمار ... وفيهم الثمانية من المنافقين الذين أخبرهم الرسول ﷺ لحذيفة ... فأين الهدى في هؤلاء). انظر نقل أقوالهم في المصدر السابق: (٧٩ـ ١١٦).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٩٢ ـ ٩٣).

(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٧/ ١١٦).

(ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله فيعرف بذلك لغةُ القرآن والحديث)[١]. ذلك أن (دلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم وأراده وإرادته وعنايته في قلبه فلا يعرف باللفظ ابتداءً ولكن يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يُعلم أولاً أن هذا المعنى المراد هو الذي يراد بذلك اللفظ ويعنى به)[٢].

ولقد أتي بعض أهل البدع من سوء فهمهم للنصوص إما لعدم فهم معاني ألفاظها من جهة اللغة، وإما من جهة عدم فهم معانيها في استعمال الشارع، وقد كان هذا سبباً رئيساً من أسباب ضلال أهل البدع: (فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنَّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك)[٣]. ومن هؤلاء أهل الغلو المعاصرون فقد ذهبوا إلى أحاديث فحملوها على معاني في أذهانهم لم تكن هي المقصودة من كلام الرسول ﷺ ومن ذلك استدلالهم بالأحاديث الواردة في لزوم الجماعة على وجوب لزوم جماعتهم الخاصة وحرمة مفارقتها، وتكفير المفارق من مثل قوله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية»[٤].

---

(١) «الفتاوى»: (٧/ ١١٥).

(٢) ابن أبي العز: «شرح العقيدة الطحاوية»: (١/ ٦٥).

(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٧/ ١١٦).

(٤) رواه البخاري في «صحيحه»: (٨/ ٨٧)، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها». ومسلم في «صحيحه»: (٢/ ١٤٧٥)، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة. والدارمي في «سننه»: (٢/ ٥٥٦، رقم ٢٥٢٢)، كتاب السير، باب في لزوم الطاعة والجماعة. وأحمد في «مسنده»: (١/ ٢٧٥، ٣١٠).

وهذا خطأ فإن الذي (ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظٌ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث، وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة في كلامه ثم إن كان لذلك نظائر في كلام غيره، وكانت النظائر كثيرة عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو ﷺ بل هي لغة قومه، ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه كما يفعله كثيرٌ من الناس)(١).

وإذا تأملنا النصوص الدالة على لزوم الجماعة والنهي عن مفارقتها وجدنا أنها دائرة بين معنيين:

**الأول**: الجماعة بمعنى المنهج والطريقة، وعلى ذلك تحمل بعض النصوص من مثل قوله ﷺ: «لا يحل دمُ امريءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٢).

**الثاني**: الجماعة بمعنى الأمة إذا اتفقت على إمام شرعي فصاروا جماعة يجب

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٧/ ١١٥).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٨/ ٣٨)، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين . . .﴾ الآية. ومسلم في «صحيحه»: (٢/ ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣)، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم. وأبو داود في «سننه»: (٤/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣)، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد. والنسائي في «سننه»: (٧/ ٩٠ ـ ٩١، ٤٠١٤)، كتاب تحريم الدم، باب ذكر ما يحل به دم المسلم. والترمذي في «سننه»: (٤/ ١٩)، كتاب الديات، باب ما جاء لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث. وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ٨٤٧، رقم ٢٥٣٣)، كتاب الحدود، باب لا يحل دم امرىء مسلم إلا في ثلاث. وأحمد في «مسنده»: (١/ ٣٨٢، ٤٢٨).

لزومها وعلى ذلك يحمل قول النبي ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فمات ميتة جاهلية»(١).

فعليه يتبين أن استدلالهم بالأحاديث المتعلقة بالجماعة مردود عليهم، فتخصيص فئة دون أخرى بأنها جماعة المسلمين أمرٌ يأباه الفهم السليم للنصوص، وفيه تحجيرٌ لأمر جعله الله عز وجل واسعاً.

* * *

☐ **القاعدة الثالثة: وجوب الاستدلال بالأحاديث التي هي نص في المسألة:**

لقد سبق بيان حجية السنة، وأن شأن أهل الاتباع الرجوع إلى الكتاب والسنة، وما اتفقت عليه الأمة؛ فدين المسلمين مبنيٌّ على هذا، وأما أهل الابتداع فإنهم يبنون آراءهم وأقوالهم على أصول مبتدعة أحدثوها، وعلى تعصبات وظنونٍ توهموها. ولذلك تجد أن من أسباب ضلالهم وإضلالهم إعراضهم عن السنن وجهلهم بها.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إياكم وأصحاب الرأي، فإن أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا»(٢).

فبين أنهم عجزوا عن حفظ الأحاديث، والسنن الحاكمة في القضايا التي يريدون بيان أحكامها، فيقولون بآرائهم، وأهوائهم فيكون ذلك سبباً في ضلالهم وإضلالهم، فيضلون هم، ويضلون الناس عن الهدى ودين الحق.

---

(١) سبق تخريجه ص (٩٤).

(٢) رواه الدارقطني في «سننه»: (٤/١٤٦)، كتاب الوصايا. وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»: (٢/١٢٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: (١/١٢٣). في سياق ما روى عن النبي ﷺ في النهي عن مناظرة أهل البدع...

وقال ـ رضي الله عنه ـ: «سيأتي قوم يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»[(١)].

فبين أن العلم ليس العلم بالنصوص المتشابهة العامة بل هو العلم بالنصوص المحكمة النصية التي تحدد المراد وتوضحه والمتأمل في كلام بعض المعاصرين في بعض الموضوعات يجد أخذاً بالنصوص المتشابهة العامة وجهلاً بالنصوص الحاكمة في تلك الموضوعات والقضايا فمن ذلك:

الاستدلال بقوله ﷺ: «إنّا أمةٌ أميةٌ لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا، يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين»[(٢)]. فقد استدلوا بهذا الحديث على تحريم التعليم يقول شكري مصطفى: (أمته كلها أمة أمية لا تكتب ولا تحسب . . . ويقصد بالأمة الأمية عموم هذه الأمة وغالبيتها، ولا مانع من وجود قراء وكتاب ولكن بقدر الضرورة)[(٣)]. فاستدل بهذا الحديث وأغفل النصوص الكثيرة الدالة على فضل العلم وما امتن الله به على الناس من تعليمهم الكتاب: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٤].

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» في المقدمة: (١/ ٤٧)، باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٢/ ٣٣٠)، كتاب الصيام، باب قول النبي ﷺ«لا نكتب ولا نحسب». ومسلم في «صحيحه»: (١/ ٧٦١، رقم ١٠٨٠)، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، والفطر لرؤية الهلال. وأبو داود في «سننه»: (٢/ ٧٣٩ ـ ٧٤٠، رقم ٢٣١٩)، كتاب الصيام، باب الشهر يكون تسعاً وعشرين. والنسائي في «سننه»: (٤/ ١٣٩ ـ ١٤٠)، كتاب الصيام، باب كم الشهر. وأحمد في «مسنده»: (٢/ ٥٢)، من حديث ابن عمر.

(٣) «التوسمات»: (١٦).

كما أغفل النصوص الدالة على مشروعية الكتابة والقراءة والحساب وتعلمها من مثل:

١ـ عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود قال: «حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه»[١].

٢ـ عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأسد على صدقات بني سليم يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه»[٢]. فهذا فيه الدلالة على علمه عليه الصلاة والسلام بالحساب.

٣ـ أن النبي ﷺ قد بعث بالفرائض وفيها من علم الحساب ما فيها[٣].

٤ـ أن النبي ﷺ اتخذ الكُتاب فكان له أكثر من اثنين وأربعين كاتباً منهم الخلفاء الراشدون ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ[٤].

٦ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان ناسٌ من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء؛ فجعل رسولُ الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة»[٥]. قال الإمام الشعبي ـ رحمه الله ـ: (كان أهل مكة يكتبون وأهل

---

(١) ذكره البخاري معلقاً في «صحيحه»: (٨/ ١٢٠)، كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام وهل يجوز ترجمان واحد.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٢/ ١٣٧)، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى ﴿والعاملين عليها﴾، و(٨/ ١١٤ ـ ١١٥)، كتاب الأحكام، باب هدايا العمال، و(٨/ ١٢١)، كتاب الأحكام، باب محاسبة الإمام عماله. ومسلم في «صحيحه»: (٢/ ١٤٦٣ ـ ١٤٦٥)، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال.

(٣) ينظر شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٢٥/ ١٦٦).

(٤) ينظر عبد الرؤوف المناوي: «العجالة السنية شرح ألفية السيرة النبوية: (٢٤٤ ـ ٢٤٥)، وشيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٢٥/ ١٦٦).

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٢٤٧).

المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداءٌ دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوه فهم فداؤه وكان زيد بن ثابتٍ ممن عُلِّم»[١].

وأما الحديث الذي استدل به فليس المقصود بالقراءة والكتابة والحساب المنفية مطلق ذلك، وإنما الكتابة والحساب المنهي عنهما في خصوص معرفة أوائل الشهور، فالأمة مستغنية بما هو أبين وأظهر وأسلم من الغلط وهو الرؤية الشرعية[٢].

❊ ❊ ❊

## ❑ القاعدة الرابعة: وجوب الرجوع إلى السنة في فهم القرآن:

إن الله سبحانه أنزل على عبده ورسوله محمدٍ ﷺ القرآن وأوحىٰ إليه السنة: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى﴾ [سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤]، وجعل هذه السنة مبينة للقرآن (فعلى هذا لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة؛ لأنه إذا كان كلياً، وفيه أمور كليةٌ كما في شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها فلا محيص عن النظر في بيانه، وبعد ذلك ينظر في تفسير السلف الصالح له إن أعوزته السنة فإنهم أعرف به من غيرهم)[٣].

والمتأمل في انحراف المنحرفين عن الحق يجد أن من أسباب انحرافهم اقتصارهم على الكتاب، وجهلهم بالسنة، وطرحهم لأدلتها، فأداهم ذلك إلى الانخلاع عن الجماعة، وتأويل القرآن على غير ما أُنزل[٤].

---

(١) ينظر الصالحي: «سبل الهدى والرشاد»: (٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٢) ينظر شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٢٥/ ١٧٤).

(٣) الشاطبي: «الموافقات»: (٣/ ٣٦٩).

(٤) ينظر المصدر السابق: (٤/ ١٧ ـ ١٨).

ولذلك كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يحض على إلزام المبتدعة والغلاة وأخذهم بالسنن؛ لأنها قاطعة في الدلالة على زيف أقوالهم وآرائهم فقد قال: «سيأتي قومٌ يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن، فإنَّ أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»[١].

ولقد بين عبد القادر البغدادي أن الخوارج ينكرون السنة، وذلك من أسباب انحرافهم فقال: (والثاني مع الخوارج في إنكارها حجة الإجماع والسنن الشرعية وقد زعمت أنه لا حجة في شيءٍ من أحكام الشريعة إلا من القرآن، ولذلك أنكروا الرجم والمسح على الخفين؛ لأنهما ليسا في القرآن، وقطعوا السارق في القليل والكثير لأن الأمر بقطع السارق في القرآن مطلق، ولم يقبلوا الرواية في نصاب القطع ولا الرواية في اعتبار الحرز فيه)[٢].

وقد أتوا من ظنهم مناقضة هذه الأحاديث الصحيحة للقرآن، أو مناقضة بعضها لبعض، أو فساد معانيها أو مخالفتها للعقول[٣].

ومن ذلك في العصر الحديث استدلال بعض الغلاة على تكفير أتباع الحكام بأدلة عامة من مثل:

١ ـ قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [سورة الأنعام، الآيتان: ١٢١ ـ ١٢٢][٤].

---

(١) سبق تخريجه ص (٩٧).

(٢) «أصول الدين»: (١٩).

(٣) ينظر الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ٣١٣).

(٤) ينظر تفصيل أقوالهم عند حسن الهضيبي: «دعاة لا قضاة»: (١٥٥ ـ ١٥٨).

فأخذوا أمثال هذه العمومات وقطعوها عن نصوص السنة المبينة لها.

فعلى سبيل المثال دلت السنة على أن المطيع مع إيمانه واعتقاده بتحريم الحرام وتحليل الحرام قد ارتكب معصية بطاعته متبوعه في معصية الله، فقد قال ﷺ: «على المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة»(١). فهذا الحديث: (دليل على أن من أطاع ولاة الأمر في معصية الله كان عاصياً، وأن ذلك لا يمهد له عذراً عند الله، بل إثم المعصية لاحق به وإن كان لولا الأمر لم يرتكبها، وعلى هذا يدل هذا الحديث)(٢).

وبحسب اختلاف الأمر الذي وقعت الطاعة به يكون الحكم قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ: (إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركاً إذا أطاعه في اعتقاده الذي هو محل الكفر والإيمان فإذا أطاعه في الفعل وعقده مستمرٌ على التوحيد فهو عاصٍ فافهموا ذلك في كل موضع)(٣).

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (٤/ ٧)، كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام، و(٨/ ١٠٥)، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية. ومسلم في «صحيحه»: (٢/ ١٤٦٩، رقم ١٨٣٩)، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية. وأبو داود في «سننه»: (٣/ ٩٣ ـ ٩٤، رقم ٢٦٢٦)، كتاب الجهاد، باب في الطاعة. والنسائي في «سننه»: (٧/ ١٦٠، رقم ٤٢٠٣)، كتاب البيعة، باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع. والترمذي في «سننه»: (٤/ ٢٠٩، رقم ١٧٠٧)، كتاب الجهاد، باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ٩٥٦، رقم ٢٨٦٤)، كتاب الجهاد، باب لا طاعة في معصية الله. وأحمد في «مسنده»: (٢/ ١٧، ١٤٢)، من حديث ابن عمر.

(٢) ابن القيم: «شرح سنن أبي داود»: (٣/ ٤٢٩).

(٣) «أحكام القرآن»: (٢/ ٧٤٣).

ومثال آخر يدل على وجوب الرجوع للسنة في فهم مثل هذه العمومات يقول النبي ﷺ: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا»[١].

فهذا الحديث دل على أن الكارهين غير الراضين ليسوا بآثمين؛ فضلاً عن أن يكونوا كافرين، وإن نالهم إثمٌ فهو بسبب عدم الإنكار مع القدرة، قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: (معناه من كره ذلك المنكر فقد بريء من إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه فيكرهه بقلبه . . . وفيه دليلٌ على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرضى به، أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه)[٢].

❑ ❑ ❑

---

(١) رواه مسلم: (٢/ ١٤٨١)، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك.

(٢) «شرح صحيح مسلم»: (١٢/ ٢٤٣).

## المطلب الثالث

## الجهل بمنهج السلف

**معنى السلف في اللغة:**

قال ابن فارس: (السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق، ومن ذلك السلف الذين مضوا)(١).

**معنى السنة في اللغة:**

قال ابن فارس: (السين والنون أصل واحد يدل على مطرد وهو: جريان الشيء واطراده في سهولة)(٢).

**معنى الجماعة في اللغة:**

قال ابن فارس: (الجيم والميم والعين أصلٌ واحدٌ، يدل على تضام الشيء)(٣).

**معنى السلف في اصطلاح أهل العلم:**

والسلف في الأصل: هم السابقون، فسلف الأمة هم الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ومن سلك سبيلهم، خاصة أهل القرون المفضلة.

وقد ذهب الناس في تحديد السلف أهل السنة والجماعة مذاهب عدداً: فمنهم من يحدد ذلك بالناحية الزمنية، ومنهم من يحدد ذلك بالجانب المنهجي، ووقع في أقوال كثير من هؤلاء خلط مقصود يراد به إدخالُ من ليس من السلف

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٣/ ٩٥)، مادة (سلف).

(٢) المصدر نفسه: (٣/ ٦٠ ـ ٦١)، مادة (سنَّ).

(٣) «معجم مقاييس اللغة»: (٢٢٤)، مادة (جمع)، باب الجيم والعين وما يثلثهما.

أهل السنة والجماعة فيهم. وأولى ما رأيت من التعاريف بالقبول، تعريف الإمام السفاريني ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

(المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلف، دون من رمى ببدعة، أو شُهِر بلقبٍ غير مرض، مثل: الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، ونحو هؤلاء)[١].

وبهذا يتضح أن من سار على نهج هؤلاء المتقدمين، فهو سلفي من أهل السنة والجماعة، ومن أعرض عن منهجهم ولو تقدم في الزمان فليس منهم.

**معنى أهل السنة في اصطلاح أهل العلم:**

إن حقيقة السنة هي الإسلام الذي جاء به رسولنا محمد ﷺ.

قال الإمام البربهاري: (اعلم أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر فمن السنة لزوم الجماعة، ومن رغب غير الجماعة وفارقها، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وكان ضالاً مضلاً)[٢].

وأهل السنة المراد بهم أهل التمسك بما كان عليه الرسول ﷺ، ولذلك كان أئمة السلف في رسائلهم المؤلفة في قضايا الاعتقاد، يسمون العقيدة الصحيحة سنة، قال سفيان بن عيينة تمهيداً لبيان أصول العقائد عند السلف: (السنة عشرة، فمتى كن فيه فقد استكمل السنة، ومن ترك منها شيئاً فقد ترك السنة)[٣].

---

(١) «لوامع الأنوار»: (١/ ٢٠).

(٢) «شرح السنة»: (٢١).

(٣) نقلاً عن اللالكائي: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»: (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

وقال الإمام أحمد قبل بيانه لجملة من أصول عقائد السلف: (أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليهم أصحاب رسول الله ﷺ)[١].

والسلف بهذا يطلقون لفظ السنة في مقابل البدعة، يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ في الكلام عن لفظ السنة: (ويطلق في مقابلة البدعة، فيقال: فلان على سنة، إذا عمل على وفق ما عليه النبي ﷺ كان ذلك مما نص عليه في الكتاب أولا. ويقال: فلان على بدعة، إذا عمل على خلاف ذلك)[٢].

ويقول الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: (فأهل السنة المحضة السالمون من البدع، الذين تمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في الأصول كلها، أصول التوحيد والرسالة، والقدر ومسائل الإيمان وغيرها. وغيرهم من خوارج ومعتزلة وجهمية وقدرية ورافضة ومرجئة، ومن تفرع عنهم، كلُّهم من أهل البدع الاعتقادية)[٣].

قال الإمام ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: (أصل اثنين وسبعين هوى: أربعة أهواء، فمن هذه الأربعة الأهواء تشعبت الاثنان وسبعون هوى: القدرية، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، فمن قدم أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يتكلم في الباقين إلا بخير ودعا لهم، فقد خرج من التشيع أوله وآخره. ومن قال: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص فقدخرج من الإرجاء أوله وآخره. ومن قال: الصلاة خلف كل بر وفاجر، والجهاد مع كل خليفة، ولم ير الخروج على السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح، فقد خرج من قول الخوارج أوله وآخره. ومن قال: المقادير كلها من الله عز وجل خيرها وشرها،

(١) نقلاً عن المصدر السابق: (١/ ١٥٦).
(٢) «الموافقات»: (٤/ ٤).
(٣) «الفتاوى السعدية»: (٦٣ ـ ٦٤).

يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فقد خرج من قول القدرية أوله وآخره، وهو صاحب سنة)(١).

**الجماعة في اصطلاح أهل العلم:**

وردت كلمة الجماعة في نصوص من السنة، منها: قول الرسول ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)(٢).

وحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية»(٣).

وقد ذهب العلماء في معنى الجماعة إلى أقوال خمسة:

**الأول**: أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام.

**الثاني**: أنهم جماعة أئمة العلماء المجتهدين.

**الثالث**: أن الجماعة هم الصحابة على وجه الخصوص.

**الرابع**: أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.

**الخامس**: أن الجماعة جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر(٤).

---

(١) رواه البربهاري في «شرح السنة»: (٥٧).

(٢) سبق تخريجه ص (٩٥).

(٣) سبق تخريجه ص (٩٤).

(٤) ينظر في هذه الأقوال: ابن حجر نقلاً عن الطبري، «الفتح»: (١٣/ ٣٧)، والشاطبي في «الاعتصام»: (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٥).

والذي يتضح من كلام أهل العلم في ضوء النصوص السابقة ذكرها: أن الجماعة تطلق بإطلاقين:

**الأول**: إطلاق الجماعة على البناء والكيان.

**الثاني**: إطلاق الجماعة على المنهج والطريق.

وأهل السنة أهل جماعة بالإطلاقين، فهم ملتزمون بالجماعة وطاعة الأئمة. وبهذا تميزوا عن الخوارج والمعتزلة ونحوهم.

وهم أهل جماعة بلزومهم منهج الرسول ﷺ وصحابته من بعده وأئمة الدين والهدى.

ومذهب أهل السنة والجماعة، ليس مذهباً مبتدعاً، وإنما هو التزام بما كان عليه الرسول ﷺ والصحابة من بعده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم، معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوا عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعاً عند أهل السنة والجماعة)[١].

وكون التسمية بأهل السنة والجماعة حادثة، لا يعني أن مذهب أهل السنة والجماعة حادث، بل مذهب أهل السنة هو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته من بعده.

* * *

إن بين خفاء السنة وظهور البدع علاقة واضحة، فمعلوم (أنه كلما ظهر نور النبوة، كانت البدعة المخالفة أضعف، فلهذا كانت البدعة الأولى أخف من

---

(١) «منهاج السنة»: (٢/ ٤٨٢).

الثانية، والمتأخرة تتضمن من جنس ما تضمنته الأولى وزيادة عليها، كما أن السنة كلما كان أصلها أقرب إلى النبي ﷺ كانت أفضل. فالسنن ضد البدع، فكلما قرب منه ﷺ مثل سيرة أبي بكر وعمر، كان أفضل مما تأخر، كسيرة عثمان وعلي. والبدع بالضد كلما بعد عنه كان شرّاً مما قرب منه)[١].

ولذلك تضافرت النصوص في الأمر بلزوم السنة ومذهب السلف، فمن ذلك:

١ـ قول الله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٥].

والسلف إنما يتبعون الرسول ﷺ فمن أعرض عن مذهب السلف، فهو ممن شاق الرسول ﷺ، ورؤوس المؤمنين وسادتهم هم السلف، فمن اتبع غير سبيل السلف فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، واستحق من الوعيد ما ذكر في الآية.

٢ـ وقوله سبحانه: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٠].

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم مقدمو السلف وقادتهم، فمن اتبعهم بإحسان واقتدى بهم، فقد رضي الله عنه، ومن أعرض عن منهجهم، واقتفى طريقاً غير طريقهم فقد حل عليه الغضب بدل الرضا.

٣ـ ومن السنة: حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) ابن تيمية: «الفتاوى»: (٢٨/ ٤٩٠).

«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينُه شهادته»[١].

والخيرية تقتضي أنهم أهل للاتباع والائتساء.

٤ـ وحديث العرباض من سارية ـ رضي الله عنه ـ قال ﷺ: «فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[٢].

فنهى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن المحدثات، وأمر بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، والنهي للتحريم، والأمر للوجوب.

٥ـ ومن أقوال الصحابة، أنقل جملة من أقوال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

أـ قوله: «عليكم بتقوى الله وهذه الجماعة، فإن الله لا يجمع أمة محمدٍ ﷺ على ضلالة أبداً، وعليكم بالصبر حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر»[٣].

ب ـ وقوله ـ رضي الله عنه ـ: «عليكم بالطريق، فإن لزمتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن خالفتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً)[٤].

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له: (٤/ ١٨٩)، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، وبمعناه في (٧/ ١٧٤)، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.

(٢) سبق تخريجه ص (٨٨).

(٣) رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى»: (١/ ٣١٣، ٣١٤).

(٤) رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى»: (١/ ٣٣٢).

ج- وقوله - رضي الله عنه -: «عليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق»[١].

د- وقوله - رضي الله عنه -: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفِيتمُ»[٢].

هـ- وقوله - رضي الله عنه -: «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[٣].

٦- ومن أقوال السلف:

أ- قول الحسن البصري - رحمه الله -: (السُّنة - والذي لا إله إلا هو - بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها - رحمكم الله - فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي. الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، وكذلك إن شاء الله فكونوا)[٤].

ب- قول الأوزاعي - رحمه الله -: (اصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛

---

(١) رواه الدارمي، واللفظ له: (١/ ٥٠، رقم ١٤٥)، المقدمة، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع، واللالكائي في «شرح السنة»: (١/ ٨٧، رقم ١٠٨) بهذا اللفظ أيضاً.

(٢) رواه الدارمي في «سننه»: (١/ ٦١، ٢١١)، المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي، وأحمد في «الزهد»: (ص٢٣٧، رقم ٨٩٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: (١/ ٨٦، رقم ١٠٤).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: (٢، ٩٧).

(٤) نقلاً عن ابن القيم: «إغاثة اللهفان»: (١/ ٧٠).

فإنه يَسَعُكَ ما وسعهم)[١].

ج- وقول أبي العالية: (تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، ولا تنحرفوا عن الصراط المستقيم يميناً وشمالاً، وعليكم بسنة نبيكم، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين أهلها العداوة والبغضاء)[٢].

د- قول عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إذ كتب إلى بعض عماله: (أما بعد: أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكُفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة. ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها؛ فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها . . . من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه، لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر وما فوقهم من محسر، وقد قصَّر قومٌ فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم)[٣].

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة»: (١/ ١٥٤)، والبيهقي في «المدخل»: (٢٢٣)، والآجري في «الشريعة»: (٥٨).

(٢) رواه المروزي في «السنة»: (٨)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى»: (١/ ٣٣٨).

(٣) سبق تخريجه ص (٣٠).

* * *

إن المتأمل في مذهب السلف أهل السنة والجماعة، يجد أنهم أهل الحق؛ لأنهم أتباع رسول الله ﷺ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

(إن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله؛ لعلمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها تصديقاً وعملاً وحباً وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها)[١].

ويقول ـ رحمه الله ـ: (من طريق أهل السنة والجماعة اتباع آثار الرسول ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية الرسول ﷺ حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٢]، ويعلمون أن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سُمُّوا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين)[٣].

وهم أهل الفهم الرشيد عن الله وعن رسوله، ولذلك تأتي أقوالهم على الاستقامة والسداد.

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (٣/ ٣٤٧).

(٢) سبق تخريجه ص (٨٨).

(٣) «مجموع الفتاوى»: (٣/ ١٥٧).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ بعد كلام عن اختلاف المبتدعة: (وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور تبين له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد، والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك، خارجاً عن موجب العقل والسمع، مخالفاً للفطرة والسمع)[١].

وأما أهل البدع فليسوا على شيء، لا من جهة الاستدلال فهم يستدلون بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولا من جهة فهم ما استدلوا به فإنهم ليسوا أهل فهمٍ عن الله عز وجل. يقول الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (وكثيراً ما تجد أهل البدع والضلالة يستدلون بالكتاب والسنة، يحمِّلونها مذاهبهم، ويُغَبِّرون بمشتبهاتها على العامة، ويظنون أنهم على شيء)[٢].

(فلهذا كله، يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به، فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل)[٣].

وكما وقع السابقون من أهل البدع في الانحراف والبدعة بسبب جهلهم بمذهب أهل السنة والجماعة وإعراضهم عنه وقع اللاحقون من أهل البدع، ومنهم الغلاة. وسأذكر مثالين على ذلك، الأول متعلق بمنهج الفهم، والثاني متعلق بمنهج الحكم على الناس:

---

(١) «الفتاوى»: (٥/ ٢١٢ـ٢١٣).

(٢) «الموافقات»: (٣/ ٧٢).

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

**المثال الأول : اتباع المتشابه :**

فلقد قام منهج أهل السنة على الإيمان بالمتشابه، والعمل بالمحكم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قوله سبحانه: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧]، (يؤمن بالمحكم ويدين به، ويؤمن بالمتشابه، ولا يدين به، وهو من عند الله كله)[١].

ويقول الضحاك ـ رحمه الله ـ: (نعمل بالمحكم ونؤمن به، ونؤمن بالمتشابه ولا نعمل به، وكل من عند ربنا)[٢].

وأهل السنة بهذا، قد بنوا منهجهم على آية آل عمران: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولو الألباب﴾.

وعلى نصوص السنة في التحذير من اتباع المتشابه، يقول الرسول ﷺ بعد أن تلا: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم)[٣].

ولقد اتبع أقوام من المعاصرين المتشابه من النصوص، فمن ذلك: تطبيقهم الأمور الغيبية التي ورد الإخبار بها في النصوص على أشخاص أو جماعات. ومن ذلك: ادعاء أن شخصاً معيناً هو المهدي، أو أن جماعة معينة هي الجماعة التي

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره»: (٣/ ١٨٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره»: (٣/ ١٨٦).

(٣) رواه البخاري: (٥/ ١٦٦)، كتاب تفسير القرآن، باب منه آيات محكمات، ومسلم: (٣/ ٢٠٥٣، رقم ٢٦٦٥)، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، وأبو داود: (٥/ ٦، رقم ٤٥٩٨)، كتاب السنة، باب النهي عن الجدال واتباع المتشابه من القرآن، والترمذي، واللفظ له: (٥/ ٢٢٣، رقم ٢٩٩٤)، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، وابن ماجه: (١/ ١٨ ـ ١٩، رقم ٤٧)، المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل، وأحمد: (٦/ ٤٨)، كلهم من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

ستكون مع عيسى عليه الصلاة والسلام عند نزوله آخر الزمان[1].

**المثال الثاني: التكفير بالمعصية:**

من الأصول المقررة المشتهرة عند السلف أهل السنة والجماعة: عدم تكفير مرتكب المعصية ما لم يستحلها.

قال الإمام الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله)[2].

وقال النووي ـ رحمه الله ـ: (اعلم أن مذهب أهل الحق: أنه لا يكفَّر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا يكفَّر أهل الأهواء والبدع، وأن من جحد ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة حُكِم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه فيُعرَّف ذلك، فإن استمر حُكِم بكفره، وكذا حكمُ من استحل الزنى أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة)[3].

ومع شهرة هذا الأمر عن أهل السنة والجماعة من لدن الصحابة فمن بعدهم، إلا أن قوماً لجهلهم بمذهب أهل السنة والجماعة وإعراضهم عنه، وقعوا فيه. ومن أولئك: جماعة شكري مصطفى، إذ يقول ماهر بكري: (إن كلمة عاصي، هي اسم من أسماء الكافر، وتساوي كلمة كافر تماماً، ومرجع ذلك إلى قضية الأسماء، إنه ليس من دين الله أن يُسمى المرء في آن واحد مسلماً وكافراً)[4].

---

(١) وللموضوع مزيد بحث في الكلام عن الإغراق في دراسة أحاديث الفتن ص (٢٥٠) من هذا البحث.

(٢) «العقيدة الطحاوية مع شرحها»: (٣٥٥).

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (١/ ١٥٠).

(٤) «كتاب الهجرة»: (٧٢).

## المطلب الرابع

## الجهل بمقاصد الشريعة

* معنى المقاصد:

أ- في اللغة:

القاف والصاد والدال أصول ثلاثة يدل أحدها على إتيان شيء وأَمِّه[١].

والمقاصد جمع مقصد وهو: موضع القصد أو الوجهة[٢].

ب- في الاصطلاح:

لم يُعَرِّف العلماء المتقدمون المقاصد، وإنما عرَّفها بعض العلماء المعاصرين مثل: العلامة/ محمد الطاهر بن عاشور، والأستاذ/ علال الفاسي -رحمهما الله-.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: (مقاصد التشريع العامة هي: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة، وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها.

ويدخل في هذا أيضاً معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها)[٣].

---

(١) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: مادة: «قصد»: (٥/ ٩٥).

(٢) ينظر «المعجم الوسيط»: مادة: «قصد»: (٢/ ٧٣٨).

(٣) «مقاصد الشريعة»: (٥٠).

ويقول الأستاذ علّال الفاسي: (المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكمٍ من أحكامها)[١].

وتبين من هذين التعريفين أن المراد بمقاصد الشريعة المعاني والحكم والغايات التي شرعت الأحكام من أجلها[٢].

* **أهمية العلم بالمقاصد:**

تدل أحكام الشرع المطهر على أن هناك مقاصد يرمي إليها الشارع الحكيم سبحانه، فكما أنه لا يخلق عبثاً، فكذلك لا يشرع أمراً عبثاً.

والأحكام الشرعية ليست مقصودة لذاتها وإنما قصد بها أمور أخرى هي معانيها والمصالح التي شرعت لأجلها[٣] وهذه المصالح شاملة للدنيا والآخرة كما أنها شاملة لجميع أنواع التكاليف، وجميع أنواع المكلفين، يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (إذا ثبت أن الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية، وذلك على وجه لا يختل لها به نظام، لا بحسب الكل ولا بحسب الجزء، وسواءٌ في ذلك ما كان من قبيل الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات . . . فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبدياً وكلياً وعاماً في جميع أنواع التكاليف والمكلفين وجميع الأحوال، وكذلك وجدنا الأمر فيها والحمد لله)[٤].

ولذلك فإن المكلف محتاج للعلم بالمقاصد؛ ذلك أن الشارع قصد من المكلف أن يكون مقصده في العمل موافقاً لقصد الشارع في التشريع؛ لأن

---

(١) «مقاصد الشريعة ومكارمها»: (٧).

(٢) ينظر أحمد الريسوني: «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي»: (٧).

(٣) ينظر الشاطبي: «الموافقات»: (٢/ ٣٨٥).

(٤) «الموافقات»: (٢/ ٣٧).

الشريعة وضعت لمصالح العباد، والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، ولا يخالف مقاصد الشارع الذي خلق العباد لعبادته: (وكل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل . . . فإن المشروعات إنما وضعت لتحصيل المصالح، ودرء المفاسد، فإذا خولفت لم يكن في تلك الأفعال التي خولف بها جلب مصلحة ولا درء مفسدة)[١]. بل هذه المخالفة فيها إهدار لما اعتبره الشارع واعتبار لما أهدر فإن المكلف (إن قصد غير ما قصده الشارع ـ وذلك إنما يكون في الغالب لتوهم أن المصلحة فيما قصد، لأن العاقل لا يقصد وجه المفسدة كفاحاً ـ فقد جعل ما قصد الشرع مهمل الاعتبار، وما أهمل الشارع مقصوداً معتبراً وذلك مضادة للشريعة ظاهرة)[٢].

* **كيفية العلم بالمقاصد:**

إن معرفة المقاصد عائدة إلى الاستقراء المفيد للقطع[٣]؛ لأن مرجعها هو إلى مجموع أدلة الشريعة، فنخرج باستقراء مقاصد الشارع من أحكامه بقانون كلي لا يخرمه تخلف بعض الجزئيات إذ (تخلف بعض الجزئيات عن مقتضى الكلي لا يخرجه عن كونه كلياً. وأيضاً فإن الغالب الأكثري معتبرٌ في الشريعة اعتبار العام القطعي)[٤].

يقول الإمام الشاطبي في بيان دليل كون الشارع قصد المحافظة على القواعد الثلاث: الضرورية والحاجية والتحسينية: (إنما الدليل على المسألة ثابتٌ من وجه

---

(١) «الموافقات»: (٢/ ٣٣٣).
(٢) «الموافقات»: (٢/ ٣٣٣ـ ٣٣٤).
(٣) «الموافقات»: (١/ ٢٩).
(٤) «الموافقات»: (٢/ ٥٣).

آخر هو روح المسألة، وذلك أن هذه القواعد الثلاث لا يرتاب في ثبوتها شرعاً أحدٌ ممن ينتمي إلى الاجتهاد من أهل الشرع، وأن اعتبارها مقصودٌ للشارع.

ودليل ذلك استقراء الشريعة، والنظر في أدلتها الكلية والجزئية، وما انطوت عليه من هذه الأمور العامة، على حد الاستقراء المعنوي الذي لا يثبت بدليل خاص بل بأدلة منضافٍ بعضها إلى بعض مختلفة الأغراض، بحيث ينتظم من مجموعها أمر واحد تجتمع عليه تلك الأدلة، على حد ما ثبت عند العامة جود حاتم وشجاعة علي ـ رضي الله عنه ـ وما أشبه ذلك.

فلم يعتمد الناس في إثبات قصد الشارع في هذه القواعد على دليل مخصوص ولا على وجه مخصوص، بل حصل لهم ذلك من الظواهر والعمومات، والمطلقات والمقيدات، والجزئيات الخاصة في أعيان مختلفة، ووقائع مختلفة في كل باب من أبواب الفقه، وكل نوع من أنواعه، حتى ألفوا أدلة الشريعة كلها دائرة على الحفظ على تلك القواعد، هذا مع ما ينضاف إلى ذلك من قرائن أحوال منقولة وغير منقولة)[1].

وبناء عليه فإن من المهم أن يعرف أن تحديد مقاصد الشريعة والمصالح والمفاسد، والمنافع والمضار ليس إلى أهواء النفوس، بل (إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الآخرة، لا من حيث أهواء النفوس . . . وطلب منافعها العاجلة كيف كانت، وقد قال ربنا سبحانه ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٧١].)[2].

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (وبذلك كله يعلم من قصد الشارع أنه لم يكل شيئاً من التعبدات إلى آراء العباد فلم يبق إلا الوقوف عند ما حده)[3].

---

(١) «الموافقات»: (٢/ ٥١).
(٢) «الموافقات»: (٢/ ٣٧ـ٣٨). (٣) «الاعتصام»: (٢/ ٦٣٤ـ٦٣٥).

وإذا كانت معرفة المقاصد عائدة إلى الاستقراء فإن الذي يملك ذلك هم أهل العلم لأن استقراء النصوص لا يقع لغيرهم، وفهم المقاصد خاص بأهل العلم.

(فإذا بلغ الإنسان مبلغاً فهم عن الشارع فيه قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها فقد حصل له وصف هو السبب في تنزيله منزلة الخليفة للنبي ﷺ في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله)[١].

وأما مدعو ذلك الفهم وهم غير علماء بالشرع. وغير فقهاء بأحكامه فإنما يبنون كلامهم في المصالح والمفاسد على الأهواء فيهدمون أكثر مما يبنون، ويفسدون أكثر مما يصلحون، بسبب الجهل بكليات الشريعة وجزئياتها حيث تجد الواحد متهم (آخذاً ببعض جزئياتها في هدم كلياتها، حتى يصير منها إلى ما ظهر له ببادي رأيه من غير إحاطة بمعانيها، ولا راجع رجوع الافتقار إليها، ولا مسلم لما روي عنهم[٢] في فهمها، ولا راجع إلى الله ورسوله في أمرها كما قال: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ الآية [سورة النساء، الآية: ٥٩]. ويكون الحامل على ذلك بعض الأهواء الكامنة في النفوس الحاملة على ترك الاهتداء بالدليل الواضح، واطراح النصفة، والاعتراف بالعجز فيما لم يصل إليه علم الناظر، ويعين على هذا الجهل بمقاصد الشريعة، وتوهم بلوغ درجة الاجتهاد باستعجال نتيجة الطلب)[٣].

---

(١) «الموافقات»: (٤/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) الضمير عائد إلى السلف من الصحابة فمن بعدهم.

(٣) «الموافقات»: (٤/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

* **أثر الجهل بالمقاصد في الوقوع في الغلو:**

لقد ثبت فيما سبق أهمية العلم بالمقاصد، وكيفية العلم بالمقاصد، والكلام هناك مشعرٌ بأن الجهل بالمقاصد مردٍ بالجاهل إلى المهاوي حيث يفسد من حيث يظن الإصلاح، والمثالان الآتيان يوضحان كيف يكون الجهل بالمقاصد مؤدياً إلى الغلو في الدين:

**المثال الأول: الجهل بيسر الشريعة وسماحتها:**

إن من أعظم مقاصد الشريعة اليسر والتيسير على الناس، ورفع الآصار والأغلال عنهم، وهذا من حكم بعثته عليه الصلاة والسلام، قال الله عز وجل: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٧].

وفي القرآن دلائل واضحة على أن هذا المقصد واحدٌ من أهم مقاصد الشريعة، فالله عز وجل يقول: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [سورة الحج، الآية: ٧٨]، ويقول في سياق بيان فريضة الصيام: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٥]، ويقول في سياق فريضة الطهارة: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون﴾ [سورة المائدة، الآية: ٦].

إن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنات فيه، والدليل على ذلك أمور:

**أحدها:** النصوص الدالة على ذلك كقوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٧].

**الثاني**: ما ثبت أيضاً من مشروعية الرخص، وهذا أمر مقطوع به، ومما علم من دين الأمة ضرورة.

**الثالث**: الإجماع على عدم وقوعه وجوداً في التكليف، وهو يدل على عدم قصد الشارع إليه[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (إن مدار الشريعة على قوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦]، المفسر لقوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٢]، وعلى قول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[٢].

وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها)[٣].

ولا يخرم هذا الأصل ورود شيء من نصوص الشريعة مائل إلى جانب التشديد، فإن ذلك مرادٌ به المقابلة فإنك (إذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر.

فطرف التشديد ـ وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر ـ يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين)[٤].

---

(١) ينظر الشاطبي: «الموافقات»: (٢/ ١٢١ ـ ١٢٣).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٨/ ١٤٢)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ومسلم واللفظ له: (١/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧)، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، وأحمد: (٢/ ٢٥٨، ٤٢٨)، والنسائي: (٥/ ١١٠ ـ ١١١، رقم ٢٦١٧)، كتاب مناسك الحج، باب وجوب الحج. وابن ماجه في «سننه»: (١/ ٣، رقم ٢)، المقدمة، باب اتباع سنة الرسول ﷺ.

(٣) «الفتاوى»: (٢٨/ ٢٨٤).

(٤) «الموافقات»: (٢/ ١٦٧).

والمغالي في الدين معرض عن هذا المقصد العظيم فقيام الغلو على التشديد والأثقال والتعبد لله عز وجل بالآصار والأغلال.

فالمغالي إما أن يغلو تارة بأن يتشدد على نفسه بأن يتخذ ما ليس بواجب ولا مستحب بمنزلة الواجب أو المستحب، وتارة باتخاذ ما ليس بمحرم ولا مكروه بمنزلة المحرم أو المكروه في الطيبات(١).

وأما أن يتشدد على الآخرين فيلزمهم بما لم يلزمهم به الله أو يحكم عليهم بما لا ينطبق عليهم في الشرع وهو بهذا مخالف لهذا المقصد العظيم مقصد اليسر والتيسير.

* **الجهل برتب المصالح والمفاسد:**

إن قيام الشريعة إنما هو على جلب المصالح ودرء المفاسد يقول العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ: (معظم مقاصد القرآن: الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها)(٢).

ويقول أيضاً ـ رحمه الله ـ: (الشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح. فإذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه، أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر. وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثاً على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح)(٣).

وهذه المصالح والمفاسد قد تختلط فيكون الفعل الواحد أو القول الواحد مصلحة من وجه ومفسدة من وجه آخر، أو مصلحة مشوبة بشيء من المفاسد أو العكس.

---

(١) ينظر شيخ الإسلام: «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٢٨٣).

(٢) «قواعد الأحكام»: (١/ ٨). (٣) «قواعد الأحكام»: (٢/ ٧٣).

يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (المنافع والمضار عامتها أن تكون إضافية لا حقيقية. ومعنى كونها إضافية: أنها منافع أو مضار في حال دون حال، وبالنسبة إلى شخص دون شخص أو وقت دون وقت)(١).

وقال القرافي ـ رحمه الله ـ: (استقراء الشريعة يقضي أنه ما من مصلحة إلا وفيها مفسدة ولو قلت على البعد، ولا مفسدة إلا وفيها مصلحة وإن قلت على البعد)(٢). فإن قلت فهي غير معتبرة وإن كثرت وقع التعارض، وتعارض المصالح والمفاسد وحسنات الفعل وسيئاته (باب واسع جداً لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين)(٣).

وقد عالج الشرع هذه المسألة فأمر بـ:

١ ـ ارتكاب أدنى الفسادين للسلامة من أعلاهما.

٢ ـ بإهدار إحدى المصلحتين لتحصيل أعلاهما.

٣ ـ تقديم درء المفاسد على جلب المصالح.

وأمر أيضاً بالنظر إلى مآلات الأمور وعواقبها وعدم الاقتصار على النظر الآني إذ قد يكون الفعل الذي فيه مصلحة آنية مؤدياً في العاقبة إلى مفسدة أعظم، قال

---

(١) «الموافقات»: (٢/ ٣٩).

(٢) «شرح تنقيح الفصول»: (٨٧).

(٣) شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٢٠/ ٥٧ ـ ٥٨).

الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (النظر في مآلات الأفعال معتبرٌ مقصودٌ شرعاً كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعاً لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه. وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به ولكن له مآل على خلاف ذلك.

فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدةٍ تساوي المصلحة أو تزيد عليها فيكون هذا مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية.

وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا إنه عذب المذاق محمودُ الغِبّ جارٍ على مقاصد الشريعة)(١).

وفي الدعوة الإسلامية يجري الكلام عن تعارض المصالح، أو تعارض جلب المصالح مع وقوع مفاسد إذ تكون معصية أو فساداً فيراد رفعه بفساد أشد منه وهذا خطأ عظيم إذ (لا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين، فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعاً، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً)(٢).

---

(١) «الموافقات»: (٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

(١) شيخ الإسلام «الفتاوى»: (٢٣/ ٣٤٣).

وعندما يفقد راغب الإصلاح العلم برتب المصالح والمفاسد ومقاصد الشريعة - المتقرر أنه إنما يكون لمن ملك زمام الاجتهاد - يكون وقوعه في الغلو.

**وهذا مثال لذلك**: الخروج على الحكام تختلف أحكامه باعتبارات كثيرة منها كفر الحاكم وإسلامه، ومنها القدرة على التغيير، ومنها: أن تكون المصلحة متحققة من ذلك الخروج.

وحين يخرج أناس على حاكم مسلم جائر فإنهم خالفوا مقصداً من مقاصد الشريعة وهو تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها.

ذلك أن مما علم بالاستقراء لوقائع التاريخ أن الخروج على أئمة الجور مفاسده أكثر من مصالحه إذ (لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته)[(١)].

قال ابن أبي العز الحنفي: (وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور)[(٢)].

وقال شيخ الإسلام: (وإن ما أمر به الرسول ﷺ من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وإن من خالف ذلك متعمداً أو مخطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد)[(٣)].

وعند النظر تجد أن الداعين إلى الخروج يغلب عليهم الكلام عن المصادمة وحتمية المواجهة، ويضعون المصطلحات الشرعية كالجهاد على الأعمال التي يقومون بها.

---

(١) شيخ الإسلام: «منهاج السنة»: (١/ ٣٩١).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية»: (٢/ ٥٤٣).

(٣) «منهاج السنة»: (٤/ ٥٣١).

وهم في غالبهم يريدون الإصلاح حسب الظاهر ويحسبون أنهم بهذه الأفعال يدعون إلى الله ويخدمون الأمة ويصلحون حالها، وشواهد الحال دالة على أن المفاسد المتحققة من هذا الفعل أعظم، ويكفي أن يكون من آثاره إفساد أمن الأمة إذ يصطاد في الماء العكر كل مفسد، ويحارب الدين بعذر محاربة الخارجين.

إن من آثار الخروج الذي لم يكن عن اجتهاد شرعي معتبر منظور فيه للضوابط الشرعية ومنسجم مع مقاصد الشريعة (استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض)[١].

❑ ❑ ❑

(١) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن»: (٢/ ١٠٩).

## المطلب الخامس

## الجهل بالسنن الربانية

**معنى السنة في اللغة:**

قال ابن فارس: (السين والنون أصل واحد مطرد وهو جريان الشيء واطراده في سهولة)[١].

ومما اشتق من هذا الأصل كلمة: (السنة) وهي السيرة وإنما سميت بذلك لأنها تجري جريا[٢].

**معنى السنة الربانية في الاصطلاح:**

يعرف شيخ الإسلام ابن تيمية السنة بأنها: (العادة في الأشياء المتماثلة)[٣].

ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (سنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلالهم وكبتهم ... وأن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله وضد حكم مضاده ومخالفه)[٤].

والله سبحانه له سنن تشريعية تتعلق بدينه وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وهي ليست كالسنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات، فإن هذه السنن ينقضها إذا شاء بما شاء من الحكم[٥].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: مادة: «سن» (٤٧٤).

(٢) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: مادة: «سن» (٤٧٤).

(٣) «جامع الرسائل»: (١/ ٥٥).

(٤) «شفاء العليل»: (٤٢٠).

(٥) ينظر ابن تيمية: «جامع الرسائل»: (١/ ٥٢).

* **أهمية العلم بالسنن الربانية:**

تكشف القراءة في القرآن الكريم والسنة المطهرة أن فيهما إرشاداً للسير في الكون، واستقراء الأحداث الماضية لمعرفة سنن الله في الكون والاسترشاد بها في السير إلى الله، ودراسةُ التاريخ هي طريق استخراج السنن وكل فائدة من دراسة التاريخ هي أيضاً فائدة للعلم بالسنن إذ بينهما تلازم وترابط.

(إن القرآن الكريم يقدم أصول «منهج» متكامل في التعامل مع التاريخ البشري والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية ـ التاريخية، كما فعل «ابن خلدون» على سبيل المثال . . . وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة وعلى وجود «سنن» و«نواميس» تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حالٍ إلى حال)[١].

وكما كان تأكيد القرآن على قصص الأنبياء كاشفاً للسنن الربانية فقد كانت سيرة نبيناً محمد ﷺ وخلفائه الراشدين، وتاريخ الإسلام الطويل مظهراً للمزيد من تلك السنن.

ومع أن حركة التاريخ متغيرة وأحداثه متقلبة فإن السنن الربانية ثابتة وكلٌّ من المتقابلين في أحداث التاريخ:

الصالح والفاسد، أو المهزوم والمنتصر ـ على سبيل المثال ـ جار على سنن إلٰهية فللانتصار أسبابٌ وللهزيمة أسباب. وثباتُ هذه السنن هو ثباتٌ في ذاتها إذ لا تتغير فتحل سنة مكان أخرى، ولا تتحول سنن عن مكانها أو موضوعها: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [سورة فاطر، الآية: ٤٣]،

---

(١) عماد الدين خليل: «التفسير الإسلامي للتاريخ»: (٨ ـ ٩).

﴿سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٦٢].

وهذا الثبات هو الذي أكسب تلك السنن أهميتها فقصص الأولين لم تكن عبراً إلا بسببه فلولا القياس واطراد فعله سبحانه وسنته لم يصح الاعتبار بها، فالاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره.

ولكن هذا الثبات لا يعني تقييد إرادة الخالق سبحانه فهو الذي شاء السنن وأوجدها، وهو الذي يخرقها ببعض الخوارق كالمعجزات للأنبياء وهذا غير خارم لأصل ثباتها.

ويلاحظ هنا أن السنن التي تحكم حياة الناس أفراداً وجماعات ليست كالسنن التي تحكم المادة في هذا الكون؛ إذ الإنسان والواقع الإنساني يختلف في طبيعته عن الواقع الكوني المادي، ومن ثم فإن كشف السنن التي تحكم المادة أيسرُ من كشف السنن التي تحكم حياة الإنسان؛ لأن الواقع الإنساني ليس منضبطاً كالواقع المادي، فالعنصر الروحي والإرادة جعل واقع الإنسان يتصف بكثير من الغموض والخفاء في العوامل والأسباب التي تنشأ عنها الظواهر السلوكية.

وأمرٌ آخر: هو أن الإنسان هو أداة التحليل ومحله في وقت واحد، وأما في إطار المادة فالإنسان هو أداة التحليل وأما المحل فشيء آخر[1].

وهذا يقودنا إلى القول بأن كشف السنن المتعلقة بالإنسان يجب أن يكون في ضوء الكتاب والسنة فيكون الإنسان محلاً للتحليل أما المرشد فهو خالق الإنسان الخبيرُ به ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [سورة الملك، الآية: ١٤].

---

(١) ينظر عمر عبيد حسنه: «مقدمة كتاب أزمتنا الحضارية» للدكتور أحمد الكنعان: (١٤).

والله سبحانه الذي جعل السنن جعل بإزائها أحكاماً تشريعية، وبين السنن الكونية والأحكام الشرعية انسجام واتساق، فالمسلم عندما يتعبد الله عز وجل بأحكامه التشريعية فهو سائر وفق السنن الكونية.

* * *

وفي سياق بيان علاقة هذا الموضوع: «الجهل بالسنن» في الوقوع في الغلو يمكن أن يُمثل بسنن التغيير: إن الله سبحانه قادرٌ على أن يصلح حال البشرية في وقت يسير، إذ أمره سبحانه بـ «كن» فيكون ما أراد ولكن مقتضيات سنته تخالف ذلك.

فمن سنته في خلقه جعلهم مختلفين ليحصل التمايز والابتلاء:

﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٥]، ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٩]، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩].

(يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسُّبُل الموصلة إلى النَّار، كلٌّ يرى الحقَّ فيما قاله، والضلالَ في قولِ غيره . . . وقوله ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي اقتضت حكمته أنَّه خلقهم ليكون منهم السُّعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذي هدى الله، والفريق الذي حقَّت عليهم الضلالة ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن من الطباع البشرية، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء)[1].

(١) الشيخ عبد الرحمن السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٣٤٨).

كما جعل سبحانه حركة تغيير المجتمع من الصلاح إلى الأصلح أو من الفساد إلى الصلاح تتم عبر حركة المجتمع ذاته: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن الله سميعٌ عليم﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٥٣]، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد، الآية: ١١]، وفي آية تتعلق بالجهاد يقول سبحانه: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قومٍ مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليمٌ حكيم﴾ [سورة التوبة، الآيتان: ١٤، ١٥].

فجعل تلك النتائج: التعذيب والخزي للكافرين، والنصر وشفاء الصدور، وذهاب غيظ القلوب والتوبة للمؤمنين. مرتبة على بداية الجهد من البشر، فقدر الله ينفذ في الناس بناء على أعمالهم.

والتغيير أيضاً لا يتم إلا بجهد طويل المدى، وعمل، وجهاد ودعوة وزمن طويل، فقد يعمل البشر عملاً لا تظهر نتائجه لهم، وإنما تظهر لقوم لم يشاركوا في ذلك العمل: (إن التحول في أكثر الظواهر الاجتماعية يتم ببطء، وعمر الإنسان قصير إذا ما قيس بعمر الحضارات مما يجعله يبصر مقدمات الحدث دون نتائجه، ونتائجه دون مقدماته وأسبابه، وحينئذ فإن من السهولة بمكان أن يصاب المرء بغبش الرؤية وضلال الأحكام)[1].

ومع طول الزمن الذي قد يستغرقه العمل فقد لا تكون نتائج أو تكون نتائج غير مكافئة للعمل: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١٤].

ويقترن بذلك الطول الابتلاء فإنه لا تمكين ـ في سنة الله ـ لأحدٍ إلا بعد

---

(١) عبد الكريم بكّار: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ «مجلة البيان»: عدد (٥٦/٨).

الابتلاء والتمحيص: ﴿آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣].

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٢].

وكما جرى هذا الابتلاء للرسول ﷺ وجرى للرسل من قبله يجري للدعاة من بعدهم: ﴿ولقد كذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٤].

وهذه السنة ماضية إذ (لا يمكن فعلاً أن يكون إخلاص الإنسان مهما كان عميقاً، وحبه لله مكيناً، لا يمكن أن يكون هذا أو ذاك سبباً في إلغاء السنن التي أدار الله عز وجل عليها شؤون العالم ـ فهي سننٌ مكينة ـ وقد أخضع الله أنبياءه لها فَلِمَ لا يُخْضِعُ لها الأتباع)[1].

إن معرفة هذه السنن وأمثالها من شأنها أن تسلم حركة الدعوة من الانزلاق في الأخطاء المتكررة والتجارب الفاشلة، ولكن قوماً ممن وقعوا في الغلو جهلوا تلك السنن فلم يجعلوا بدء التغيير في الناس تغيير ما بالأنفس ولكن رأوا أن التركيز على إحداث التغيير يجب أن يكون من أعلى وهم بذلك يظنون أن من شأن هذا التغيير العمل على التعجيل فتصلح الأمة بين عشية وضحاها.

وهذا الاستعجال والجهل بسنة التدرج مع الإحباط الناتج عن العمل دون

---

(١) محمد الغزالي: «فقه الدعوة ملامح وآفاق» (مجموعة حوارات أجراها عمر عبيد حسنة): (١٢٤).

رؤية النتائج أدى إلى محاولة العمل بأساليب فيها غلو واستتبع ذلك جملة من تراكمات الأخطاء.

❑ ❑ ❑

## المطلب السادس

## الجهل بحقيقة الإيمان وعلاقته بالأعمال

- تعريف الإيمان لغةً:

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: (الهمزة والميم والنون، أصلان متقاربان: أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها: سكون القلب. والآخر: التصديق. والمعنيان كما قلنا متدانيان. قال الخليل: الأَمَنة من الأَمْن، والأمان: إعطاء الأَمَنَة، والأمانة ضد الخيانة..

وأما التصديق فقول الله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٧] أي مصدق لنا. وقال بعض أهل العلم: إن «المؤمن» في صفات الله هو أن يصدق ما وعَد عبدَه من الثواب. وقال آخرون: هو مؤمن لأوليائه، يؤْمنهم عذابه ولا يظلمهم)[(١)].

وقال ابن منظور ـ رحمه الله ـ: (الإيمان: ضد الكفر، والإيمان: بمعنى التصديق، ضده التكذيب. يقال: آمن به قوم، وكذب به قوم)[(٢)].

ويرى شيخ الإسلام أن الصواب: أن يقال: إن الإيمان هو الإقرار. إذ يقول ـ رحمه الله ـ: (إن الإيمان ليس مرادفاً للتصديق في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب، يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت. فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدق، كما يقال كذب.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (١/ ١٣٣، ١٣٥)، باب الهمزة والميم وما بعدهما في الثلاثي مادة (أمن).

(٢) «لسان العرب»: (١/ ١٠٧)، مادة: أمن.

وأما لفظ الإيمان، فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة، كقوله: طلعت الشمس وغربت، أنه يقال: آمناه، كما يقال صدقناه . . . فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يوجد قط في القرآن الكريم وغيره لفظ: آمن له إلا في هذا النوع)[١].

ويقول أيضاً ـ رحمه الله ـ: (ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب، الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد)[٢].

ويقول أيضاً: (. . . فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقاً)[٣].

(. . . فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد)[٤].

ـ **تعريف الإيمان في الشرع:**

لقد عرف أهل السنة الإيمان بأنه قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح[٥].

قال الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ: (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أن أحداً منهم يختلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)[٦].

---

(١) «الإيمان»: (٢٧٦).
(٢) «الفتاوى»: (٧/ ٦٣٨).
(٣) «الفتاوى»: (٧/ ٢٩١).
(٤) «الصارم المسلول»: (٥١٩).
(٥) ينظر ابن تيمية: «العقيدة الواسطية بشرح الهراس»: (١٦١).
(٦) «صحيح البخاري مع الفتح»: (١/ ٤٧).

وقد عقد الإمام الآجري ـ رحمه الله ـ باباً سماه: (القول بأن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، لا يكون مؤمناً إلا أن يجتمع فيه هذه الخصال الثلاث).

ثم قال: (اعلموا ـ رحمنا الله وإياكم ـ: أن الذي عليه علماء المسلمين، أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح. ثم اعلموا أنه لا تجزىء المعرفة بالقلب، والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً. ولا تجزىء معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح. فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمناً. دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين . . .)(١).

وهذا الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وقد جاءت الآيات والأحاديث دالة دلالة صريحة على زيادة الإيمان (وكل نص يدل على زيادة الإيمان فإنه يتضمن الدلالة على نقصه وبالعكس؛ لأن الزيادة والنقصان متلازمان، لا يعقل أحدهما بدون الآخر)(٢).

فمن الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٧٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢].

---

(١) «الشريعة» للآجري: (١١٩).

(٢) محمد بن عثيمين: «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»: (١١٣).

وأما من الأحاديث، فكحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة. فأفضلها: قول لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[١].

(وهذا صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصافِ العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً. فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد خالف الحس مع مخالفته لنصوص الشرع كما ترى)[٢].

والأعمال الصالحة داخلة تحت مسمى الإيمان. دل على ذلك جملة نصوص منها:

١ـ قول الله عز وجل: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣]. وقد (أجمع المفسرون على أنه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس، فثبت أن الصلاة إيمان، وإذا ثبت ذلك فكل طاعة إيمان)[٣].

٢ـ قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ [سورة الأنفال، الآيات: ٢ ـ ٤].
فحصر الإيمان فيمن جاء بهذه الأعمال، ونفاه عمن لم يأت بها. فدل ذلك على أن هذه الأعمال داخلة تحت مسمى الإيمان[٤].

---

(١) رواه البخاري: (١/ ٨)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم واللفظ له: (١/ ٦٣، رقم٣٥)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها . . .

(٢) ابن سعدي: «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»: (١٢).

(٣) الحليمي: «المنهاج في شرح شعب الإيمان»: (١/ ٣٧).

(٤) ينظر ابن تيمية: «الإيمان»: (١٤).

٣ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة. فأفضلها قول لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»(١).

فهذا الحديث واضح الدلالة في أن الأعمال الصالحة تدخل في مسمى الإيمان. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (الإيمان أصل له شعب متعددة، وكل شعبة تسمى إيماناً. فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصوم، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل)(٢).

واسم الإيمان لا يزول بزوال شعبة من شعب الإيمان، ولكن قد يزول اسم الإسلام بزوال شعبة كالشهادتين. ويزول اسم الإيمان بزوال اسم الإسلام.

وهذه الشعب على ثلاثة أقسام:

قسم يكفر بتركه، وهو الأمور التي يجب الاعتقاد بها أو العمل، مثل الشهادتين والصلاة ونحوها.

وقسم يفسق بتركه ولا يكفر، أو يفسق بفعله ولا يعد كافراً إلا إذا جحد الواجب أو استحل المحرم. ويدخل في ذلك كل الكبائر.

وقسم يكون بتركه مخطئاً للأفضل، مقصراً غير فاسق، مثل التطوعات، أو مخطئاً بفعله(٣).

وبما أن الكفر شعب، والإيمان شعب، فإن العبد قد يجتمع فيه شعب إيمان وشعب كفر. ومن أدلة ذلك:

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣٨).

(٢) «كتاب الصلاة»: (٥٣).

(٣) ينظر البيهقي: «الاعتقاد على مذهب السلف»: (٩٥).

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠٦]، فأثبت لهم سبحانه إيماناً مع وجود الشرك.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٤]، فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله ﷺ مع نفي الإيمان عنهم، وهو الإيمان المطلق[١].

٣ ـ قول الرسول ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٢]. فهذا الحديث يدل على أنه قد يجتمع في العبد إيمان ونفاق، فتوجد فيه خصلة من النفاق أو خصال مع وجود الإيمان.

٤ ـ عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: «القلوب أربعة: قلب أغلف فذلك قلب الكافر. وقلب مصفح وذلك قلب المنافق. وقلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن. وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل قُرْحةٍ يمدها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب»[٣].

---

(١) ينظر ابن القيم: «كتاب الصلاة»: (٦٠).

(٢) رواه البخاري واللفظ له: (١/ ١٤)، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم: (١/ ٧٨، رقم٥٨)، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، وأبو داود: (٥/ ٦٤، رقم ٤٦٨٨)، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، وأحمد: (٢/ ١٨٩)، من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) رواه ابن أبي شيبة: (١٧)، برقم ٥٤، كتاب الإيمان.

قال شيخ الإسلام: (وهذا الذي قاله حذيفة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٧]، فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد، غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب)(١).

وهناك آثار عدة عن بعض الصحابة دالة على ما ذكرت، أورد جملة منها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ثم قال: (وهذا كثير في كلام السلف، يبينون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق)(٢).

وكذلك كل الأحاديث التي فيها الكفر الأصغر أو النفاق العملي، فهي دالة على أنه قد يجتمع في العبد شيء من شعب الإيمان وشعب الكفر أو شعب النفاق، فقد أثبتت وجود شيء من شعب الكفر، كقتال المسلم، والطعن في النسب، والنياحة على الميت، والرغبة عن الآباء والنسبة إلى غيرهم. ومع ذلك فقد دلت النصوص المحكمة على أن أصحابها لم يسلبوا اسم الإيمان بالكلية.

* * *

وقد ضل الضالون في أبواب الإيمان والأسماء والأحكام بأسباب من جملتها: جهلهم بحقيقة الإيمان وعلاقته بالأعمال. فقد (قالت الخوارج والمعتزلة: قد علمنا يقيناً أن الأعمال من الإيمان، فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان، وإذا زال بعضه زال جميعه؛ لأن الإيمان لا يتبعض، ولا يكون في العبد إيمان ونفاق، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار، إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء)(٣).

---

(١) «الفتاوى»: (٧/ ٣٠٤).

(٢) «المصدر السابق»: (٧/ ٣٠٤ـ٣٠٥).

(٣) شيخ الإسلام: «المصدر السابق»: (١٣/ ٤٨).

ومنشأ ضلالهم: (أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقاً للثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والحمد والذم، بل إما لهذا وإما لهذا، فأحبطوا جميع حسناته بالكبيرة التي فعلها، وقالوا: الإيمان هو الطاعة، فيزول بزوال بعض الطاعة)(١).

وقد زعموا أن الإيمان إذا كان مركباً من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة، لزم زواله بزوال بعضها، كما يزول اسم العشرة عنها إذا زال أحد أفرادها (وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان؛ فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله)(٢).

والصحيح: أنه (ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر، يصير بها كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمناً، حتى يقوم به أصل الإيمان وحقيقته. وفرق بين الكفر المعرف باللام، كما في قوله ﷺ: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»(٣) وبين كفر منكر الإثبات)(٤).

وبمثل شبهة الخوارج هذه، قال الغلاة المعاصرون الذين جهلوا حقيقة الإيمان، فقالوا: (مسافر غادر الاسكندرية متوجهاً إلى القاهرة، وقطع جميع مراحل الطريق إلا مرحلة توقف عندها، وليس مُهِماً ذكر سبب التوقف عند هذه المرحلة، وإنما المهم أنه توقف عند هذه المرحلة التي لا تبعد عن القاهرة إلاَّ بضعة أميال) وهم يمثلون الحد الأدنى من الإسلام بالقاهرة وعدم وصوله إليها، أنه لم

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «شرح العقيدة الأصفهانية»: (١٣٧ـ ١٣٨).

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٧/ ٢٢٣).

(٣) رواه مسلم: (١/ ٨٨ رقم ١٣٥) كتاب الإيمان، باب بيان اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الاقتضاء»: (١/ ٧٠).

يحصل على الحد الأدنى من الإسلام)[١].

وقد رد شيخ الإسلام هذه الشبهة بما ملخصه:

إن الحقيقة الجامعة لأمور ـ سواء كانت في الأعيان أو الأعراض ـ إذا زال بعض تلك الأمور، فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم في زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، سواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك. وما مثل به المبتدعة من العشرة مطابق لهذا، فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، فإذا زال أحد جزئي المركب، فلا يلزم زوال الجزء الآخر. ولكن أكثر ما يقولون: أنه قد زالت الهيئة الاجتماعية، وزال الاسم الذي استحقته الهيئة لذلك الاجتماع والتركيب، فالمركبات على قسمين:

القسم الأول: ما يكون التركيب شرطاً لإطلاق الاسم.

القسم الثاني: ما لا يكون التركيب شرطاً لإطلاق الاسم.

فالقسم الأول مثل العشرة، فإن الواحد المكمل لعدد عشرة شرط في إطلاق اسم العشرة على هذه الأعداد.

ومثال القسم الثاني: البحر والنهر؛ فإن التركيب ليس شرطاً في إطلاق الاسم، ولذلك لو نقص جزء من البحر لا يزول الاسم بل هو باق.

ومعظم المركبات من هذا النوع (ومعلوم أن اسم الإيمان من هذا الباب؛ فإن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة. أعلاها: قول لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» ثم من المعلوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها، لم يزل اسم الإيمان)[٢].

---

(١) ينظر في ذكر استدلالهم بهذا: محمد سرور بن نايف زين العابدين: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (١٦٢).

(٢) ينظر «الفتاوى»: (٧/ ٥١٤ ـ ٥١٧).

ولكن قد يزول اسم الإسلام بزوال جزء أساسي تزول به حقيقة الإيمان، كما إذا زالت الشهادتان، وتركت الصلاة على الراجح من أقوال العلماء. فإذا زال اسم الإسلام زال وصف الإيمان. مع أن اعتبار جزء من الأجزاء يزول به حقيقة الإيمان، يختلف باختلاف الأحوال، فليس (للإيمان حقيقة واحدة مثل حقيقة مسمى مسلم في حق جميع المكلفين في جميع الأزمان بهذا الاعتبار، مثل حقيقة السواد والبياض، بل الإيمان والكفر يختلف باختلاف المكلف، وبلوغ التكليف له وبزوال الخطاب الذي به التكليف ونحو ذلك)[1].

❑ ❑ ❑

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «المصدر السابق»: (٧/ ٥١٨).

## المطلب السابع
## الجهل بمراتب الأحكام

يظهر لكل من نال قدراً من الفقه بهذا الدين، أن الله عز وجل جعل أحكاماً لأفعال العباد، تتدرج هذه الأحكام وتتنوع، فمنها ما هو طلب للفعل المسمى بـ (المأمورات)، ومنها ما هو طلب للترك، وذلك المسمى بـ (المنهيات) ومنها ما المكلف مخير فيه بين الفعل والترك، وهي: (المباحات).

وهذه الأحكام وإن كانت مراتب، فكل واحدة منها في ذاتها مراتب متفاوتة، فإن فعل المأمورات وترك المنهيات بينهما تفاضل، إذ إن (جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهي عنه، وإن جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهي عنه، وإن مثوبة بني آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات، وإن عقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات)[(١)]. وإني ذاكر ـ بحول الله تعالى ـ هاتين المرتبتين؛ لأبين أوجه التفاوت في مراتبهما:

ـ **أولاً المأمورات**:

إن طلب الشارع الفعل إما أن يكون على وجه الحتم والإلزام، فذلك الواجب وقد عرفه الأصوليون بأنه (عبارة عن خطاب الشارع بما ينتهض تركه سبباً للذم شرعاً في حالة ما)[(٢)].

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوىٰ»: (٢٠/ ٨٥).

(٢) الآمدي: «الإحكام في أصول الأحكام»: (١/ ٩٨)، والغزالي: «المستصفى»: (٥٣).

وإما أن يكون على غير سبيل الحتم والإلزام، فذلك المندوب، وقد عُرف بأنه (المأمور به الذي لا يلحق الذم بتركه من حيث هو تركٌ له من غير حاجة إلى بدل)[١].

والتفاوت بين مرتبتي الواجب والمندوب غير خاف على من قرأ تعريفهما، فالواجب لا خيار للمرء في تركه، والمندوب للمرء تركه، ولكنه يفوِّت على نفسه أجراً عظيماً.

وعند التأمل في النوع الأول وهو الواجب نجد تفاوتاً فيه باعتبارات عدة منها:

**الاعتبار الأول: باعتبار وقت الأداء:**

إذ ينقسم الواجب بهذا الاعتبار قسمين:

**القسم الأول: الواجب الموسع**، وهو ما يكون وقت الوجوب فيه فاضلاً عن الواجب. مثال ذلك: صلاة الظهر، إذ يسع وقتها صلاة الظهر، ويسع معها غيرها من الأفعال. فهو فاضل عن وقت أداء الفعل[٢].

**القسم الثاني: الواجب المضيق**، وهو ما يكون وقته المحدد له لا يسع غيره من جنسه، وذلك مثل صيام رمضان، فإن وقت الشهر لا يسع إلا الصيام المفروض[٣].

---

(١) الغزالي: «المستصفى»: (٥٣).

(٢) ينظر الآمدي: «الإحكام»: (١/ ١٠٥)، والغزالي: «المستصفى»: (١/ ٦٩)، والسبكي: «الإبهاج في شرح المنهاج»: (١/ ٩٣).

(٣) ينظر الغزالي: «المستصفى»: (١/ ٦٩)، والأنصاري: «فواتح الرحموت»: (١/ ٦٩)، والسبكي: «الإبهاج في شرح المنهاج»: (١/ ٩٣)، وزكي شعبان: «أصول الفقه»: (١٩٢).

**الاعتبار الثاني: باعتبار المكلف بأداء الفعل:**

وينقسم بهذا الاعتبار قسمين:

**القسم الأول: الواجب العيني**، وهو الواجب الذي يؤمر به أعيان المكلفين، فكل فرد من الناس مأمور به، وذلك مثل الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج[١].

**القسم الثاني: الواجب الكفائي**، وهو الواجب الذي يؤمر به المكلفون لا بأعيانهم، فمتى ما فعله من يكفي سقط الوجوب عن الآخرين، وذلك مثل الجهاد في سبيل الله[٢].

**الاعتبار الثالث: باعتبار درجة الوجوب، ومنزلة الفعل الواجب:**

إذ من الواجبات: أركان الإسلام التي يقوم الدين عليها، وهي أول الواجبات وأساس فرائض الدين، وما عداها يأتي بعدها، بل أركان الإيمان أنفسها متفاضلة، فأول واجب، وأعظم واجب هو الشهادتان، ثم الصلاة التي هي عمود الدين، وهي العهد بين المسلم والكافر.

ثم تتدرج بعد ذلك الواجبات، فليست الواجبات كلها في درجة واحدة من الوجوب.

وملحظ آخر في رتب ترك المأمورات، وهو أن (المأمور به إذا تركه العبد، فإما أن يكون مؤمناً بوجوبه أو لا يكون، فإن كان مؤمناً بوجوبه، تاركاً لأدائه، فلم يترك الواجب كله، بل أدى بعضه، وهو الإيمان به، وترك بعضه وهو العمل به، وكذلك المحرم إذا فعله، فإما أن يكون مؤمناً بتحريمه أو لا يكون، فإن كان مؤمناً بتحريمه فاعلاً له، فقد جمع بين أداء واجب وفعل محرم، فصار له حسنة

---

(١) ينظر: السبكي: «الإبهاج»: (١/ ١٠٠).

(٢) ينظر المصدر نفسه.

وسيئة، والكلام إنما هو فيما لا يعذر بترك الإيمان بوجوبه، وتحريمه من الأمور المتواترة. وأما من لم يعتقد ذلك فيما فعله أو تركه بتأويل أو جهل يعذر به، فالكلام في تركه هذا الاعتقاد كالكلام فيما فعله أو تركه بتأويل أو جهل يعذر به)[١].

وأما المندوب فإنه أيضاً مراتب يمكن إجمالها في مرتبتين:

**المرتبة الأولى**: المندوبات المؤكدة، وهي ما واظب عليها النبي ﷺ، وأكد على فعلها تأكيداً بليغاً، وذلك مثل السنن والرواتب، وصلاة الوتر، وسنة الفجر، وصيام يوم عرفة.

**المرتبة الثانية**: مندوبات مستحبات، فعلها النبي ﷺ، وشرعها لأمته، ولكنه لم يعزم عليهم فيها، ولم يؤكدها كتأكيد القسم الأول، وذلك مثل صوم يوم الاثنين والخميس، والصدقة المطلقة على الفقراء والمساكين.

ومن أوجه تنوع المستحبات أيضاً: تنوعها باعتبار المكلفين، فإن كل شخص إنما يستحب له من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله ما يقدر عليه، ويفعله وينتفع به، فأكثر الناس يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً، إذ هم لا يقدرون على الأفضل، ولا يصبرون عليه إذا قدروا.

**ثانياً: المنهيات:**

والمنهيات على مرتبتين أيضاً، فالله عز وجل إما أن ينهى عن الفعل على سبيل الحتم والإلزام فذلك الحرام، وتعريفه عند الأصوليين: (هو ما ينتهض فعله سبباً للذم شرعاً بوجه ما من حيث هو فعل له)[٢].

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٢٠/ ٩٠ ـ ٩١).

(٢) الآمدي: «الإحكام»: (١/ ١١٣).

وإما أن ينهى عن الفعل لا على سبيل الحتم والإلزام، فذلك المكروه، وقد عرفه الأصولين بأنه: الذي أشعر بأن تركه خير من فعله وإن لم يكن عليه عقاب[١].

والحرام درجات في ذاته، إذ يختلف باعتبارات عدة منها: درجة التحريم فإن أعظم المحرمات الشرك بالله عز وجل، والشرك والكفر متفاوت المراتب فهو على نوعين:

**١ ـ كفر اعتقادي. ٢ ـ كفر عملي.**

ويعبر عنهما بالكفر الأصغر والكفر الأكبر، أو الشرك الأصغر والشرك الأكبر، أو غير ذلك من التعبيرات.

فالكفر الاعتقادي هو الموجب للخلود في النار، ويأتي في النصوص مقابلاً للإيمان: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٦].

والكفر العملي هو: الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود في النار. وهذا النوع يتناول جميع المعاصي؛ لأنها من خصال الكفر وشُعَبِه، وخصوصاً ما سمى من المعاصي في النصوص كفراً، من مثل قول النبي ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٢]. فإن الكفر هنا

---

(١) ينظر الغزالي: «المستصفى»: (٥٣).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٧/ ٨٤)، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، وفي (٨/ ٩١)، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ومسلم في «صحيحه»: (١/ ٨١، رقم ٦٤)، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، والترمذي في «سننه»: (٤/ ٣٥٣، رقم ١٩٨٣)، كتاب البر والصلة، باب (٥٢)، والنسائي في «سننه»: (٧/ ١٢١، رقم ٤١٠١ ـ ٤١١٠)، كتاب تحريم الدم، باب قتال المسلم، وأحمد في «مسنده»: (١/ ٣٨٥، ٤١١، ٤٣٣، ٤٥٤ ـ ٤٥٥) من حديث عبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهما ـ.

ليس مراداً به الكفر المخرج من الملة، بدليل قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٩]. فسماهم مؤمنين مع كونهم متقاتلين[١].

ثم بعد الكفر تأتي المحرمات. وقد قسمها العلماء على سبيل الإجمال إلى كبائر وصغائر، ودل بعض النصوص على هذا التقسيم من مثل قوله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ [سورة النجم، الآية: ٣٢]. وقد أجمع على ذلك السلف. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (والذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار)[٢].

وكل واحد من هذه المحرمات يتفاوت، فالكفر يتفاوت وبعضه أغلظ من بعض. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (اعلم أن الكفر بعضه أغلظ من بعض، فالكافر المكذب أعظم جرماً من الكافر غير المكذب، فإنه جمع بين ترك الإيمان المأمور به وبين التكذيب المنهي عنه. ومن كفر وكذَّب وحارب الله ورسوله والمؤمنين بيده أو لسانه، أعظم جرماً ممن اقتصر على مجرد الكفر والتكذيب، ومن كفر وقتل وزنى وسرق وصدَّ وحارب كان أعظم جرماً)[٣].

والمكروه أيضاً تتفاوت درجات كراهيته.

* * *

إنه لا يتأتى العلم بهذه المراتب إلا لمن آتاه العلم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد، بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب

---

(١) ينظر «البخاري مع شرحه الفتح»: (١/ ٨٥).

(٢) «مدارج السالكين»: (١/ ٣١٥).

(٣) «مجموع الفتاوى»: (٢٠/ ٨٧).

المنكر، حتى تقدم أهمها عند المزاحمة، فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر، وجنس الدليل وغير الدليل متيسر كثيراً. فأما مراتب المنكر ومراتب الدليل، بحيث تقدم عند التزاحم أعرف المعروفين فتدعو إليه، وتنكر أنكر المنكرين، وترجح أقوى الدليلين، فإنه خاصّة العلماء بهذا الدين)[١].

إن تحديد هذه المراتب ليس اعتباطاً، بل قصد الشارع ذلك لحكم بالغة ومقاصد جليلة، وهذا التحديد له آثار عظيمة، أذكر منها ما يلي:

**(١) أثره في الدعوة:**

إنه حين الدعوة إلى هذا الدين والأمر بالمعروف، تجب مراعاة هذه المراتب، فلا يطالب التارك لواجب عظيم أن يعمل مستحباً أو واجباً بدرجة أقل، فإذا كان تاركاً للصلاة، وجب أن يهتم في دعوته بهذا الأمر، ثم يتدرج بعد ذلك.

ويقال في النهي عن المنكر مثل هذا، فالمرتكب لجريمة عظيمة، وذنب يسير، ينهى عن الجريمة، ويوظف جهد الإنكار لتلك الجريمة.

إن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، يحتاج إلى هذا الفقه غاية الاحتياج، حتى يكون أمره ونهيه مثمراً تحقيق المصالح الشرعية. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر، بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعاً، أو يتركوهما جميعاً، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهو عن منكر، بل ينظر فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله، والسعي في زوال

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (٢/ ٦٢٢).

طاعته وطاعة رسوله ﷺ وزوال فعل الحسنات. وإن كان المنكر أغلب نهى عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعياً في معصية الله ورسوله)[١].

**(٢) أثره في الحكم على الناس:**

فللعلم بمراتب الأحكام أثر في الحكم على الناس، فالمنهيات مراتب، ومرتكب الحرام ليس كمرتكب المكروه؛ لتفاوت مرتبتي هذين الحكمين. والكافر ليس كالعاصي، لتفاوت ما بين حكم العمل الذي هو كفر والعمل الذي هو معصية. فقد دلت النصوص ـ مثلاً ـ على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار، وأنهم تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عذبهم حتى يمحصون. ومن تلك النصوص:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (فجعل ما دون ذلك الشرك معلقاً بمشيئته، ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب؛ فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره، كما قال سبحانه: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ فهنا عمم وأطلق، لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق)[٢].

٢ ـ قوله سبحانه في الحديث القدسي: «... ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة»[٣].

---

(١) «رسالة الحسبة»: (٧٧). (٢) «الإيمان الأوسط»: (٢٦ ـ ٢٧).

(٣) رواه مسلم: (٣/ ٢٠٦٨، رقم٢٦٨٧)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: (فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض وهو ملؤها أو ما يقاربها خطايا، لقيه الله بقرابها مغفرة. لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة)(١).

٣ـ حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس، فقال: «تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. فمن وفَّى منكم فأجره على الله. ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه»(٢).

قال الإمام محمد بن نصر المروزي ـ رحمه الله ـ: (ففي هذا الحديث دلالتان على أن السارق والزاني ومن ذكر في هذا الحديث، غير خارجين من الإيمان بأسره، إحداهما: قوله: فمن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب في الدنيا، فهو كفارة له، والحدود لا تكون كفارات إلا للمؤمنين، ألا ترى قوله: «من ستر الله عليه فأمره إلى الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه» فإذا غفر له أدخله الجنة، ولا يدخل الجنة من البالغين المكلفين إلا مؤمن.

وقوله ﷺ: «إن شاء غفر له وإن شاء عذبه» هذا نظير قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٨] . . . وأن يغفر ما دون ذلك الشرك لمن يشاء ممن مات

---

(١) «جامع العلوم والحكم»: (٣٧٤).

(٢) رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» منها: (١/ ١٠)، كتاب الإيمان، باب ١١، و(٨/ ١٢٥، ١٧٠٩)، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء، ومسلم واللفظ له: (٢/ ١٣٣٣)، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها.

وهو غير تائب، ولا جائز أن يغفر له، ويدخله الجنة إلا وهو مؤمن)[١].

وبهذا فإن مرتكب الكبيرة لا يكفر، بل هو باق على أصل الإيمان، وإن كان غير مستحق لاسم الإيمان الكامل. قال الإمام ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ: (إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج؛ إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة، لكان مرتداً يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجرى الحدود في الزنى والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين)[٢].

**(٣) أثره في عمل الإنسان ذاته:**

فيقدم الإنسان فرض العين على فرض الكفاية، والواجب على المستحب، والأوجب على الواجب، ولهذا وجب البر بالوالدين وطاعتهما، ويقدم هذا على الواجب الكفائي كالجهاد، فلا يجوز للابن الجهاد بغير إذن والديه.

كما يقدم الواجب العيني المتعلق بمصالح الأمة العامة على الواجب العيني المتعلق بالحقوق الخاصة.

كما تقدم الواجباتُ على النوافل، فيجب على المرء أن يقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نوافل العبادات، والأذكار والأوراد ونحوها.

* * *

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة»: (٢/ ٦١٦ ـ ٦١٧).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية»: (٢/ ٤٤٢).

وفي الحياة المعاصرة، يتضح أثر الجهل بمراتب الأحكام على وقوع بعض الغلاة في الغلو، وسأضرب مثالين لذلك أحدهما: في الغلو الذاتي، والآخر: في الغلو فيما يتعلق بالناس.

* **المثال الأول:**

يوجه بعض المعاصرين إلى واجبات يومية، يُلْزِمُ الداعية الأخذ بها، فيقول: (. . . ٦ ـ أن يضع في حسابه الاشتغال بأوراد الذكر، من استغفار إلى صلاة على الرسول ﷺ، إلى توحيد، إلى غير ذلك من الأذكار المطلقة، وليحاول أن يذكر كلاً منها سبعين ألفاً)[1].

وفوق أن هذا التحديد لم يؤثر عن الرسول ﷺ، ولا عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فهو تحديد مبتدع، فإن الاشتغال بجنس الذكر عن واجبات هي ألزم من مثل: الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، اشتغال بأعمال مندوبة ـ إن لم تكن على مثل هذه الصيغة المبتدعة ـ عن واجب. ووقت الداعية إلى الله، لا يكفي للقيام بالواجبات والمندوبات، حتى يشغل بأذكار مبتدعة الأصل، أو أذكار شرعية بتحديد عددي مبتدع، وليُقس على ذلك كل اشتغال لمن وقع في الغلو بعبادات فردية، أو إثقال على النفس وتشديد عليها، فيضيع ما هو أوجب عليه، ولذلك فإن من أسرار وحكم النهي عن الغلو: كونه يضيع على العبد حقوقاً أخرى. ولو كان عند الواقع في الغلو بهذا السبب علم بمراتب الأحكام لما وقع في الغلو.

عن أبي جحيفة عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو

(١) سعيد حوى: «تربيتنا الروحية»: (١٢٥).

الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له. فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[١].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (وفيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل وتفويت الحقوق المطلوبة، الواجبة أو المندوبة، الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور)[٢].

وبيِّنٌ من قول سلمان لأبي الدرداء ـ رضي الله عنهما ـ أن سلمان يلفت نظره إلى الحقوق الأخرى ومراتب الأعمال، وأنه لا يصح الاشتغال بذلك المندوب، وتفويت حق واجب أو مندوب راجح.

❊ **المثال الثاني:**

يحاسِب بعض المعاصرين الناس على أعمالهم على قدم المساواة، فالفعل المندوب كالواجب، والواجب اللازم كالواجب الألزم، والمحرمات كلها سواء، فهي مؤدية للكفر بكل حال، ويصير بهذه المساواة إلى تكفير كل عاص. يقول ماهر بكري: (إن كلمة عاصي هي اسمٌ من أسماء الكافر، وتساوي كلمة كافر تماماً)[٣].

---

(١) رواه البخاري: (٢/ ٢٤٣)، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، والترمذي: (٤/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩، رقم ٢٤١٣)، كتاب الزهد، باب ٦٤، وقال: «هذا حديث صحيح».

(٢) «فتح الباري»: (٤/ ٢١٢).

(٣) «الهجرة»: (٧٢).

ومن كلام شكري مصطفى، قوله بعد أن سرد مجموعة من أعمال الناس ووظائفهم في الحياة العامة: (كل ذلك ... إنما هو سلطان الطاغوت ودائرة اختصاصه، ومواد ألوهيته، والداخلون في نظامه هم عبيده وسدنة محرابه، وإنه لا شيء مما ذكرنا ـ ولا قشةً ترفع في الطرق بأمر البلدية ـ في بلد الطاغوت، إلا وهي داخلة في إلاهيته)[١].

فانظر كيف سوى بين الأعمال، وجعل ذلك طريقاً لتكفير العاملين، وأنهم بعملهم يؤلهون السلطان.

❑ ❑ ❑

---

(١) «كتاب الخلافة»: (٦/ ١٣).

## المطلب الثامن

## الجهل بمراتب الناس

لقد اختلف الناس في موقفهم من دعوة سيد المرسلين ﷺ فكانوا فرقاً شتى، وفي كل فرقة تفاوت الناس في مقدار التصديق أو مقدار التكذيب.

فانقسم الناس في الجملة إلى:

١ - مؤمن.

٢ - ومنافق.

٣ - وكافر.

وفي كل فرقة تتفاوت مراتب الناس باعتبارات مختلفة. يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - مبيناً بعضها: (إن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار. وإن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون. وإن المنافقين أيضاً صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من النفاق)(١).

ولو ذهبت أتتبع طبقات المكلفين، ومراتب كل طبقة وأحوالها لطال الأمر، ولكنني أقتصر من ذلك على بيان مرتبتين:

١ - مرتبة الفسق (الفسّاق).

٢ - مرتبة النفاق (المنافقين).

ذلك أن جهل أهل الغلو بأحكام أصحاب هاتين المرتبتين، أفضى بهم إلى ألوان من الغلو خاصة في التكفير.

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (١/ ٩٨).

* **أولاً: النفاق أو (المنافقون):**

النفاق في اللغة: قال ابن فارس: (النون والفاء والقاف، أصلان صحيحان، يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه . . . ومنه اشتقاق النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر)[١].

إنه عند ظهور الإسلام وعلو كلمته، ينشأ فريق من الناس، يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وهؤلاء هم الذين عرفوا (بالمنافقين) وإن كان يجري عليهم في الدنيا اسم المسلمين في الظاهر كما تجري عليهم أحكام المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (وقد اتفق العلماء على أن اسم المسلمين في الظاهر يجري على المنافقين؛ لأنهم استسلموا ظاهراً، وأتوا بما أتوا به من الأعمال الظاهرة، بالصلاة الظاهرة، والزكاة الظاهرة، والحج الظاهر، والجهاد الظاهر، كما كان النبي ﷺ يجري عليهم أحكام الإسلام الظاهر. واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الإيمان فهو كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٥].)[٢].

وقال ـ رحمه الله ـ: (الناس ينقسمون في الحقيقة إلى مؤمن، ومنافق كافر في الباطن، مع كونه مسلماً في الظاهر، وإلى كافر باطناً وظاهراً)[٣].

(فهذا أصل ينبغي معرفته، فإنه مهم في هذا الباب، فإن كثيراً ممن تكلم في (مسائل الإيمان والكفر) لتكفير أهل الأهواء، لم يلحظوا هذا الباب، ولم يميزوا بين الحكم الظاهر والباطن، مع أن الفرق بين هذا وهذا ثابت بالنصوص

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٥/ ٤٥٤، ٤٥٥)، باب النون والفاء وما يثلثهما مادة: (نفق) ونحوه عند ابن منظور في «لسان العرب»: (٣/ ٦٩٣ ـ ٦٩٤)، مادة (نفق).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (٧/ ٣٥١).

(٣) «المصدر نفسه»: (٧/ ٤٧١).

المتواترة، والإجماع المعلوم بل هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام)[١].

وعليه فإنه يحكم على رجل بالإسلام الظاهر، مع أنه قد يكون في الباطن منافقاً زنديقاً، يظهر خلاف ما يبطن، فليس للمسلم إلا الحكم بالظواهر. قال ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله»[٢].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (وفيه أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين، أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك)[٣].

وقال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (إن أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصاً، وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عموماً أيضاً، فإن سيد البشر ﷺ مع إعلامه بالوحي يُجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه. لا يقال: إنما كان ذلك من قبيل ما قال: «لا يتحدث الناس: أن محمداً يقتل أصحابه»[٤].

---

(١) «المصدر نفسه»: (٧/ ٤٧٢).

(٢) رواه البخاري واللفظ له: (١/ ١٠٢)، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، وأبو داود: (٣/ ١٠٢، رقم ٢٦٤١)، كتاب الجهاد، باب على ما يقاتل المشركون. والترمذي: (٥/ ٤ ـ ٥، رقم ٢٦٠٨)، كتاب الإيمان، باب ٢، والنسائي: (٧/ ٧٦، رقم ٣٩٦٤ ـ ٣٩٦٦)، كتاب تحريم الدم، و(٨/ ١٠٩، رقم ٥٠٠٠)، كتاب الإيمان وشرائعه، باب على ما يقاتل الناس، وأحمد في «مسنده»: (٣/ ١٩٩، ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، كلهم من حديث أنس.

(٣) «الفتح»: (١/ ٤٩٧)، وينظر ابن أبي العز: «شرح العقيدة الطحاوية»: (٢/ ٥٣٩).

(٤) جزء من حديث رواه البخاري بمعناه: (٦/ ٦٦)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم يستغفر لهم لن يغفر الله لهم . . .﴾.

فالعلة أمر آخر لا ما زعمت. فإذا عدم ما علل به فلا حرج، لأنا نقول: هذا من أول الدليل على ما تقرر؛ لأن فتح هذا الباب يؤدي إلى أن لا يحفظ ترتيب الظواهر، فإن من وجب عليه القتل بسبب ظاهر، فالعذر منه ظاهر واضح، ومن طلب قتله بغير سبب ظاهر، بل بمجرد أمر غيبي، ربما شوش الخواطر وران على الظواهر. وقد فُهِمَ من الشرع سد هذا الباب جملة، ألا ترى إلى باب الدعاوى المستند إلى أن «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»[١]، ولم يستثن من ذلك أحد، حتى إن رسول الله ﷺ احتاج إلى البينة في بعض ما أنكر فيه مما كان اشتراه، فقال: من يشهد لي؟ حتى شهد له خزيمة بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ فجعلها الله شهادتين. فما ظنك بآحاد الأمة، فلو ادعى أكذب الناس على أصلح الناس، لكانت البينة على المدعي، واليمين على من أنكر، وهذا من ذلك، والنمط واحد. فالاعتبارات الغيبية مهملة، بحسب الأوامر والنواهي الشرعية)[٢].

فإن قيل: إن في ذلك ضرباً من التناقض، فكيف يسمون مسلمين مع أنهم ليسوا بمسلمين في الحقيقة؟ وكيف يسمى المنافقون أصحاباً للرسول ﷺ، وهم ليسوا بأصحاب له على الحقيقة؟

قيل: إن ذلك مبني على قاعدة هي: أن الاسم الواحد يُنفى ويُثبت بحسب الأحكام المتعلقة به، فلا يجب إذا أثبت اسم أو نفي في حكم أن يكون

---

(١) ورد بمعنى هذه الجملة أحاديث منها: ما رواه البخاري: (٣/ ١٥٩)، بلفظ: «أن النبي ﷺ قضى باليمين على المدعى عليه، كتاب الشهادات، باب اليمين على المدعى عليه في الأموال والحدود، ومسلم باللفظ نفسه: (٢/ ١٣٣٦، رقم ١٧١١)، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، وهكذا أبو داود: (٤/ ٤٠، رقم ٣٦١٩)، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه.

(٢) «الموافقات»: (٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

كذلك في سائر الأحكام. مثال ذلك: الأمر الذي نحن بصدده: المنافقون، فإن الله عز وجل جعلهم في القرآن من المؤمنين في مواضع، وجعلهم في مواضع أخرى ليسوا من المؤمنين. فمن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان: ١٨، ١٩].

فقد جعل هؤلاء المنافقين من المؤمنين، بل وصفهم الله عز وجل بأنهم (إخوان المؤمنين) فقال (لإخوانهم) مع أنهم الخائفون من العدو، الناكلون عن الجهاد، الناهون لغيرهم عنه، الذامون للمؤمنين.

وفي آية أخرى قال: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون﴾ [سورة التوبة، الآيتان: ٥٦، ٥٧].

فهنا مع أن ذنوبهم أخف من الذنوب المذكورة في الآية السابقة، إلا أن الله نفى أن يكونوا من المؤمنين، ورد دعواهم بذلك فقال: ﴿وما هم منكم﴾.

فكونهم منهم في الآية الأولى، هو إخبار بظاهر الأمر، وكونهم ليسوا منهم في الآية الثانية، هو إخبار بالباطن. ولذلك ورد الرد فيه على الحلف، والحلف إنما هو لتأكيد الأمر الباطن.

ومن ذلك: نسبة المنافقين إلى أنهم أصحاب للنبي ﷺ في مثل قوله ﷺ، لما استؤذن في قتل بعض المنافقين:

«لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

فإنهم من أصحابه في الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور. وأما في حقائق الأمور، فإن هؤلاء ليسوا من أصحابه، فأصحابه ليس فيهم نفاق، بل هم الذين علَّموا سنته للناس، وبلغوها إليهم، وقاتلوا المرتدين بعد موته، والذين بايعوا تحت الشجرة، وأهل بدر وغيرهم[١].

ومما يشهد لذلك أيضاً: قول الله عز وجل: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ [سورة الحديد، الآيات: ١٣ ـ ١٥].

فإن المنافقين كانوا مع المؤمنين في الدنيا يعملون أعمالهم، فأرادوا أن يبقى ذلك في الآخرة، وسألوا المؤمنين ألم نكن معكم؟ قالوا: بلى. فأنتم مع المؤمنين في الظاهر، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله، وظهرت حقائق الأمور، فتبين أنكم من الكافرين.

فالإيمان إذاً إذا علقت به الأحكام الدنيوية من الحقوق والحدود كحقن الدم والمال والمواريث والعقوبات الدنيوية، علقت بظاهره. لا يمكن غير ذلك؛ إذ تعليق تلك الأحكام بالباطن متعذر.

وإن قدر أحياناً ـ كما في زمن الوحي ـ فهو في الأصل متعسر علماً وقدرة. وأما إذا علقت الأحكام الأخروية بالإيمان، فالمراد به الباطن، وعليه فإن المنافق معصوم الدم والمال، ثم هو في الآخرة أنزل درجة من الكافرين في النار

---

(١) ينظر شيخ الإسلام «مجموع الفتاوى»: (٧/ ٤١٨ ـ ٤٢٣).

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٥][١].

* * *

إن التعامل الرشيد مع هؤلاء المنافقين قائم على الظواهر؛ لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا، لا يستلزم الإيمان في الباطن، الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة. فعندما قال الله عز وجل: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٢]، فالمراد مؤمنة في الظاهر.

والنبي ﷺ عامل المنافقين معاملة المسلمين، فورثهم وورَّث منهم، وإن علم في الباطن ـ بإعلام الله له ـ أنهم منافقون. ولم يستحل ﷺ من أموالهم ودمائهم ما استحل من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون[٢].

وبهذا تزول الشبهة في هذا الباب، فإن كثيراً من الناس؛ بل أكثرهم في كثير من الأمصار، لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس، ولا هم تاركوها بالجملة، بل يصلون أحياناً، ويدعون أحياناً، فهؤلاء فيهم إيمان ونفاق، ويجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة في المواريث ونحوها من الأحكام، فإن هذه الأحكام إذا جرت على المنافق المحض كابن أبيّ وأمثاله من المنافقين، فلأن تجري على هؤلاء أولى وأحرى.

ولقد كان في المنافقين من يعلمه الناس بعلامات ودلالات ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ [سورة محمد، الآية: ٣٠]، بل في المنافقين قوم لم يُشك قط في نفاقهم، مثل من نزل بيان نفاقه مثل: عبد الله بن أبيّ بن سلول. ومع هذا لما مات هؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون. وكان إذا مات لهم ميت آتوهم ميراثه. وكانت تعصم دماؤهم حتى تقوم البينة الشرعية على أحدهم بما يوجب عقوبته،

---

(١) ينظر في ذلك «الفتاوى»: (٧/٤١٨ ـ ٤٢٣).

(٢) ينظر في هذا الموضوع: شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإيمان»: (١٩٧ ـ ٢٠٦).

فإن قامت تلك البينة وقعت العقوبة[١]. ولكن المعلوم من سيرة النبي ﷺ أن المنافقين حين توعدوا بالقتل إذا أظهروا النفاق كتموه[٢].

(وبالجملة فأصل هذه المسّائل: أن تعلم أن الكفر نوعان: كفر ظاهر، وكفر نفاق. فإذا تكلم في أحكام الآخرة كان حكم المنافق حكم الكفار، وأما في أحكام الدنيا فقد تجري على المنافق أحكام المسلمين)[٣].

وهنا لا بد من التنبه إلى أن النفاق كالكفر (نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر. كما يقال: الشرك شركان: أصغر وأكبر)[٤].

*** ثانياً: الفسق أو (الفساق):**

معنى الفسق في اللغة: قال ابن فارس: (الفاء والسين والقاف: كلمةٌ واحدةٌ وهي: الفسق، وهو الخروج عن الطاعة)[٥].

والمراد بالفسق هنا: العصيان ومخالفة أمر الله عز وجل بما لا يصل إلى الكفر والمروق من الدين.

لقد أمر الله عز وجل بأوامرهي من شعب الإيمان، ونهى عن أمور هي من شعب الكفر. وليس كل من ترك شعبة من شعب الإيمان زال إيمانه، و (ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمناً، حتى

---

(١) ينظر ابن تيمية: «الإيمان الأوسط» «مجموع الفتاوى»: (٧/ ٦١٦ ـ ٦٢١).
(٢) ينظر ابن تيمية: «الإيمان»: (١٨٣).
(٣) ابن تيمية: «الإيمان الأوسط» «مجموع الفتاوى»: (٧/ ٦٢٠ ـ ٦٢١).
(٤) شيخ الإسلام: «مجموع الفتاوى»: (٧/ ٥٢٤).
(٥) «معجم مقاييس اللغة»: (٤/ ٥٠٣)، باب الفاء والسين وما يثلثهما، مادة: (فسق).

يقوم به أصل الإيمان وحقيقته)[١].

ففي الناس إذاً قوم تركوا شيئاً من شعب الإيمان، أو فعلوا شيئاً من شعب الكفر (الكبائر) ومعهم من الإيمان ما يمنع خلودهم في النار، فليسوا من المنافقين أو المرتدين، وليسوا من المؤمنين حقاً. فصاروا في مرتبة يمكن أن نسميها مرتبة الفسق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (وبتحقيق هذا المقام يزول الاشتباه في هذا الموضع، ويعلم أن في المسلمين قسماً ليس هو منافقاً محضاً في الدرك الأسفل من النار، وليس هو من المؤمنين الذين قيل فيهم: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٥]. ولا من الذين قيل فيهم: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤]، فلا هم منافقون، ولا هم من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقاً، ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب، بل له طاعات ومعاص، وحسنات وسيئات، ومعه من الإيمان ما لا يخلد معه في النار، وله من الكبائر ما يستوجب دخول النار. وهذا القسم يسميه بعض الناس: الفاسق الملي)[٢].

ولأهل السنة والجماعة منهج وسط في الفساق، يمكن تلخيصه فيما يلي:

١ ـ أن هؤلاء الفساق لا يخلدون في النار؛ لأن معهم إيماناً يخرجون به منها. ولا يكفرون بارتكابهم شيئاً من الكبائر ماداموا على أصل الإيمان.

قال الإمام الصابوني ـ رحمه الله ـ: (ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة صغائر وكبائر، فإنه لا يكفَّر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب

---

(١) شيخ الإسلام: «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٢٠٨).

(٢) «الإيمان الأوسط» «مجموع الفتاوى»: (٧/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).

منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله عز وجل إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة يوم القيامة سالماً غانماً غير مبتلىً بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عفا عنه وعذبه مدة بعذاب النار، وإن عذبه لم يخلد فيها بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار)[١].

وقال ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ: (إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة، لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج؛ إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة، لكان مرتداً يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنى والسرقة وشرب الخمر. وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلودمع الكافرين)[٢].

٢ـ أنه لا يطلق عليهم اسم الإيمان؛ لأن الإيمان المطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب، ودخول الجنة، وهؤلاء ليسوا من أهله، ولكن يدخلون في الخطاب بالإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكمله، فإنه خوطب ليفعل تمام الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا . . .﴾ [سورة النساء، الآية: ١٣٦]. ذلك أن اسم المؤمن ووصف الإيمان، يطلق على وجهين:

الأول: اسم بالخروج من ملل الكفر والدخول في الإسلام، وهو ما يعرف بالإيمان الواجب.

---

(١) «عقيدة أهل الحديث»: (٦٠).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية»: (٢/ ٤٤٢).

والثاني: اسم تزكية وثناء يلزم بكمال الإيمان، يدخل به المؤمن الجنة، وكل آية أو حديث ورد فيها الثناء على أهل الإيمان ووعدهم الجنة، فالمقصود به أهل هذه المرتبة[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: (من أتى بالإيمان الواجب استحق الثواب، ومن كان فيه شعبة نفاق، وأتى بالكبائر، فذاك من أهل الوعيد، وإيمانه ينفعه الله به، ويخرجه من النار، ولو أنه مثقال حبة خردل، لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب)[٢].

٣ـ أن هؤلاء يقال في الواحد منهم: إنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يعطى اسم الإيمان المطلق؛ فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق[٣].

٤ـ أن نفي الإيمان المطلق، لا يستلزم أن يكونوا منافقين، بل لا يكونوا قد أتوا بالإيمان الواجب. فنفي عنهم كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب عليه[٤]. كما في قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»[٥].

---

(١) ينظر المروزي: «تعظيم قدر الصلاة»: (٢/ ٥٦٧).

(٢) «الإيمان»: (٣٣٤).

(٣) ينظر شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإيمان»: (٢٢٧ـ ٢٢٩).

(٤) ينظر «المصدر نفسه»: (٢٣٠).

(٥) رواه البخاري: (١/ ٩)، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم: (١/ ٦٧ ـ ٦٨، رقم ٧١، ٧٢)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير. والنسائي واللفظ له: (٨/ ١١٥، ٥٠١٤)، كتاب الإيمان وشرائعه، و(٨/ ١٢٥، رقم ٥٠٣٦)، كتاب الإيمان وشرائعه. كلهم من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

وقوله ﷺ: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»[١].

(وكل أهل السنة متفقون على أنه قد سُلب كمال الإيمان الواجب، فزال بعض إيمانه الواجب، لكنه من أهل الوعيد)[٢].

(فالمرء قد يكون مسلماً يعبد الله كما أمره، ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه، ولكن لم يخلص إلى قلبه أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولا أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من جميع أهله وماله، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يخاف الله لا يخاف غيره، وأن لا يتوكل إلا على الله، وهذه كلها من الإيمان الواجب)[٣].

قال الشيخ حافظ الحكمي ـ رحمه الله ـ: (ولا منافاة بين تسمية العمل فسقاً أو عامله فاسقاً، وبين تسميته مسلماً وجريان أحكام المسلمين عليه؛ لأنه ليس كل فسق يكون كفراً، ولا كل ما سمى كفراً وظلماً يكون مخرجاً من الملة، حتى ينظر إلى لوازمه وملزوماته، وذلك لأن كلاً من الكفر والظلم والفسوق والنفاق جاءت في النصوص على قسمين:

أكبر يخرج من الملة؛ لمنافاته أصل الدين بالكلية.

وأصغر ينقص الإيمان، وينافي كماله ولا يخرج صاحبه منه.

فكفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسوق دون فسوق، ونفاق دون نفاق)[٤].

---

(١) رواه البخاري: (٧/ ٧٨)، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ومسلم بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»، حديث ٧٣، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار. وأحمد في مواضع من «مسنده» منها: (١/ ٣٨٧)، و(٢/ ٢٨٨، ٣٣٦).

(٢) شيخ الإسلام: «الإيمان»: (٢٤٤).

(٣) «المصدر السابق»: (٢٠٨).

(٤) «معارج القبول»: (٢/ ٣٤٣).

* * *

إن في كلام الغلاة المعاصرين ما يدل على عدم اعتبارهم لهذا التفاوت في مراتب الناس، فهم إما مؤمن أو كافر. ولا مجال للنظر في تقسيم غير هذا. فالعصاة الفاسقون كافرون ـ بزعمهم ـ وشواهد هذا كثيرة جداً في كلام الغلاة. ولكني أورد شيئاً منها: يقول شكري مصطفى: (إن لفظة الكفر ما جاءت في الشريعة إلا لتدل على عكس الإيمان وانتفائه، وهي تعبر عن حكم عام يشتمل على عدة أنواع منه، لكل نوع منها اسم علم خاص به كالفسق والظلم والخبث . . . فحينما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٧] فإن جميع الثلاثة كفر من حيث الحكم العام، مختلفين [كذا] من حيث أسماء الأعلام، ومداخل الكفر تماماً، كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات . . .﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٥] هي كلها أسماء أعلام مختلفة، تدل على حكم واحد ومعنى واحد، وهم المؤمنين [هكذا] ولكن اختلف اسم العلم باختلاف مدخل الإيمان والغالب على الإنسان)[1].

ويقول ماهر بكري: (إن كلمة عاصي هي اسم من أسماء الكافر، وتساوي كلمة كافر تماماً، ومرجع ذلك إلى قضية الأسماء، إنه ليس من دين الله أن يسمى المرء في آن واحد مسلماً وكافراً)[2].

إن هذا الكلام الذي ورد في سياق تكفيرهم للعصاة شاهد على مدى تأثير جهلهم بمراتب الناس.

---

(١) نقلاً عن محمد سرور زين العابدين: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (١٦١).

(٢) «كتاب الهجرة»: (٧٢).

## المطلب التاسع

## الجهل باللغة العربية

لقد أنزل الله عز وجل القرآن الكريم بلسان عربي مبين: هو لسان النبي الأمين دل على ذلك واقع الحال كما دلت عليه جملة من نصوص التنزيل منها:

* ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾ [سورة يوسف، الآية: ٢].
* ﴿ولقد نعلم إنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين﴾ [سورة النحل، الآية: ١٠٣].
* ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً﴾ [سورة طه، الآية: ١١٣].
* ﴿وإنَّه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ [سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٥].
* ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ [سورة الزمر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨].
* ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣].

وما أنزل الله القرآن بالعربية إلا (لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية المعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدى إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان فكمل من كل الوجوه)[١].

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٤/ ٦).

وبهذا أصبحت هذه اللغة المباركة من الدين وصار تعلمها، والتكلم بهاجزءاً من شعائر الإسلام.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: (إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية)[١].

فهذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن العجمية، فالقرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾ فدل ذلك على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي وبلسان العجم، فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة[٢].

وبحسب قدرة المرء على فهم اللغة يكون فهمه للشريعة فإنها إذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة.

قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (وبيان تعين هذا العلم ما تقدم في كتاب المقاصد من أن الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربيةحق الفهم، لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية فهو مبتدىء في فهم الشريعة، أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم

---

(١) «الاقتضاء»: (١/ ٤٧٠).

(٢) ينظر الشاطبي: «الموافقات»: (٢/ ٦٤).

فقد نقص من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة، ولا كان قوله فيها مقبولاً)[١].

ولا يفهم لسان العرب إلا من جهة لغة العرب (فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب، كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم، لاختلاف الأوضاع والأساليب)[٢].

ولقد عدّ العلماء من شروط الاجتهاد العلم بالعربية فقال الغزالي في سياق شروط الاجتهاد: (والثاني: معرفة اللغة والنحو على وجه يتيسر له به فهم خطاب العرب . . . فعلم اللغة والنحو أعني القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعادتهم في الاستعمال إلى حد يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه، وعامه وخاصة، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه ومقيده، ونصه وفحواه، ولحنه ومفهومه، والتحقيق فيه أنه لا يشترط أن يبلغ درجة الخليل والمبرد، وأن يعرف جميع اللغة ويتعمق في النحو، بل القدر الذي يتعلق بالكتاب والسنة ويستولي به على مواقع الخطاب، ودرك حقائق المقاصد منه)[٣].

وكان سلف الأمة يحضون على تعلم العربية، كما يحضون على التفقه في السنة وتعلم الفرائض، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ قال: (أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي)[٤].

---

(١) «الموافقات»: (٤/ ١١٥).

(٢) الشاطبي: «الموافقات»: (٢/ ٦٦).

(٣) «المستصفى»: (٢/ ٣٥١ـ ٣٥٢) بتصرف يسير.

(٤) رواه ابن أبي شيبة: (١٠/ ٤٥٧، رقم ٩٩٦٣)، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في إعراب القرآن.

وقال ـ رضي الله عنه ـ أيضاً: «تعلموا اللحن والفرائض فإنها من دينكم»[١].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (وهذا الذي أمر به عمر ـ رضي الله عنه ـ من فقه العربية وفقه الشريعة، يجمع ما يحتاج إليه، لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله)[٢].

وقيل للحسن: أرأيت الرجل يتعلم العربية ليقيم بها لسانه، ويقيم بها منطقه؟ قال: (نعم فليتعلمها، فإنَّ الرجل يقرأ بالآية، فيعياه توجيهها فيهلك)، وقال: (أهلكتهم العجمة يتأولون القرآن على غير تأويله)[٣].

والعلم بالعربية يشمل جانبين:

**الأول**: العلم باللغة، ومعاني الألفاظ، ويؤخذ ذلك من كتب اللغة والمعاجم وكتب غريب القرآن والحديث ونحوها.

**الثاني**: العلم بالنحو، أي معرفة الأحكام التي للكلام من جهة إفراده ومن جهة التركيب[٤].

قال ابن جزي: (وأما اللغة فلا بد للمفسر من حفظ ما ورد في القرآن منها وهي غريب القرآن وهي من فنون التفسير، وقد صنف الناس في غريب القرآن تصانيف كثيرة . . . وأما النحو فلا بد للمفسر من معرفته فإن القرآن نزل بلسان العرب، فيحتاج إلى معرفة اللسان. والنحو ينقسم إلى قسمين:

---

(١) رواه ابن أبي شيبة: (١٠/ ٤٥٩، رقم ٩٩٧٥)، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في إعراب القرآن.

(٢) «الاقتضاء»: (١/ ٤٧١).

(٣) نقلاً عن الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ٣٠٤).

(٤) ينظر أبو حيان: «البحر المحيط»: (١/ ٥ـ ٦).

**أحدهما**: عوامل الإعراب، وهي أحكام الكلام المركب.

**والآخر**: التصريف، وهي أحكام الكلمات من قبل تركيبها)[١].

ومن ناحية فهم النصوص لا بد أن يعلم أن (للغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على معان نظرين:

**أحدهما**: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مطلقة، دالة على معانٍ مطلقة وهي الدلالة الأصلية.

**والثاني**: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة، وهي الدلالة التابعة)[٢].

(فالجهة الأولى هي التي يشترك فيها جميع الألسنة وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، ولا تختص بأمة دون أخرى . . . وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية، وذلك الإخبار فإن كان خبر يقتضي في هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار في الحال والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح والخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك)[٣].

وإذا قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب فإن معنى ذلك:

- أن القرآن نزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة.
- ونزل على لسان العرب في أساليب معانيها، فالعرب فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص[٤].

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٨).

(٢) الشاطبي: «الموافقات»: (٢/ ٦٦).

(٣) المرجع السابق: (٢/ ٦٦ ـ ٦٧).

(٤) المرجع السابق: (٢/ ٦٥).

وإذا كان العلم بالعربية بهذه المثابة من الدين فإن مؤدى ذلك أن (كل معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به، ومن ادّعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل)[١].

وهذا سر من أسرار وقوع أهل الغلو والبدع في غلوهم وابتداعهم، فقد تأولوا القرآن على غير تأويله بتخرصهم على الكلام في الشريعة مع الجهل باللغة العربية.

قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ في بيان مآخذ المبتدعة في الاستدلال: (ومنها تخرصهم على الكلام في القرآن والسنة العربيين مع العُرُو عن علم العربية الذي يفهم به عن الله ورسوله. فيفتأتون على الشريعة بما فهموا، ويدينون به، ويخالفون الراسخين في العلم، وإنما دخلوا في ذلك من جهة تحسين الظن بأنفسهم، واعتقادهم أنهم من أهل الاجتهاد والاستنباط وليسوا كذلك)[٢].

ولذلك كان دخول أقوام من غير أهل اللغة التي نزلت بها الأديان السابقة سبباً من أسباب انحراف الملل وتغيرها، فيحدث المولدون أبناء السبايا فيتكلمون في أمر لا يحسنون فهمه فيضلون ويضلون.

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: (إنما هلكت بنو إسرائيل حين حدث فيهم المولدون أتباع سبايا الأمم)[٣].

---

(١) المرجع السابق: (٣/ ٣٩١).

(٢) «الاعتصام»: (١/ ٣٠١).

(٣) رواه الدارقطني مرفوعاً من حديث عمر في إسناده الكلبي وهو ضعيف، وأخرجه البزار بإسناد آخر، قال فيه ابن القطان: هذا إسناد حسن، انظر «سنن الدراقطني»، الوصايا: (٤/ ١٤٦)، وانظر «التعليق المغني»، وقد رُوي موقوفاً عن بعض السلف.

وعن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: (ما زال أمر بني إسرائيل معتدلاً ليس فيه شيء حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم أبناء النساء التي سبت بنو إسرائيل من غيرهم فقالوا فيهم بالرأي فأضلوهم)(١).

وما انحراف الباطنية في تأويلاتهم إلا لونٌ من ألوان استنباط المعاني التي لا تجري على اللسان العربي فإنهم يزعمون أن الباطن هو المراد من كلام الشارع، كقولهم: الصيام، الإمساك عن كشف السر، والجنابة: مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق. وهذا باطل فإن (كون الباطن هو المراد من الخطاب . . . يشترط فيه شرطان: أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية.

**الثاني**: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

**أما الأول**: فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً؛ فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً . .

**وأما الثاني**: فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان له معارض صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء)(٢).

وإذن فالتفسير بالباطن إذا كان غير موافق للغة ولم يشهد له شاهد من نصوص الشريعة، أو كان له معارض فإن ذلك التفسير باطل.

---

(١) رواه الدارمي: (١/ ٥٠).

(٢) الشاطبي: «الموافقات»: (٣/ ٣٩٤).

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (ويمكن أن يكون من خفيّ هذا الباب مذهب الخوارج في زعمهم أن لا تحكيم، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٥٧، وسورة يوسف، الآيتان: ٤٠، ٦٧]، فإنه مبني على أن اللفظ ورد بصيغة العموم، فلا يلحقه تخصيص، فلذلك أعرضوا عن قول الله تعالى ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٥]، وقوله: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ [سورة المائدة، الآية: ٩٥]، وإلا فلو علموا تحقيقاً قاعدة العرب في أن العموم يراد به الخصوص، لم يسرعوا إلى الإنكار، ولقالوا في أنفسهم لعلّ هذا العام مخصوص فيتأولون)(١).

وفي العصر الحديث يعترف بعض من وقع في الغلو أن مما أوقعهم فيه جهلهم باللغة العربية إذ قال: (بعضنا لم يدرس اللغة العربية إلا في المدارس الرسمية، والذين درسوا «علمي» لا يذكرون من العربية وقواعدها وآدابها شيئاً. وهم داخل السجون يفتون وكل اعتمادهم على القرآن والسنة)(٢).

❑ ❑ ❑

(١) «الاعتصام»: (١/ ٣٠٣).

(٢) نقلاً عن د. نعمان السامرائي: «التكفير ـ جذوره، وأسبابه، ومبرراته»: (١٥).

## المطلب العاشر

## الجهل بالتاريخ

**تعريف التاريخ ومعناه :**

عرَّفَ الإمامُ السخاوي التاريخ بأنه: (التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاةٍ وصحة وعقل وبدنٍ ورحلةٍ وحجٍ وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة، وتجديد فرض، وخليفةٍ، ووزير، وغزوة وملحمة، وحرب، وفتح بلدٍ وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي أو دونها كبناء جامع، أو مدرسة، أو قنطرة، أو رصيف، أو نحوها مما يَعُمّ الانتفاع به مما هو شائعٌ مشاهد، أو خفي سماوي؛ كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضي؛ كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام.

والحاصل أنه فنٌّ يبحث عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عمّا كان في العالم)(١).

* **فائدة علم التاريخ وأهميته :**

لقد عُني علماء الأمة بعلم التاريخ، فصار له مكانة كبيرة في دروسهم ومؤلفاتهم، فكما ألفوا في الفقه والتفسير والحديث ألفوا في التاريخ.

(١) «الإعلان بالتوبيخ»: (١٨ ـ ١٩).

فمن المتقدمين ـ مثلاً ـ عنى الإمام الحافظ ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ بالتاريخ فألف كتابه: «تاريخ الأمم والملوك».

ومن المتأخرين ـ نسبياً ـ ألف الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ كتابه: «البداية والنهاية».

وبين هؤلاء وبعدهم مؤلفات كثيرة في التاريخ، ولم تكن هذه العناية بالتاريخ إلا لما علموه من الأهمية والفائدة لدراسته؛ إذ يزخر بالدروس والعبر والفوائد فمن ذلك:

**١ ـ الاتعاظ والاعتبار:**

إن في قصص السابقين عبرة وعظة، إذ هم بين محسن ومسيء، وفي إحسان المحسن وما وقع له من الثواب والذكر الحسن عظة.

وفي إساءة المسيء وما حلَّ به من المثلات والعقوبات عظة.

والله سبحانه يقول مبيناً ذلك: ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقومٍ يؤمنون﴾ [سورة يوسف، الآية: ١١١].

**٢ ـ تثبيت فؤاد اللاحق:**

ذلك أنه ما من داع إلى الله إلا وتقع له في طريقه عقبات وتواجهه صعوبات، وفي دراسة أحوال السابقين، وما جرى لهم في الدعوة إلى الله، وما كان لهم من حسن العاقبة تثبيتٌ لفؤاد اللاحق ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحقُّ وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [سورة هود، الآية: ١٢٠].

وتكون تلك التسلية وذلك التثبيت أقوى أثراً حين يبين للمبتلىٰ أن العاقبة له: ﴿ولقد كُذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم

نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٤].

**٣ـ الانتفاع بتجارب السابقين:**

إن التاريخ مليء بالأحداث الجسام التي تفيد الدارس لها فيكتسب مزيد عقلٍ وتفكير فيصير المرء سديد الرأي في المضايق يقول الإمام السخاوي في سياق ذكر فوائد علم التاريخ: (وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب مبادىء الدول وإقبالها ثم سبب انقراضها وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهها أبداً في العالم غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عَرَفه كمن عاش الدهر كله، وجرَّب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه فيَغْزُرُ عقله ويصير مجرباً غير غِرٍّ ولا غمر)(١).

وهذا الأمر هو الذي دفع ببعض المؤرخين وهو: أحمد بن محمد الرازي مسكويه إلى تأليف كتاب في التاريخ أسماه: «تجارب الأمم، وعواقب الهمم» قال فيه إنه لما تصفح أخبار الأمم وسير الملوك، وقرأ أخبار البلدان، وكتب التواريخ، وجد منها ما يستفاد منه تجربة في أمور لا يزال يتكرر مثلها، وينتظر حدوث أشكالها وأشباهها(٢).

(إنَّ بدء التجربة دائماً من نقطة الصفر دونما التفات إلى مردوداتها التاريخية يضيع على الجماعة جهداً أكبر ووقتاً طويلاً ما كان لها أن تضيعها لو التفتت إلى الماضي تستمد منه المواقف والإشارات)(٣).

---

(١) «الإعلان بالتوبيخ»: (٣٢ـ٣٣).

(٢) ينظر المرجع السابق: (٦٨).

(٣) عماد الدين خليل: «التفسير الإسلامي للتاريخ»: (٦).

٤ ـ تخليد ذكرى الأخيار:

إن كل زمان من أزمنة التاريخ يمتليء بالأخيار الذين يُقتدى بهم، وفي دراسة التاريخ تخليد لذكرى هؤلاء الأخيار ليقتدي بهم من أراد الله به خيراً من خلفهم.

وتخليدُ ذكرى هؤلاء الأخيار مِنةٌ إلٰهية على السابق واللاحق؛ ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٨٤]، فاستجاب الله دعاءه وخَلّد ذكره.

كما امتنَّ الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [سورة الشرح، الآية: ٤].

وعندما ذكر الله عز وجل جمعاً من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام قال: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٠].

والمتأمل في ظروف نشأة العلماء والقادة والمجاهدين والكرماء وذوي الأخلاق الحميدة يجد أن مما أثر فيهم الاقتداء بمن سبقهم.

٥ ـ التحذير من الفرق الضالة:

إن من فوائد التاريخ العلم بظهور الفرق الضالة المبتدعة وجذورها؛ وأسباب خروجها، ومجابهة أهل العلم لها وردهم على مبتدعيها، فكثيراً ما تُنْتِجُ ظروفٌ معينة فرقةً من فرق أهل الضلال، ثم تموت تلك الفرقة، وبعد حينٍ تحدث ظروف مماثلة أو مشابهة تنتج فرقةً أخرى.

ولو قرأ المتأخرون تاريخ الفرقة الأولى لكان ذلك مانعاً من موانع النشأة، وكابحاً من كوابح الظهور والانتشار وبالجملة فقد (أخذت تزداد إيضاحاً يوماً بعد يوم أهمية الدراسة التاريخية أو ضرورتها بالأحرى لمسيرة كل جماعة بشرية

تسعى إلى أن تقتبس الأضواء التي أشعلتها الوقائع الماضية لكي تنير لها الطريق الطويل الذي يتوجب عليها أن تقطعه، متجاوزة أكبر قدر ممكن من العقبات والعثرات والمنحنيات، ملتزمة ـ من جهة أخرى ـ أكبر قدر ممكن من الأساليب والنظم التي توصلها إلى أهدافها بجهود أقل وسرعة أكبر)[١].

* * *

إن الجهل بالتاريخ عند بعض المعاصرين كان سبباً في انحرافهم؛ إذ وقع قومٌ في أضرب من الغلو مماثلة لما وقع فيه الغلاة الأقدمون، وساروا في دروب قد رجع منها سابقوهم بخفي حنين.

ولقد علم بعض قادة الغلاة أن من شأن دراسة التاريخ أن يكشف عوار مذهبه وآرائه، وأن تظهر حقيقة أمره للناس، ولذلك كان لا يعتد بالتاريخ الإسلامي كله، ويمنع أتباعه من دراسته أو القراءة فيه.

يقول عبد الرحمن أبو الخير في بيان بعض أقوال شكري مصطفى التي خالفه فيها: (. . . ٤ ـ عدم الاعتداد بالتاريخ الإسلامي فقد كان شكري يعتبره وقائع غير ثابتة الصحة، وأن التاريخ عنده هو أحسن القصص الوارد في القرآن الكريم، ولذا يُحَرِّم دراسة عصور الخلافة الإسلامية، أو الاهتمام بها.

في حين كنت أرى أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ دار الإسلام كلها المتصلة الحلقات منذ هجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة، وحتى نجاح الغارة العالمية التي اشترك العرب والعَجَمُ ضد آخر الخلفاء السلطان عبد الحميد الثاني)[٢].

وما موقف شكري هذا الرافضُ للتاريخ الإسلامي وخصوصاً تاريخ عصر الخلافة الإسلامية إلا لما يخشاه من اطلاع أعضاء الجماعة التابعين له على ذلك

---

(١) عماد الدين خليل: «التفسير الإسلامي للتاريخ»: (٥ ـ ٦).

(٢) «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (٣٥ ـ ٣٦).

التاريخ الكاشف لزيف الخوارج والروافض وغيرهم من أهل الابتداع والغلو الذين يجمع بينه وبينهم آراء كثيرة واعتقادات، ومن شأن قراءة ذلك التاريخ أن يكشف ـ مثلاً ـ أن الخوارج كانوا يُكفِّرون بالمعصية، وأن الصحابة والتابعين قد رفضوا هذا، وبينوا أن المعصية غير مكفرة وردوا شبه الخوارج، وذلك سائق إلى رفض آراء شكري نفسه.

وقد كان الأتباع يجهلون أنهم يسيرون على درب الخوارج والمعتزلة يوضح ذلك هذا الحوار الذي جرى بين بعضهم وأحد الأساتذة الذين ناقشوهم.

يقول المحاور أنه قال لهم: (هذا الذي تقولون ليس جديداً لقد قاله الخوارج كله، وقال ببعضه المعتزلة، فدهش الشباب ونظر بعضهم إلى بعض، فكررت ذلك عليهم فردَّ أحدهم: مستحيل، هذه الأحكام وليدة الزنزانات، والفقه البعيد عن أي كتاب، إذ لم يكن مع الجميع كتاب واحد، حتى المصاحف كانت تصادر منا وما توصل إليه الشباب فهو اجتهاد يقوم على ما يحفظون من كتاب الله وسنة رسوله)[1].

ثم يقول لهم أيضاً: (ما تذكرونه تجدونه لدى الشهرستاني في «الملل والنحل»، والبغدادي في «الفَرْقِ بين الفِرَقِ»، والأشعري في «مقالات الإسلاميين»، وحتى في مقدمة ابن خلدون.

وأقول لكم: ـ بحدود ما أعلم ـ ليس هناك جديد فيما تذكرونه)[1].

قال: (فدهش الشباب دهشة كبيرة، واعترف بعضهم بأنه لم يَسْمَعْ بهذه الكتب، وقال آخر: إنه سمع ببعضها لكنه ما رآها)[1].

وجهلهم هذا بالتاريخ وخصوصاً تاريخ فرق أهل الضلال والغلو جعلهم يقعون في الغلو.

---

(١) نعمان السامرائي: «التكفير، جذوره ـ أسبابه ـ مبرراته»: (١٢).

## المبحث الثاني

# الأسباب المتعلقة بالمنهج العلمي

**وفيه ثمانية مطالب :**

المطلب الأول : الإعراض عن العلماء.

المطلب الثاني : التأويل والتحريف.

المطلب الثالث : اتباع المتشابه.

المطلب الرابع : عدم الجمع بين الأدلة.

المطلب الخامس : التعامل المباشر مع النص، والفهم الحرفي له.

المطلب السادس : الاجتهاد من غير أهليه.

المطلب السابع : الإغراق في الاهتمام بأحاديث الفتن.

المطلب الثامن : الاعتماد على الرؤى والأحلام.

## المطلب الأول

## الإعراض عن العلماء

- **من هم العلماء:**

العلماء هم: (فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعُنوا بضبط قواعد الحلال من الحرام)(١).

فهم العارفون بنصوص الوحيين، الفقهاء بها، العاملون بعلمهم على هدى وبصيرة.

وهم ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم العلم الذي حملوه في صدورهم.

ويُعرف هؤلاء العلماء بعلمهم؛ فالعلم هو الميزة التي تميزهم عن غيرهم فهم إن جهل الناس نطقوا بالعلم الموروث عن إمام المرسلين ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن له في الأمة لسانُ صدقٍ عام وشهدت له الأمة بالعلم فهو عالم وإذا ظهر علم إنسان بحيث يُثنىٰ عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمة فهؤلاء أئمة الهدى، ومصابيح الدجى)(٢).

- **مكانة العلماء في الشريعة:**

لقد اعتبرت الشريعة الإسلامية للعلماء منزلةً ليست لغيرهم من الناس، وجعلت لهم مقاماً رفيعاً، وأقامتهم أدلاء للناس على أحكام الله عز وجل.

وأدلة هذا الاعتبار للعلماء في الشريعة غير منحصرة فمنها:

---

(١) ابن القيم: «إعلام الموقعين»: (١/ ٩).

(٢) «الفتاوى»: (١١/ ٤٣).

١ ـ قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٩].

والعلماء داخلون تحت أُولي الأمر، فإن أُولي الأمر على الصحيح صنفان: العلماء والأمراء. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها عامةٌ في كل أُولي الأمر من الأمراء والعلماء)[١].

٢ ـ قول الله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٧].

فأمر الجاهل بسؤالهم لأنهم الوسيلة والطريق لتبين أحكام الله عز وجل.

٣ ـ أن العلماء هم نقلة العلم الشرعي؛ فهم ورثة الأنبياء يقول الرسول ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء وإنَّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٢].

(يعني أنهم ورثوا ما جاء به الأنبياء من العلم فهم خَلَفَوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله، والذود عن دينه)[٣].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٥١٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند»: (٥/ ١٩٦)، وأبو داود في «سننه»: (٤/ ٥٨، رقم ٣٦٤١)، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، والترمذي في «سننه»: (٥/ ٤٩، رقم ٢٦٨٢)، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، وقال: «ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل، هكذا حدثنا محمود بن خراش بهذا الإسناد. وإنما يُروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ، وهذا أصح من حديث محمود بن خداش، ورأي محمد بن إسماعيل هذا أصح»، وابن ماجه في «سننه»: (١/ ٨١، رقم ٢٣٣)، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، والدارمي في «سننه»: (١/ ٨٣، رقم ٣٤٩)، المقدمة، باب في فضل العلم والعالم.

(٣) ابن رجب: «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم»: (٤٦).

وأُوتوا قوة حفظ وفهم وفقهٍ في دين الله، وبَصَرٍ ففجروا من النصوص أنهار العلوم، وما خصوا بهذا الفهم إلا لأنهم صرفوا هممهم إلى العلم بكلام الشارع سبحانه وكلام رسوله ﷺ وأحواله، وبواطن أموره وظواهرها، فهم أعلم الأمة، وأخصها بعلم الرسول ﷺ، وعلم خاصته من الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة[١].

ومع أنَّ لهم هذا الاعتبار العظيم، والمكانة العالية فإن من المهم أن يعلم أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها، وإنما لما قام فيهم من العلم بالله، والعلم عن الله عز وجل فليس سؤالهم عن الحكم سؤالاً عن رأيهم الشخصي؛ بل سؤالاً عمّا يفهمونه عن الله عز وجل وعن رسول الله ﷺ.

يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (فعلى كل تقدير لا يُتَّبَعُ أحدٌ من العلماء إلا من حيث هو متوجهٌ نحو الشريعة قائم بحجتها، حاكمٌ بأحكامها جملة وتفصيلاً، وأنه متى وجد متوجهاً غير تلك الوجهة في جزئية من الجزئيات، أو فرع من الفروع لم يكن حاكماً، ولا استقام أن يكون مقتدىً به فيما حاد فيه عن صوب الشريعة ألبتة)[٢].

والطاعة المطلقة للعلماء هي التي ذم الله بها بني إسرائيل بقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣١]. فالحق بين طرفين:

* طرف لا يعتبر للعلماء منزلة.
* وطرف يطيعهم طاعة مطلقة.

---

(١) ينظر ابن تيمية: «الفتاوى»: (٤/ ٩١ـ٩٣).

(٢) «الاعتصام»: (٢/ ٨٦٠).

ولله در الإمام الشاطبي الذي جعل ميزاناً لذلك في خاتمة ما وجد من كتابه: «الاعتصام» فقال: (إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال، فالحقُّ أيضاً لا يُعرف دون وسائطهم، بل بهم يتوصل إليه وهم الأدلاء على طريقه)[١].

- **وجوب الأخذ عن العلماء:**

إنه إذا تقرر أن للعلماء منزلةً ومكانةً واعتباراً في الشريعة، فإنَّ من الواجب السعي إليهم، والأخذ عنهم، والصدور عن رأيهم، وذلك علامة خير ورشد قال سلمان ـ رضي الله عنه ـ: (لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يُعلم أو يتعلم الآخر فإن هلك الأول قبل أن يُعلم أو يتعلم الآخر هلك الناس)[٢].

وسنة التلقي عن أهل العلم سنةٌ ماضية حضَّ عليها الرسول ﷺ، ودرج عليها العلماء منذ العهد النبوي: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تسمعون ويُسْمَعُ منكم ويُسْمَعُ ممن يسمع منكم»[٣].

فبين ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن هذا العلم يؤخذ بالتلقي وكل جيلٍ من أهل العلم يُبَلِغُهُ لمن بعده. وأما الكتب فهي لا تغني عن أحد ما لم يكن ثمة حملة صادقون لها، إذ لو أغنت الكتب عن أحد لأغنت عن بني إسرائيل:

عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «خذوا العلم قبل أن يذهب» قالوا: وكيف يذهب العلم يا نبي الله، وفينا كتاب الله، قال: فغضب ـ لا يغضبه الله ـ، ثم قال:

---

(١) «الاعتصام»: (٢/ ٨٨٠).

(٢) رواه الدارمي: (١/ ٦٨، ٦٩، رقم ٢٤٥، ٢٥٥)، في المقدمة، بابٌ في ذهاب العلم.

(٣) رواه أحمد: (رقم٢٩٤٧)، وأبو داود: (٤/ ٦٨، رقم ٣٦٥٩)، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، وابن حبان: (رقم٦١)، والحاكم: (١/ ٩٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

«ثكلتكم أمهاتكم، أولم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل فلم يغنيا عنهم شيئاً، إنَّ ذهاب العلم أن يذهب حملته»(١).

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء» فقال زيادُ بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه، ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا. فقال رسول الله ﷺ: «ثكلتك أمك يا زيادُ، إن كنتُ لأعدُّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارىٰ فماذا تغني عنهم؟»(٢).

فذهاب العلم إذن ليس بذهاب الكتب، وإنما هو بذهاب العلماء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أتدرون ما ذهاب العلم»، قالوا: لا، قال: «ذهاب العلماء»(٣).

والتلقي عن الكتب فقط يفقد المتلقي أموراً عظيمة منها:

* الاقتداء بسلفه من أهل العلم فإنَّ أهلَ العلم لم يكن بعضهم يأخذ عن بعض العلم فقط بل كانوا يأخذون السمت والخلق، قال ابن سيرين

---

(١) رواه أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٦٦)، بمعناه، والدارمي في «سننه»، واللفظ له: (١/ ٦٨، رقم ٢٤٦)، المقدمة، باب في ذهاب العلم. وقال محقق «سنن الدارمي» عن هذا الحديث: «في إسناده الحجاج، وهو غير منسوب، فإن كان ابن أرطأة فهو ضعيف، وإن كان غيره فلينظر من هو؟ وقد رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفيه عندهما علي بن يزيد الألهاني، وقد ضعفه ابن حجر في تقريبه».

(٢) رواه الترمذي في «سننه»: (٥/ ٣١ ـ ٣٢، رقم ٢٦٥٣)، كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والدارمي في «سننه»: (١/ ٧٥)، المقدمة، باب من قال: العلم خشية وتقوى الله.

(٣) رواه الدارمي: (١/ ٦٨، رقم ٢٤٩)، المقدمة، بابٌ في ذهاب العلم.

ـ رحمه الله ـ: (كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم)[١].

* ومنها: الفهم السليم ذلك أن من تعلم من الكتب غالباً ما يفضي به ذلك إلى ضروبٍ من سوء الفهم، ولذلك قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: (من تفقه من بطون الكتب ضيَّع الأحكام)[٢].

وقيل لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: في مسجد كذا حلقةٌ يتناظرون في الفقه فقال: (ألهم رأس؟) قالوا: لا، قال: (لا يفقهون أبداً)[٣].

وقال بعض السلف: (من أعظم البلية تشيُّخ الصحيفة)[٤]، أي: الأخذ والتعلم من الصحف، أي: الأوراق.

* ومنها: الأدب وخصوصاً أدب التواضع فإنَّ من الملاحظ أن من أخذ عن الكتب فقط تعالىٰ على العلماء ورأى لنفسه من المنزلة ما ليس لهم.

• **كيف كان الإعراض عن العلماء من أسباب الغلو:**

لقد كان سببُ انحراف الخوارج الرئيس اعتدادهم بأهوائهم في مقابل النصوص، واعتدادهم بأنفسهم في مقابل أهل العلم؛ فكان أول خارجٍ ذو الخويصرة حيث اعترض على النبي ﷺ فقال له: (اعدل يا رسول الله)[٥].

ثم تتابع سير الخوارج على هذا النهج فكانوا يعترضون على أجلة العلماء صحابة النبي ﷺ ويرفضون أقوالهم بل ويتبرأون منهم ويُكفِّرونهم، ويستحلون دماءهم لما رأوا من مخالفتهم إياهم فيما يعتقدونه، وكذلك فعلوا مع التابعين،

---

(١) رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»: (١/ ٧٩).
(٢) رواه ابن جماعة: «تذكرة السامع»: (٨٧).
(٣) رواه ابن عبد البر: «جامع بيان العلم وفضله»: (١/ ١٣٩).
(٤) نقلاً عن ابن جماعة: «تذكرة السامع»: (٨٧).
(٥) سبق تخريجه ص (٢٤).

لقد دخل الخوارج قريةً فخرج عبد الله بن خباب ـ رحمه الله ـ ذعراً يجرُّ رداءه، فقالوا: لم ترع، قال (والله لقد رعتموني)، قالوا: أنت عبد الله بنُ خباب صاحب رسول الله ﷺ، قال: نعم، قالوا: فهل سمعت من أبيك حديثاً يحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه، قال: (نعم، سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنةً القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، قال: فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول) قال أيوب: ولا أعلمه إلا قال: ولا تكن عبد الله القاتل. قالوا: أأنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله ﷺ، قال: نعم، قال: فقدموه على ضفة النهر فضربوا عنقه فسال دمه كأنه شراك نعلٍ ما ابذقر(١)، وبقروا أم ولده عما في بطنها(٢).

* * *

وفي الحياة المعاصرة كان الإعراض عن العلماء والاعتداد بالذوات من أعظم انحراف من وقع في الغلو، وليس الإعراض عن العلماء ـ عندهم ـ مجرد ممارسة فقط بل يُنظَّر له، ويدلل عليه.

ففي كلام لشكري مصطفى عن الاجتهاد والتقليد يؤكد أن النَّاس سواءٌ في القدرة على الاجتهاد، وأن الفقهاء لا يحملون من العلم أكثر مما يحمله الناس الآخرون، وأن الفقيه له فهمه الخاص به، ولسنا بحاجة إليه، ثم يتبع ذلك بالرد على أهل السنة والجماعة في استدلالاتهم على وجوب الرجوع إلى أهل العلم فيناقش الاستدلال بأدلةٍ من مثل:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٧].

---

(١) في رواية من روايات الحديث قال: «ما ابذقر يعني: لم يتفرق»، رواها أحمد: (٥/ ١١٠).

(٢) رواه أحمد: (٥/ ١١٠).

٢ـ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٩].

٣ـ قوله سبحانه: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٣].

٤ـ قوله سبحانه: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نَفَر من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين وليُنْذِروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٢٢].

وهم بذلك يلزمون الناس كلهم بالاجتهاد وعدم الرجوع إلى أهل العلم بحسبان ذلك الرجوع تقليداً والتقليد في دين الله محرم[١].

ويعرض أقوام عن العلماء لما يرونه أو يزعمونه فيهم، أو في بعضهم من أخطاء أو انحرافات أو تقصير، وبعد هذا الاعتراض يعتاضون عن العلماء بأحد أمرين أو بهما جميعاً:

- الاجتهاد من غير أهله.

- أو العودة للكتب والأخذ عنها.

يقول أحد الأساتذة الذين حاوروا الشباب الواقعين في شيء من الغلو أثناء لقائه بهم: (الذي أخشاه أن فقد الثقة بالعلماء سيحملكم على أحد أمرين أو على الأمرين معاً: وهو الاجتهاد من غير استعدادٍ كافٍ، ومعرفة تؤهل لذلك، أو العودة للكتب والأخذ عنها دون الاستعانة بأحد، وفي الاثنين من المخاطر ما فيهما)[٢].

---

(١) ينظر في الاستدلال بهذه الآيات كلام شكري مصطفى: «الحجيات»: (١١ ـ ١٥). وينظر تفصيل كلامهم: في بحثي: «الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة»: (٣٦٧ ـ ٣٧٤).

(٢) د. نعمان السامرائي: «التكفير ـ جذوره ـ أسبابه ـ مبرراته»: (١٥).

فقال له أحد الشباب: (لقد وقعنا في الاثنين معاً، ففي السجن الاجتهاد، والذي خرج من السجن يقرأ في الكتب وبعضنا لم يدرس اللغة العربية إلا في المدارس الرسمية، والذين درسوا «علمي» لا يذكرون من العربية وقواعدها وآدابها شيئاً)[٣].

ولا يكتفي بعض من وقع في الغلو بالإعراض عن العلماء بل يزيدون ضغثاً إلى إباله فيتهمون العلماء بما ليس فيهم ويسيئون الأدب معهم.

ففي الكلام عن حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ والذي فيه قول الرسول ﷺ: «ما من عبدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»[١].

يقول شكري مصطفىٰ في رسالته: (إجمال تأويلاتهم، وإجمال الرد عليهم) عن الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: (لقد كذب على رسول الله ﷺ وعلى أبي ذر، وعلى الإسلام).

ثم قال: (النووي ضرب صفحاً عن الرواية الأخرى من حديث أبي ذر، وأهمل اشتراط أن يكون ذلـك ختام حياة الإنسان، وشطب اشتراط ألاَّ يشركوا بالله شيئاً حتى يَسْلَم له مذهبه الفاسد الممتلىء رغباً وكذباً وحقارة. إن الجمع الذي جمعه النووي جمعٌ بغير الحق، وجمع من يحطب بليل ولا يتقي الله فيما يجمع)[٣].

---

(١) المرجع ذاته.

(٢) رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» منها: (٢/ ٦٩)، كتاب الجنائز، باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، و(٨/ ١٩٦)، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة، ومسلم في «صحيحه»، واللفظ له: (١/ ٩٥، ح تابع ٩٤)، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار. والترمذي في «سننه»: (٥/ ٢٧، ح٢٦٤٤)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة.

(٣) نقلاً عن محمد سرور زين العابدين: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (٢٠٨).

وحقيقة الأمر أن النووي لم يحذف شيئاً من الروايات، ولكن كل ذنبه أنه يقرر مذهب السلف في تكفير العاصي، وأنه لا يكفر إلا بالشرك والمكفرات، وهم يرون ـ كالخوارج ـ كفر مرتكب الكبيرة.

ويقول شكري ـ أيضاً ـ عن الإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ: (... وإنما الخطابي يكذب كدأبه في الكذب. وكذا النووي الصوفي الكذاب كدأب إخوانه من المتصوفة الكذابين على الله ورسوله، أما الذي قاله الذي لا ينطق عن الهوى: «أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»[1]. ويقول الكذابون عليه: هذه الخصال توجد في المسلم المصدِّق الذي ليس فيه شك. نعوذ بالله أن نكون مثلهم أو قريباً منهم)[2].

فهذا موقفهم من العلماء، وهو الذي أرداهم، وجعلهم يصلون إلى ما وصلوا إليه من أنواع الانحراف.

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤٠).

(٢) نقلاً عن محمد سرور زين العابدين: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (٢٥٣).

## المطلب الثاني

## التأويل والتحريف

### التأويل في اللغة:

جاء في «الصحاح» للجوهري: (التأويل: تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أولته، وتأولته تأولاً بمعنى)(١).

وجاء في «معجم مقاييس اللغة»: (تأويل الكلام وهو عاقبته وما يؤول إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٥٣]، يقول: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم)(٢).

### التأويل في الاصطلاح:

ينقسم التأويل في الاصطلاح قسمين:

القسم الأول: التأويل في اصطلاح السلف.

القسم الثاني: التأويل في اصطلاح المتأخرين.

وهذا بيانُ هذين القسمين، وكلام أهل العلم فيهما:

* **القسم الأول: التأويل في اصطلاح السلف:**

**المعنى الأول: التفسير:**

فيكون التأويل بهذا مرادفاً للتفسير، ومنه قول النبي ﷺ: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»(٣).

---

(١) مادة أول: (٤/ ١٦٢٧).

(٢) ابن فارس: مادة: أول: (١/ ١٦٢).

(٣) رواه أحمد: (٤/ ١٢٧)، طبعة دار المعارف، وصححه أحمد شاكر، وعزاه الهيثمي إلى أحمد والطبراني، وقال: ولأحمد طريقان رجالهما رجال الصحيح.

وقد استجاب الله دعاء نبيه محمد ﷺ فصار ابن عباس حبر هذه الأمة وإمامها في التفسير حتى كان يقول عن نفسه ـ رضي الله عنه ـ: (أنا ممن يعلم تأويله)[١].

ومن شواهد هذا المعنى من كلام الصحابة قول جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ في حديث حجة الوداع: (ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ينزل عليه القرآن وهو يعلم تأويله فما عمل به من شيء عملنا به)[٢].

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (فعلمه صلوات الله وسلامه عليه بتأويله هو علمه بتفسيره وما يدل عليه، وعمله به هو تأويلُ ما أمر به ونهى عنه)[٣].

ومن استعمال التابعين لذلك قول الإمام الزهري ـ رحمه الله ـ: (وقعت الفتنة وأصحاب محمد ﷺ متوافرون فأجمعوا أن كل مالٍ أو دمٍ أصيب بتأويل القرآن فهو هدرٌ أنزلوهم منزلة أهل الجاهلية)[٤].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (أي إن القبيلتين في الفتنة إنما اقتتلوا على تأويل القرآن وهو تفسيره، وما ظهر لكل طائفة منه حتى دعاهم إلى القتال، فأهل الجمل وصفين إنما اقتتلوا على تأويل القرآن)[٥].

---

(١) رواه الطبري «جامع البيان»: (٣/ ١٨٣).

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»: (١/ ٨٨٧، رقم ١٢١٨)، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، وأبو داود في «سننه»: (٢/ ٤٥٩، رقم١٩٠٥)، كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي ﷺ وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٠٢٣، رقم٣٠٧٤)، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ، والدارمي في «سننه»: (١/ ٣٧٥، رقم١٨٥٧)، كتاب المناسك، باب في سنة الحاج.

(٣) «الصواعق المرسلة»: (١/ ١٨١).

(٤) نقلاً عن ابن القيم: «الصواعق المرسلة»: (١/ ١٨٤)، والأثر رواه البيهقي: (٨/ ١٧٤ ـ ١٧٥)، كتاب قتال أهل البغي، باب من قال لا تباعة في الجراح والدماء وما فات في قتال أهل البغي.

(٥) «الصواعق المرسلة»: (١/ ١٨٤).

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قول مجاهد ـ رحمه الله ـ: (والراسخون في العلم يعلمون تأويله، ويقولون آمنا به)[١].

والإمام الطبري ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يستخدم كلمة التأويل مريداً بها التفسير.

**المعنى الثاني: الحقيقة التي يؤول إليها الأمر:**

(فتأويل الخبر هو الحقيقة، وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به، وتأويل ما أخبر الله به من صفاته وأفعاله نفسُ ما هو عليه سبحانه، وما هو موصوفٌ به من الصفات العلىٰ، وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها)[٢].

وهذا الاستعمال كثيرٌ في القرآن الكريم، ومنه قول الله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلُ ربنا بالحق﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٥٣].

أي يوم تأتي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، ويرون عين ما أخبرتهم به الرسل من أهوال القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار[٣].

* **القسم الثاني: التأويل في اصطلاح المتأخرين:**

هو: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليلٍ يقترنُ به[٤].

---

(١) رواه الطبري في «جامع البيان»: (٣/ ١٨٣).

(٢) «الصواعق المرسلة»: (١/ ١٧٧).

(٣) ينظر ابن القيم: «الصواعق المرسلة»: (١/ ١٧٦)، وابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٣/ ١٧٧).

(٤) ينظر شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٥/ ٣٥)، و(١٣/ ٢٨٨)، وابن القيم: «الصواعق المرسلة»: (١/ ١٧٨).

وهذا الاستعمال لم يكن في عرف السلف وإنَّما استعمل هذا طائفةٌ من المتأخرين من المعتزلة والجهمية، ثم جرى على هذا الاستعمال بعضُ متأخري الأصوليين والفقهاء، وقد ألف في تسويغ هذا التأويل جملة من المتكلمين، وألف في إبطاله جملةٌ أخرى من أئمة السلف وعلمائهم.

وحقيقة هذا المعنى عند المتكلمين صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره مع زعم أن ظاهره غير مراد ألبتة، كما قال بعض المتكلمين: هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل على أن ظاهره محال[١].

- **التحريف: معناه وأقسامه:**

إن من تمام القول في الكلام عن مصطلح التأويل، الكلام عن التحريف، إذ بين المصطلحين تداخل كبير.

**التحريف في اللغة:**

الحاء والراء والفاء ثلاثة أصول: حد الشيء، والعدول، وتقدير الشيء[٢].

فأما الأصل الثاني ـ وهو الذي يعنينا هنا ـ فهو الانحراف عن الشيء والعدول عنه، يقال: انحرف عنه ينحرف انحرافاً، وحرفته عنه، أي عدلت به عنه، وذلك كتحريف الكلام وهو: عدله عن جهته قال تعالى: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٦].

**التحريف في الاصطلاح:**

عرَّف شيخ الإسلام التحريف بأنه:

---

(١) ينظر الرازي: «أساس التقديس»: (٢٢٢).

(٢) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: مادة: (حرف): (٢/ ٤٢ ـ ٤٣).

(إزالة اللفظ عمَّا دل عليه من المعنى)[١].

وعرَّفه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «الصواعق» فقال: (التحريف العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره)[٢].

* **أنواع التحريف:**

ذكر العلماء أن التحريف نوعان:

**النوع الأول: التحريف اللفظي:**

وتحريف اللفظ هو: العدول به عن جهته إلى غيرها، إما بزيادةٍ في اللفظ أو بنقصان منه، وإما بتغيير حركةٍ إعرابية وإما غير إعرابية[٣].

ومثال هذا التحريف: تحريف إعراب قول الله عز وجل: ﴿وكلم اللهُ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٦٤] حيث حرَّف المبتدعة الحركة الإعرابية: (الرفع) للفظ الجلالة إلى (النصب) بحيث تكون: (وكلَّم اللهَ﴾ ويصير معناه أن موسى كلَّم الله ولم يكلمه الله عز وجل. ومرادهم بهذا نفيُ صفة الكلام عنه سبحانه وتعالى[٤].

**النوع الثاني: التحريف المعنوي:**

وهذا التحريف المعنوي هو في حقيقة الأمر: التأويل ـ بالمعنى الذي عليه المتكلمون ـ، وهو الذي صال فيه المبتدعة وجالوا، وسموه تأويلاً، وهي تسمية واصطلاح حادثٌ لم يعهد في استعمال العرب، وهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته، وإعطاء اللفظ معنى لفظٍ آخر بقدر مشترك بينهما[٥].

---

(١) «الفتاوى»: (٣/ ١٦٥).

(٢) (١/ ٢١٥).

(٣) ينظر ابن القيم: «مختصر الصواعق المرسلة»: (٢/ ١٤٧).

(٤) ينظر ابن القيم: «الصواعق المرسلة»: (١/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٥) ينظر ابن القيم: «مختصر الصواعق»: (٢/ ١٤٧).

(فالتأويل الباطل هو إلحادٌ وتحريف، وإن سماه أصحابه تحقيقاً وعرفاناً وتأويلاً)(١).

ولذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية يؤكد كثيراً على تسمية التأويل تحريفاً فيقول: (إنّي عدلتُ عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف لأن التحريف اسمٌ جاء في القرآن بذمه . . . فنفيت ما ذمه الله من التحريف، ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا إثبات لأنه لفظٌ له عدة معان)(٢).

* **أنواع التأويل الباطل:**

لقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ جملة من أنواع التأويل الباطل أذكر أربعةً منها على سبيل التمثيل:

**الأول**: التأويل الذي لا يحتمله اللفظ بوضعه مثال ذلك تأويلُ قوله ﷺ: « . . . فأما النارُ فلا تمتلئُ حتى يضع رجله فتقول قط قط. فهناك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض»(٣). فقد أوّل بعض المبتدعة قوله: «حتى يضع رجله» بأن الرجلَ الطائفة من الناس.

وهذا التأويل لا يُعرَف في اللغة العربية.

**الثاني**: التأويل الذي لا يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة من تثنية أو جمع وإن احتمله مفرداً.

---

(١) ينظر ابن القيم: «الصواعق المرسلة»: (١/ ٢١٧).

(٢) «الفتاوى»: (٣/ ١٦٥).

(٣) متفق عليه، فقد رواه البخاري في «صحيحه»، واللفظ له: (٦/ ٤٨)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وتقول هل من مزيد﴾، ومسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢١٨٦، ح تابع ٢٨٤٦)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء.

مثال ذلك تأويل قوله سبحانه: ﴿لما خلقت بيديّ﴾ [سورة ص، الآية: ٧٥]، بأنه القدرة فإن اللفظ الأصلي مثنى: ﴿بيديّ﴾، وتأويله مفردٌ وهو القدرة.

**الثالث**: التأويل الذي لا يحتمله السياق والتركيب للكلام، وإن كان محتملاً في غير ذلك السياق.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٥٨]، فقد أوّل بعض المبتدعة قوله تعالى: ﴿أو يأتي ربك﴾ بأنه إتيان بعض آياته التي هي أمره، وهذا يأباه السياقُ كل الإباء، فإنه يمتنع حمله على ذلك مع التقسيم والترديد والتنويع.

**الرابع**: تأويل اللفظ بمعنى لم يدل عليه دليلٌ من السياق ولا معه قرينةٌ تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه إذ لو قصد لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره[1].

(فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، والفاسدُ المخالف له، فكل تأويلٍ بمعنىً لم يدلّ عليه دليلٌ من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه . . . فإن الله أنـزل كلامه بياناً وهدى فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل أحدٍ لم يكن بياناً، ولا هدى، فالتأويل إخبارٌ بمراد المتكلم إلا إنشاء)[2].

---

(١) ينظر «الصواعق المرسلة»: (١/ ١٨٧ ـ ١٨٨، ٢٠١).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية»: (١/ ٢٢٥)، وينظر: (١/ ٢٥٦).

* **خطورة التأويل والتحريف وأثرهما في الانحراف :**

إن المتأمل في تاريخ الأديان، يجد أن التأويل من أعظم أسباب الانحراف عن الحق والابتداع والغلو. وما اختلاف اليهود في الكتاب الذي أُنزل عليهم إلا بسبب فتح باب التأويل والتحريف: ﴿وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩]، حتى صاروا بعد ذلك فرقاً شتى، قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (فأما اليهود فإنهم بسبب التأويلات التي استخرجوها بآرائهم من كتبهم صاروا فرقاً مختلفة بعد اتفاقهم على أصل الدين، والإيمان بما في التوراة والزبور وكتب أنبيائهم التي يدرسونها ويؤمنون بها)[١].

وقد دفعوا بالتأويل النصوص المتحدثة عن نبينا محمد ﷺ، وجحدوا أمره بالتأويلات التي استخرجوها من الألفاظ التي تضمنتها البشارات حتى التبس الأمر بذلك على أتباعهم[٢].

وقد ذمهم الله على ذلك الفعل في ثلاث آياتٍ من الكتاب العزيز:

فقال سبحانه: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمعٍ وراعنا لياً بألسنتهم، وطعناً في الدين، ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٦].

وقال: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [سورة المائدة، الآية: ١٣].

---

(١) «الصواعق المرسلة»: (١/ ٣٥٥ـ٣٥٦).

(٢) ينظر المصدر السابق: (١/ ٣٥٧).

وقال: ﴿من الذين هادوا سماعون للكذب سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتُوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤١].

وأما النصارى فإن فساد دينهم جاء ـ أيضاً ـ بسبب التأويل والتحريف: (فأول ذلك ما عرض في التوحيد الذي هو عمود الدين؛ فإن سلف المثلثة قالوا في الربوبية والتثليث، وحديث الأقانيم، والأبُ والابن وروح القدس، ثم اختلف من بعدهم في تأويل كلامهم اختلافاً تباينوا به غاية التباين وإنما عرض لهم هذا الاختلاف من جهة التأويلات الباطلة)[1].

ثم كان الانحراف في هذه الأمة بسبب التأويل عظيماً، وقد حذا فيه المؤولون المحرفون حذو اليهود والنصارى، حتى إنك لو رأيت تأويلات اليهود والنصارى (لنصوص التوراة في الأخبار والأمر والنهي لقلت: إن أهل التأويل الباطل من هذه الأمة إنما تلقوا تأويلاتهم عنهم، وعجبت من تشابه قلوبهم، ووقوع الحافر على الحافر، والخاطر على الخاطر)[2].

وقد استخدم أعداء الدين التأويل لهدم الدين من داخله فهم (قوم أرادوا إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً، وإلقاء ذلك فيما بين الناس لينحل الدين في أيديهم فلم يمكنهم إلقاء ذلك صراحاً، فيرد ذلك في وجوههم، وتمتد إليهم أيدي الحكام فصرفوا أعناقهم إلى التحيُّل على ما قصدوا بأنواع الحيل؛ من جملتها: صرف الهم من الظواهر؛ إحالةً على أن لها بواطن هي المقصودة، وأن الظواهر غير مرادة فقالوا: كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر

(١) ابن القيم: «الصواعق المرسلة»: (١/ ٣٥٨).

(٢) ابن القيم: «الصواعق المرسلة»: (١/ ٣٦١)، وينظر في موضع تأثر المبتدعة باليهود في التأويل الباطني: د. فتحي الزُّغبي: «غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام»: (٣٩٦ـ٤٠٩).

والنشر والأمور الإلٰهية فهي أمثلةٌ ورموز إلى بواطن)[١].

وإذا تدبرت تأويلاتهم لنصوص الشريعة علمت أن النتيجة هي الخروج عن هذا الدين: عقائده وشرائعه.

وسأذكر بعض الأمثلة على ذلك:

**المثال الأول: تأويل الصفات**: فقد أول المبتدعة صفات الله عز وجل فقالوا في صفة الاستواء هي: الاستيلاء، وقالوا في صفة المحبة هي: إرادة الإنعام، وقالوا في صفة الغضب هي: إرادة الانتقام، وقالوا في صفة الوجه المراد: الذات أو الثواب أو الجهة، وقالوا في صفة اليدين المراد: القدرة، وهلم جرّا، فردوا كلام الله ورسوله، وزعموا أن ظاهره غير مراد، وأن باطنه الذي لم يعلمه الرسول ﷺ وصحابته وسلف الأمة هو المراد.

قال الإمام ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: (وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها، والخوارج، فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبهٌ وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة)[٢].

**المثال الثاني**: تأويل بعض المبتدعة قوله تعالى ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ [سورة المائدة، الآية: ٩٢]: (على أن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج في جميع ما يطعم ووصل إلى الكمال والبلاغ)[٣].

---

(١) الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٢) «التمهيد»: (٧/ ١٤٥).

(٣) نقلاً عن الشهرستاني: «الملل والنحل»: (١/ ١٥٢)، والقائل بذلك هو عبد الله بن عمرو الكندي.

**المثال الثالث**: تأويل بعض المبتدعة لقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٠] حيث قال: (أراد به علياً فهو الذي يأتي في الظلل، والرعد صوته والبرق تبسمه)[١].

وبالجملة فلهؤلاء القوم من الإفك شيءٌ (كثيرٌ من الأمور الإلهية، وأمور التكليف، وأمور الآخرة، وكله حوم على إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً)[٢].

ومن أوجه خطورة التأويل أنه إذا فتح بابه فقد فُتح على الأمة باب لأنواع من المشركين والمبتدعين إذ إنه إذا سوّغ صرف اللفظ عن دلالته المفهومة أضحى الأمر بدون ضابط؛ بل إن المؤولة لا ضابط عندهم فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ[٣].

ومن أوجه خطورة التأويل أنه يفتح باب التفرق فما افترقت اليهود والنصارى إلا بسببه، وما افترقت هذه الأمة إلا بسببه، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (إذا تأمل المتأمل فساد العالم وما وقع فيه من التفرق والاختلاف، وما دُفع إليه أهل الإسلام وجده ناشئاً من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن، وأخبار الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه، فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين والتحارب وتفرق الكلمة)[٤].

---

(١) نقلاً عن الشهرستاني: «الملل والنحل»: (١/ ١٥٢)، والقائل بذلك هو بيان بن سمعان.

(٢) الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ٣٢٢)، وينظر في جملة تأويلات الباطنية: الغزالي: «فضائح الباطنية»: (٥٥ ـ ٥٨)، تحقيق عبد الرحمن بدوي.

(٣) ينظر ابن أبي العز الحنفي: «شرح الطحاوية»: (١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨).

(٤) «الصواعق المرسلة»: (١/ ٣٤٨).

بل: (كم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية فهل قُتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلا بالتأويل الفاسد، وكذا ما جرى في يوم الجمل وصفين، ومقتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ، والحرة، وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد)[1].

* * *

وفي العصر الحديث يتلاعب الغلاة والمبتدعة بتأويل النصوص لتكون مقررة لما هم عليه من الباطل، وملبسة على اتباعهم فتكون سبباً لغلوهم.

فمن ذلك: تفسير شكري مصطفى لقوله تعالى: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾ [سورة القصص، الآية: ٥٩]. فإنه يريد أن يقرر أن جماعته هي جماعة الحق فيقول: (كلمةُ في أمها تدل على المكان الذي تبدأ فيها الجماعة المسلمة وتتحمل فيه المتاعب . . . ولم تكن مكة أم القرى إلا في عهد الدولة الإسلامية فحسب . . . والصحيح أن لكل رسولٍ أماً للقرى . . . فأم القرى في عهد موسى عليه السلام هي مصر . . .

ولكن ما هي أم القرى في عهدنا الحالي، عهد قيام الدولة الإسلامية مرةً ثانية كما وعد بذلك الله ورسوله . . .

أين هي أم القرى الآن في منطقة الشرق الأوسط؟

أين المكان الذي يُصَدِّرُ الكفر إلى العالم العربي؟

أين القرية التي حاربت من نادى بالجهاد في سبيل الله؟

أين القرية التي تعتبر متجه العالم العربي؟

---

(١) ابن أبي العز الحنفي: «شرح الطحاوية»: (١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

هي ببداهة الآن مصر)[١].

فهذا تأويل لآية من القرآن، وصرف للفظ عن معناه المتبادر الظاهر إلى معنى آخر لا يدل عليه السياق، ولا تقتضيه قرينة بل لَي لعنق النص ليوافق الأهواء، وليسوغ لضعاف العقول والنفوس ما عليه الجماعة من غلوٍّ في قائدها وفي الجماعة ذاتها.

❑ ❑ ❑

---

(١) «التوسمات»: (١٩ ـ ٢١).

## المطلب الثالث

## اتباع المتشابه

- **تعريف المتشابه في اللغة:**

الشين والباء والهاء أصلٌ واحدٌ يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً[١].

والمتشابه: تفاعل من الشبه وهو المثيل.

قال الفيومي: (اشتبهت الأمور، وتشابهت: التبست فلم تتميز ولم تظهر، ومنه اشتبهت القبلة)[٢].

- **معنى المحكم والمتشابه ووقوعهما في القرآن الكريم:**

لقد أنزل الله كتابه الكريم على عبده ورسوله محمد ﷺ، وجعله في غاية الإتقان والاتساق والائتلاف: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢].

ولكن ورد وصف القرآن الكريم كله بأنه محكمٌ فقال الله عز وجل: ﴿الر كتابٌ أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [سورة هود، الآيتان: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ [سورة يونس، الآيتان: ١ ـ ٢].

وورد وصفه بأنه متشابه فقال سبحانه: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ [سورة الزمر، الآية: ٢٣].

---

(١) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: (٥٤٨)، مادة شبه.

(٢) «المصباح المنير»: مادة شبه: (١/٣٥٨). وينظر ابن منظور: «اللسان»، مادة شبه: (١٣/٥٠٣).، والجوهري: «الصحاح»، مادة شبه: (٦/ ٢٢٣٦).

وورد وصفه بأن منه المحكم ومنه المتشابه في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أُم الكتابِ وأُخر متشابهات﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧]. وهذا أدى إلى اختلاف أهل العلم في القرآن هل هو متشابه أو محكم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن القرآن كله محكم.

القول الثاني: أن القرآن كله متشابه.

القول الثالث: أن منه محكماً ومنه متشابهٌ[١].

وصواب القول في ذلك أن القرآن منه محكم، ومنه متشابه باعتباراتٍ هذا ملخص القول فيها:

١ـ أن القرآن كله موصوف بالإحكام أي الإتقان وهذا هو الإحكام العام، وعلى هذا تحمل الآيات التي وصفت القرآن كله بالإحكام.

٢ـ أن القرآن كله موصوف بالتشابه أي التماثل والتناسب في الإتقان فهو متشابهٌ في الإعجاز، متشابه في حسن ألفاظه، وهو متشابهٌ إذ يصدقُ بعضه بعضاً فلا تعارض ولا تناقض.

٣ـ أن القرآن منه محكم ومنه متشابه، يبين ذلك قوله سبحانه: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أُم الكتاب وأُخر متشابهات﴾.

وقد اختلف أهل العلم في بيان معنى المحكم والمتشابه المذكورين في هذه الآية على أقوال كثيرة أهمها:

١ـ أن المحكم ما عُرِف المراد منه، والمتشابه ما لم يُعرف مراد الله عز وجل منه.

---

(١) ينظر الزركشي: «البرهان»: (٢/ ٦٨).

٢ـ أن المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهاً متعددة.

٣ـ أن المحكم ما استقل بنفسه، ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى رده إلى غيره.

٤ـ عرفه بعضهم بالمثال وذلك مثل قول بعضهم: المتشابهات الحروف المقطعة في أوائل السور[١].

ولعل اختلاف العلماء في ذلك إنما هو من قبيل اختلاف التنوع، وليس من اختلاف التضاد، ومن أحسن ما قيل في ذلك مما يتضح به الجمع بين الأقوال ما رواه ابن جرير ـ رحمه الله ـ عن محمد بن جعفر بن الزبير ـ رحمه الله ـ. حيث قال في قوله سبحانه: ﴿منه آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُم الكتاب﴾: (فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه وأخر متشابهات في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام لا يصرفن إلى الباطل، ولا يُحرَفن عن الحق)[٢].

ولعل في ذكر أنواع المتشابه ما يؤكد هذا المعنى:

- **أنواع المتشابه:**

المتشابه الواقع في النصوص على ضربين:

أحدهما: حقيقيٌّ.

---

(١) ينظر الغزالي: «المستصفى»: (١/ ١٠٦)، وابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٢/ ٤ ـ ٥)، والسيوطي: «الإتقان»: (٣/ ٣ ـ٥)، والزرقاني: «مناهل العرفان»: (٢/ ١٦٧ ـ ١٧٣)، والقطان: «مباحث في علوم القرآن»: (٢١٦).

(٢) «جامع البيان»: (٣/ ١٧٤).

والآخر: إضافي.

**فأما الأول: فهو المتشابه الحقيقي:**

الذي ليس للناس سبيل إلى فهم معناه حتى لو كان من أهل العلم: (فإذا نظر المجتهد في أصول الشريعة وتقصاها وجمع أطرافها لم يجد فيها ما يُحكم له معناه، ولا ما يدل على مقصوده ومغزاه)(١).

وأمثلة ذلك كثيرة منها: مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله عز وجل: ﴿إن الله عنده علمُ الساعة وينزل الغيث ويعلمُ ما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، إن الله عليمٌ خبير﴾ [سورة لقمان، الآية: ٣٤].

ومنها: حقائق الصفات وكيفياتها ككيفية سمع الله عز وجل وبصره، فذلك مما استأثر الله عز وجل بعلمه.

ومنها: حقائق ما في البرزخ والآخرة من مثل عذاب القبر ونعيمه وما وعد الله عز وجل أولياءه، وأوعد أعداءه فإن ذلك كله غير معلوم الحقيقة للبشر، بل ولا يخطر على قلوبهم يقول تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٢).

والواجب نحو هذا النوع الإيمان به دون تتبع لما لا يمكن للناس علمه؛ ولذلك كانت النصوص وأقوال السلف دالةً على وجوب الإيمان به ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا﴾ فهم يؤمنون بالمتشابه، ويعلمون أن كلاً من المحكم والمتشابه حقٌّ وصدق، وكل

---

(١) «الموافقات»: (٣/ ٩١).

(٢) رواه البخاري: (٨/ ١٩٧ ـ ١٩٨)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾.

واحدٍ منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله، وليس شيءٌ من عند الله بمختلف ولا متناقض[١].

**النوع الثاني: المتشابه الإضافي:**

وهو ما صار متشابهاً بالنسبة إلى الناظر في النص، وإلا فالنص نفسه غير متشابهٍ في حقيقة الأمر.

ومرد التشابه هو إلى أحد أمرين:

١ ـ تقصير الناظر في الاجتهاد والنظر في النصوص.

٢ ـ زيغان الناظر باتباعه الهوىٰ.

يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ في الكلام عن هذا النوع: (إنَّه لم يصر متشابهاً من حيث وضع في الشريعة، من جهة أنَّه قد حصل بيانه في نفس الأمر، ولكنَّ الناظر قَصَّر في الاجتهاد أو زاغ عن طريق البيان اتباعاً للهوى)[٢].

وعلى ذلك فإن أخذ النَّصِّ عفواً أو أخذاً أولياً دون النظر إلى ما يعارضه أو يقيده أو يخصصه من اتباع المتشابه إذ (من اتباع المتشابهات الأخذ بالمطلقات قبل النظر في مقيداتها، أو في العمومات من غير تأملٍ هل لها مخصصات أم لا؟ وكذلك العكس، بأن يكون النَّصُّ مقيداً فيطلق، أو خاصاً فيعم بالرأي من غير دليلٍ سواه، فإنَّ هذا المسلك رميٌ في عماية واتباع للهوى في الدليل، وذلك أن المطلق المنصوص على تقييدة مشتبهٌ إذا لم يُقيد، فإذا قُيِّد صار واضحاً)[٣].

---

(١) ينظر ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٢/ ١٠).

(٢) «الموافقات»: (٣/ ٩٢).

(٣) الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ٣١٢).

والواجب نحو هذا النوع أن يرد إلى عالِمِه كما قال الرسول ﷺ: «إنَّ القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالِمِه»(١). والعالم عليه أن يرد المتشابه إلى المحكم (فمن ردَّ ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكَّم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس)(٢).

وهنا يستشكل كثيرٌ من الناس مسألةً وهي: هل يمكن العلم بالمتشابه؟ وهذه المسألة قد اختلف فيها أهل العلم، ومنشأ اختلافهم هو في موضع الوقف في قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧]، وقد كان اختلافهم في ذلك على قولين:

**القول الأول**: الوقف عند لفظ الجلالة من قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾، وتكون الواو في قوله سبحانه: ﴿والراسخون﴾ واو الابتداء، فالجملة بعدها مستأنفة وهي مبتدأ وقوله: ﴿يقولون﴾ خبره.

وذهب إلى هذا ابن عباس وابن مسعود وعائشة وجمع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وجمع من التابعين.

ومقتضى هذا القول: أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله عز وجل، فلا يمكن للراسخين وغيرهم ـ من باب أولى ـ معرفة المتشابه.

**القول الثاني**: عدم الوقف، وعطف جملة ﴿والراسخون في العلم﴾ على قوله: ﴿إلا الله﴾ فالواو هنا للعطف، وجملة ﴿يقولون آمنا به﴾ حال من الراسخين.

---

(١) رواه أحمد: (١٠/ ٢٣٠)، وصححه أحمد شاكر.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (٢/ ٥).

ومقتضى هذا القول أن العلمَ بالمتشابه حاصِلٌ عند الله وعند الراسخين وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس ومجاهد وكثير من المفسرين وأهل الأصول والمتكلمين.

ولعل الراجح أنه لا منافاة بين القولين بناء على اختلاف معنى التأويل، فإن كان التأويل مراداً به الإطلاق المعروف عند السلف وهو: التفسير، فإنَّ الراسخين في العلم يعلمونه، وإذا كان التأويل بمعنى حقيقة الشيء التي يؤول إليها، فإنَّ هذا مما استأثر الله عز وجل بعلمه[1].

*** خطورة اتباع المتشابه، وأثره في الانحراف والغلو:**

يقول الله عز وجل: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾، فربط سبحانه بين أهل الزيغ واتباع المتشابه، وجعل اتباع المتشابه من شأن أهل الزيغ والابتداع، وهم إنما يفعلون ذلك ابتغاء إحداث الفتنة وتتبعاً لما لا يمكنهم العلم به مما استأثر الله عز وجل بعلمه أو خصَّ به أهل العلم البصراء بدين الله.

ولقد حذَّر الرسول ﷺ من اتباع المتشابه، ومن متبعي المتشابه فعن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أُم الكتاب، وأُخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا، وما يذكر إلا أُولوا الألباب﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[2].

---

(١) ينظر شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (١٣/ ٢٧٥ ـ ٢٨٤).

(٢) سبق تخريجه ص (١١٤).

ولخطورة اتباع المتشابه كان السلف يردعون متبعه ويؤدبونه تأديباً بليغاً، فعن سليمان بن يسار ـ رحمه الله ـ أن رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر، وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ فقال عمر: وأنا عبد الله عمر، ثم أخذ عرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى أدمى رأسه[1].

وما وصف متبعي المتشابه بالزيغ، والتحذير منهم، وتأديبهم إلا لما يجره اتباع المتشابه من انحرافٍ عن الحق وضلال. واعتبر ذلك بالخوارج لتعلم كيف انحرفوا بسبب اتباع المتشابه فقد أخذوا ـ مثلاً ـ قوله تعالى: ﴿إن الحكمُ إلا لله﴾ [سورة يوسف، الآية: ٤٠] على ظاهره، وقطعوه عن بيانه، وزعموا أن ذلك يعني ألاَّ يُحكَّم البشر، وألاَّ يطلب منهم الحكم بشرع الله بين المتخاصمين فنقموا على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه حكَّم الحكمين، وهذا ـ بزعمهم حكم بغير ما أنزل الله، وقد ردَّ عليهم عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بجملة آياتٍ منها: قوله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٥]، فأمر الله عز وجل بتحكيم حكمين في أمر امرأة ورجل قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل!»[2].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في بيان أول زيغ الخوارج:

(كان أول كلمةٍ خرجوا بها قولهم: لا حكم إلا لله انتزعوها من القرآن

---

(١) رواه الآجري في «الشريعة»: (٧٣)، والدارمي في «السنن»: (١/ ٥١، رقم ١٤٦)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد»: (٤/ ٦٣٤)، وذكر له الحافظ ابن حجر إسناداً صحيحاً عن ابن الأنباري: «الإصابة»: (٣/ ٤٥٨ ـ ٤٦٠).

(٢) رواه أحمد: (١/ ٨٦ ـ ٨٧)، وسيأتي بطوله ص (٩٦٢).

وحملوها على غير محملها)[1].

ولو ردوا هذه الآية الكريمة إلى الآيات المحكمة الأخرى، وأوكلوا الأمر إلى الراسخين في العلم لسلموا من ذلك الزيغ.

وفي الحياة المعاصرة ضل أقوام فغلوا بسبب اتباع المتشابه. فمن أمثلة ذلك فيما يتعلق بالمتشابه الحقيقي: تطبيق ما أخبر عنه النبي ﷺ من الأمور الغيبية التي تحدثُ في آخر الزمان؛ كادعاء شخصٍ أنه المهدي فهذا أخذٌ بالنصوص، وحملٌ لها على شخص معين بدون دليل، فهذا التعيين أمرٌ مغيبٌ لا يعلمه إلا الله عز وجل.

ومن ذلك الجزم بأن جماعةً ما هي الجماعة التي ستكون مع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند نزوله آخر الزمان، قال شكري مصطفى بعد كلام طويل عن أحداث آخر الزمان، ونزول عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (هذه الإشارات بينت أننا سوف ندرك عيسى بن مريم عليه السلام ـ إن شاء الله ـ ولكن التحديد الزمني الدقيق لا نعلمه الآن . . . فنرجو أن نكون أنصار الله في آخر الزمان، وممن يجد فيهم عيسى بن مريم خلفاء من حوارييه . . .)[2].

ثم تكلم عن مواصفات الجماعة التي تكون مع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فذكر مجمل آرائه وآراء جماعته.

وهذا كله من اتباع المتشابه الحقيقي الذي استأثر الله بعلمه إذ لا يعلم تلك الأحداث التي تكون في آخر الزمان إلا الله عز وجل.

---

(١) «الفتح»: (٦/ ٦١٩)، وينظر في هذا الموضوع: الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ٣٠٣).

(٢) «التوسمات»: (٥٣ ـ ٥٤).

ومن أمثلة المتشابه الإضافي: اعتمادُ قومٍ ممن وقعوا في الغلو في تكفير غير المهاجرين على آياتٍ من مثل قوله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيمَ كنتم، قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٧]. يقول ماهر بكري بعد ما ساق هذه الآية: (يدل ذلك على أن القاعدة التي كان عليها حين وافته المنية هي الكفر الصريح وليس الإسلام)[١]. ويحدد شروط تكفير من تخلف عن الهجرة في ضوء هذه الآية فيقول: (العلم بحرمة الاستضعاف ـ الاستضعاف، القدرة على الانخلاع منه والفرار بالدين، والتقاعد عن الانخلاع منه والفرار بالدين بغير عذر يسوغ في الجملة كل ذلك = الكفر الصريح)[١].

وهذا من اتباع المتشابه فالحكم بالنسبة للمقيم في دار الكفر يختلف.

فالمقيمون بدار الكفر على ثلاثة أقسام:

**القسم الأول**: الراغب المختار الراضي بأفعال الكافرين الموالي لهم الذي يرضي الكافرين بذم المسلمين وعيبهم ويظاهر الكفار على المسلمين فهذا كافر عدوٌّ لله ورسوله.

**القسم الثاني**: من أقام عند الكافرين لأجل مال أو ولد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة، ولا يعين الكافرين على المسلمين ولا يواليهم فهذا غير كافر ولكنه ظالم لنفسه عاصٍ لله ورسوله.

**القسم الثالث**: من لا حرج عليه في الإقامة بين أظهر الكفار وهو داخلٌ تحت أحد نوعين:

---

(١) «الهجرة»: (٦٧ ـ ٦٨).

**النوع الأول**: أن يكون مظهراً لدينه فيتبرأ مما عليه الكفار ويبين بطلانه فهذا تستحب الهجرة في حقه.

**النوع الثاني**: المستضعفون وهؤلاء قد بيَّن الله حالهم بقوله:

﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٨].

ولكل قسم من هذه الأقسام أدلة من القرآن والسنة[١]، والمكفر للتارك للهجرة بإطلاق معرضٌ عن هذه الأدلة متبعٌ للمتشابه منها، بل لو ردَّ هذا النص إلى الأصل وهو: أن أهل التوحيد ليسوا بكافرين، ولو قارفوا شيئاً من الكبائر لسلم من غوائل الغلو وشرور التكفير. ومما يدل على أن البقاء في دار الكفر ليس بمكفرٍ على الإطلاق: أن الله سبحانه أثبت الإيمان لمن لم يهاجر، فقال عز وجل: ﴿إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصرُ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٧٢].

فقد ذكر الله عز وجل في الآية أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وإلى أنصار، وإلى مؤمنين غير مهاجرين، ولم يسلب هؤلاء وصف الإيمان بل أثبته لهم[٢].

□ □ □

---

(١) ينظر في هذا التقسيم الشيخ: حمد بن عتيق: «الدفاع عن أهل السنة والاتباع»: (١٢ ـ ١٩)، وينظر تقسيم ابن حجر: «الفتح»: (٦/ ١٩٠).

(٢) ينظر ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٣/ ٣٥١).

## المطلب الرابع

## عدم الجمع بين الأدلة

* **أولاً: معنى الجمع في اللغة والاصطلاح:**

تدور مادة: (جمع) في اللغة على أصلٍ واحد يدلُّ على تضامّ الشيء يقال جمعتُ الشيء جمعاً إذا ضممت بعضه إلى بعض.

فالجمع تأليف المفترق، والجميع ضد المتفرق، وجماع الناس أخلاطهم من قبائل شتى، وكل ما تجمع وانضم بعضه إلى بعض[١].

والجمع بين الأدلة في الاصطلاح ـ بمعناه العام ـ: بيان التوافق والائتلاف بين الأدلة الشرعية[٢].

* **ثانياً: كيفية الجمع بين الأدلة:**

ينبني فهم كيفية الجمع بين الأدلة على فهم نوع التعارض وسأجمل القول في ذلك طلباً للاختصار:

**١ ـ أنواع التعارض بحسب العموم والخصوص:**

أ ـ التعارض بين عامين.

ب ـ التعارض بين خاصين.

وقد اختلف في وقوع هذين النوعين من التعارض على قولين:

---

(١) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: (١/ ٤٧٩)، مادة: جمع، والفيروزآبادي: «القاموس المحيط»: (٣/ ١٤)، مادة: الجمع، والزبيدي: «تاج العروس»: (٥/ ٣٠٤)، مادة: الجمع.

(٢) ينظر: البرزنجي: «التعارض والترجيح»: (١/ ٢١٢).

**الأول**: عدم جواز وقوع هذا في الشريعة، وهو قول الشيرازي وحكاه الغزالي عن جمع من الأصوليين[١].

**الثاني**: أن التعارض قد يقع في هذين النوعين، وهذا قول الجمهور[٢]، وعليه فإذا كان كلٌّ من الدليلين عاماً أو خاصاً فالجمع بأن يثبت الحكم في عدة موارد، ويوزع الدليلان عليها وذلك بحمل كل منهما على بعض تلك الموارد[٣].

ج- التعارض بين دليلٍ عامّ ودليلٍ خاصّ مطلق وهنا يجب بناء العام على الخاص، ويكونُ المراد من العام ما لم يتناوله لفظ الخاص، سواءٌ كان الخاص متقدماً على العام، أو متراخياً عنه، أو مقارناً له، أو جُهِلَ التأريخ وهذا قولُ الجمهور[٤].

وذهب بعض الأصوليين إلى عدم تخصيص العام بالخاص إلا عند العلم بالتأريخ فيكون المتأخر ناسخاً سواءٌ أكان العام أم الخاص[٥].

د- التعارض بين دليلٍ عام ودليلٍ خاصّ من وجه.

وهنا اختلف العلماء على ثلاثة أقوال:

---

(١) ينظر الغزالي: «المستصفى»: (٢/ ١٥١)، وابن قدامة: «الروضة»: (٢/ ٧٢٤، ٧٤٠)، والبرزنجي: «التعارض والترجيح»: (٢/ ٤).

(٢) ينظر البدخشي: «مناهج العقول»: (٣/ ٢٠٦، ٢١٨).

(٣) ينظر البدخشي: «مناهج العقول»: (٣/ ١٥٨)، والأسنوي: «نهاية السول»: (٣/ ١٥٩). والبرزنجي: «التعارض والترجيح»: (٢/ ٥ ـ ٦).

(٤) ينظر الآمدي: «الإحكام»: (٢/ ١٠٠)، وابن قدامة: «الروضة»: (٢/ ٧٢٤).

(٥) ينظرالأنصاري: «فواتح الرحموت»: (١/ ٣٤٥).

**القول الأول**: الجمع بتخصيص كل منهما بالآخر إن أمكن وإلا يطلبُ الترجيح بينهما، وهو قولُ جماعة من الأصوليين منهم إمام الحرمين(١).

**القول الثاني**: إثبات حكم التعارض، وعدم جواز العمل بالدليلين أو أحدهما إلا بدليل شرعي من غيرهما وهو قول جمهور الشافعية والحنابلة(٢).

**القول الثالث**: جعل أحد الدليلين بياناً للآخر، وذلك ما لم يظهر ترجيح أحد الدليلين على الآخر، فإن ظهر التأريخ قدم الراجح وعمل به على عمومه(٣).

٢ـ **التعارض بحسب الإطلاق والتقييد**:

إذا ورد الدليل مطلقاً بأن أفاد ثبوت الحكم لمطلق الماهية من غير نظر إلى أي قيد وجب العمل به على إطلاقه، ولكن متى ورد الدليل المقيِّد في نفس الحكم وجب جعله مبيناً لذلك الحكم.

فعلى هذا إذا ورد دليلان: مطلق ومقيد، واتحدا في الحكم وفي السبب وجب حمل المطلق على المقيد، وتقييده به جمعاً بينهما، وبهذا يصير من عمل بالمقيد قد وَفَّى بالعمل بدلالة المطلق أيضاً(٤).

٣ـ **التعارض بحسب اختلاف الحال**:

إذ حين ينظر المجتهد في دليلين ربما يتوهم وجود التعارض بينهما غير أنه مع

---

(١) ينظر البرزنجي: «التعارض والترجيح»: (٢/ ٩).

(٢) ينظر الغزالي: «المستصفى»: (٢/ ١٤٩)، وابن قدامة: «الروضة»: (٢/ ٧٤٠ـ ٧٤١).

(٣) ينظر الغزالي: «المستصفى»: (٢/ ١٤٩ـ ١٥٠).

(٤) ينظر الآمدي: «الإحكام»: (٣/ ٤)، والشوكاني: «إرشاد الفحول»: (٢/ ٥).

ظهور التعارض فإن الجمع بين هذين الدليلين ممكن، وذلك بتنزيل كل دليل على حالة مختلفةٍ عن الحالة التي دل عليها الدليل الآخر[١].

٤ ـ **التعارض باختلاف المحل**:

إذ إنه قد يتوهم التعارض بين دليلين، ويكون ذلك التعارض مندفعاً ببيان تغاير محلهما فيكون كل دليل منزلاً على محلٍّ خاصٍّ به[٢].

٥ ـ **التعارض باختلاف الحكم**:

فقد يتوهم التعارض بين دليلين يمكن الجمع بينهما ببيان مغايرة ما ثبت بأحد الدليلين لما انتفى بالآخر[٣].

* **أهمية الجمع بين الأدلة**:

إن من سمات هذا الدين التي أبان عنها القرآن العزيز اتساقه، وتصديق بعضه بعضاً، وعدم تناقضه؛ لأنه واحد المصدر: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢].

ولا يمكن للناس تبين تلك السمة إلا بالتدبر، والنظر في آيات الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، ولذلك صُدرت هذه الآية الكريمة بالحض على التدبر. والتدبر إذا وقع صدَّق القرآن بعضه بعضاً في فهم القاريء كما هو مصدق بعضه بعضاً في واقع الأمر.

---

(١) ينظر عبد العزيز البخاري: «كشف الأسرار»: (٣/ ٩١).

(٢) ينظر السرخسي: «أصول السرخسي»: (٢/ ٢٠)، والتفتازاني «شرح التلويح»: (٢/ ١٠٧)، والبزدوي وعبد العزيز البخاري: «أصول البزدوي مع «كشف الأسرار»: (٣/ ٩٣).

(٣) ينظرالنسفي «شرح المنار»: (٢/ ٩٥ ـ ٩٦)، والتفتازاني «شرح التلويح»: (٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧)، والسرخسي: «أصول السرخسي»: (٢/ ١٩).

وإذا أعرض الإنسان عن التدبر ولم يأخذ بالقرآن كله وضرب الأدلة بعضها ببعض اختلفت عليه فكان ذلك سبباً في انحرافه على الحق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مبيناً أصلاً جامعاً في رد ما تنازع فيه الناس من فهم النصوص: (والمقصود هنا ذكر أصل جامعٍ تبنى عليه معرفة النصوص، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الكتاب والسنة، فإن الناس كثر نزاعهم في مواضع في مسمى الإيمان والإسلام لكثرة ذكرهما، وكثرة كلام الناس فيهما، والاسم كلما كثر التكلم فيه، فتكلم به مطلقاً، ومقيداً بقيد آخر في موضع آخر كان هذا سبباً لاشتباه بعض معناه، ثم كلما كثر سماعه كثر من يشتبه عليه ذلك.

ومن أسباب ذلك أن يسمع بعض الناس بعض موارده ولا يسمع بعضه، ويكون ما سمعه مقيداً بقيد أوجبه اختصاصه بمعنىً، فيظن معناه في سائر موارده كذلك. فمن اتبع علمه حتى عرف مواقع الاستعمال عامة، وعلم مأخذ الشبه أعطى كل ذي حق حقه، وعلم أن خير الكلام كلام الله، وأنه لا بيان أتم من بيانه، وأن ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذي يحتاجون إليه أضعاف ما تنازعوا فيه)[١].

* * *

لقد كان عدم الجمع بين الأدلة، والاقتصارُ على بعضها وضربُ القرآن بعضه ببعض سبباً من أسباب انحراف الفرق وهو الآن سببٌ من أسباب الغلو في العصر الحاضر. يتضح ذلك من النظره إلى استدلالات الواقعين من الغلو بل هم أنفسهم يشتكون من ذلك، ذكر الدكتور: نعمان السامرائي أن بعض من وقع

---

(١) «الفتاوى»: (٧/ ٣٥٦ـ٣٥٧).

في التكفير قال له: (إني لأجد الحديث النبوي فأفرح به، ثم بعد مدةٍ أجد حديثاً آخر لكني لا أعرف كيف أجمع بينهما، وضرب مثلاً الأحاديث التي تدعو إلى الخروج على الحاكم الظالم، وإن قتل فهو شهيد أو سيد الشهداء، وهناك أحاديث تمنع الخروج مطلقاً)[١].

فهذا القول يبين مقدار الإشكال الذي يعانيه من يجهل النصوص ومواردها وأساليب الجمع بينها، هذا الإشكال الذي يدفع به وبأمثاله إلى ضروب من الانحراف المتقابل.

واعتبر ذلك بهذا المثال ناظراً إلى هاتين المجموعتين من النصوص:

١ـ يقول الله تعالى: ﴿ومن يعصِ الله ورسوله فإنَّ له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ [سورة الجن، الآية: ٢٣]. ويقول: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤]. ويقول سبحانه: ﴿بلىٰ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨١].

٢ـ يقول الله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ [سورة النساء، الآية: ١٣]. ويقول سبحانه: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٧١]. ويقول سبحانه: ﴿ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٩].

فهاتان مجموعتان من النصوص يلحق بهما ما في معناهما.

---

(١) «التكفير، جذوره ـ أسبابه ـ مبرراته»: (١٥).

تسمى الأولى: نصوص الوعيد.

وتسمى الثانية: نصوص الوعد.

وقد صار فهم هذه النصوص سبباً لانحراف طائفتين: الخوارج والمرجئة؛ فالخوارج أخذوا بعموم آيات الوعيد وقالوا: المعصية الواحدة كافية للخلود في النار، ولا بد من اجتماع الطاعات كلها للخلود في الجنة.

والمرجئة أخذوا بعموم نصوص الوعد، وقالوا: الإيمان هو التصديق، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ولا بد من اجتماع المعاصي كلها للحكم بالخلود في النار.

وقد قال بعض المعاصرين بقول الخوارج يقول شكري مصطفى: (إن لفظة الكفر ما جاءت في الشريعة إلا لتدل على عكس الإيمان وانتفائه، وهي تعبر عن حكم عام يشتمل على عدة أنواع منه لكل نوعٍ منها اسمُ عَلَمٍ خاص به؛ كالفسق والظلم والخبث ... فحيثما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٧]. فإن جميع الثلاثة كفرٌ من حيثُ الحكم العام، مختلفين من حيثُ أسماء الأعلام، ومداخل الكفر تماماً كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات، والخاشعين ...﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٥]. هي كلها أسماء أعلام مختلفة تدلُّ على حكمٍ واحدٍ ومعنى واحد وهم المؤمنين [هكذا] ولكن اختلف اسم العلم باختلاف مدخل الإيمان والغالب على الإنسان)[1].

---

(١) رسالة: «إجمال تأويلاتهم، وإجمال الرد عليهم»، نقلاً عن محمد سرور زين العابدين: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (١٦١).

ويقول ماهر بكري: (إن كلمة عاصي هي اسمٌ من أسماء الكفار وتساوي كلمة كافر تماماً، ومرجع ذلك إلى قضية الأسماء، إنَّه ليس في دين الله أن يسمى المرء في آنٍ واحد مسلماً وكافراً)(١).

ويستدلون على ذلك بجملة أدلة منها عمومات الوعيد التي ذكرت بعضها آنفاً من مثل قول الله تعالى: ﴿ومن يعصِ الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ [سورة الجن، الآية: ٢٣].

وهذه النصوص عموماتٌ في الوعيد معارضة بعمومات في الوعد، ولو أخذنا بموجب فهمهم أن كل معصية داخلة تحت هذه الآية لقلنا أيضاً ـ وفق هذا المنهج في الفهم ـ إن كل طاعة داخلة في قوله سبحانه: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ [سورة النساء، الآية: ١٣].

وبهذا المنهج يتعارض القرآن وينقض بعضه بعضاً، والحق جمع هذه النصوص وفهمها بمجموعها: (لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد . . . والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض:

فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد، ويكذبوا بالوعيد.

والحرورية والمعتزلة: أرادوا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما أخطأ.

والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمانُ بالوعد والوعيد فكما أن ما توعد الله به العبدَ من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط: بأن لا يتوب، فإن تاب تاب الله عليه، وبأن لا يكون له حسناتٌ تمحو ذنوبه فإن الحسنات يذهبن السيئات، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له: فـ(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك

(١) «كتاب الهجرة»: (٧٢).

لمن يشاء﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٨]. فكهذا الوعد له تفسير وبيان. فمن قال بلسانه: لا إله إلا الله، وكذَّب الرسول فهو كافرٌ باتفاق المسلمين وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله.

فلا بد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غَفَر له، فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان في النار فالسيئات تحبطها التوبة، والحسنات تحبطها الردة، ومن كان له حسنات وسيئات فإنَّ الله لا يظلمه بل من يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره، والله تعالىٰ قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته.

ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد في النار)[1].

ومن الجمع بين النصوص الرد إلى النصوص المحكمة والأصول الجامعة التي تُردُّ إليها النصوص العامة وهناك أصل جامع محكم تُرَدُّ إليه نصوص الوعيد وبالرجوع إليه يندفع التعارض المتوهم، فالقرآن ليس فيه تناقض ولا اختلاف: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٨].

□ □ □

(١) «الفتاوى»: (٨/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

## المطلب الخامس

## التعامل المباشر مع النص والفهم الحرفي له

لقد أنزل الله الكتاب الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٣]، وتكلم الرسول ﷺ بذلك اللسان فكان أفصح العرب وأبينهم كلاماً، ولكن فهم الكتاب العزيز والسنة المطهرة لا يكون بمجرد الظاهر وبالنظر إلى أحرف الكلمات فحسب بل يحتاج ذلك إلى أمرين:

**الأول**: معرفة اللغة التي تكلم بها الشارع.

**ثانياً**: معرفة مقصود الشارع سبحانه من اللفظ.

فإن (معرفة اللغة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدَّعون أنَّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك)[١].

ثم بعد ذلك يرجع إلى مقصود الشارع من كلامه، ومقصوده يعرف بمعرفة سنته في الخطاب فتجمع النصوص ليُخرج من مجملها بفهم مراد الشارع، قال شيخ الإسلام: (ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظٌ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث)[٢].

---

(١) شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٧/ ١١٦).

(٢) «الفتاوى»: (٧/ ١١٥).

وهذا متقررٌ حتى في فهم كلام الناس أنفسهم؛ فإنه لا بُدَّ من معرفة ما عناه المتكلم؛ إذ (دلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم، وأراده، وإرادته وعنايته في قلبه، فلا يعرف باللفظ ابتداءً، ولكن يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يعلم أولاً أن هذا المعنى المراد هو الذي يراد بذلك اللفظ ويعنى به)[١].

(ودلالة اللفظ على المعنى دلالةٌ قصدية إراديةٌ اختيارية فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى، فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عنايةٌ بألفاظ الرسول ﷺ ومراده بها عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره)[٢].

ويفهم مقصود الشارع الحكيم سبحانه أيضاً من السنة وأقوال الصحابة والتابعين قال الإمام أحمدبن حنبل ـ رحمه الله ـ: (وإن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه أو أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ، ويعرف ذلك بما جاء عن النبي ﷺ أو عن أصحابه فهم شاهدوا النبي ﷺ وشهدوا تنزيله، وما قصه الله له في القرآن، وما عنى به، وما أراد الله به أخاص هو أم عام؟ فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله ﷺ ولا أحدٍ من الصحابة فهذا تأويل أهل البدع)[٣].

إن المخاطب يفهم معنى اللفظ بمعرفة عين المقصود؛ فالزكاة لم تعرف من منطوقِ الأمر بها، وإنما عُرِفت من مجموع نصوصها الواردة في الترغيب بها، وأنصبائها، ومعرفة المخرج منه الزكاة من الأموال، ومقدار المخرج ومستحقيها،

---

(١) ابن أبي العز الحنفي: «شرح العقيدة الطحاوية»: (١/ ٦٥).

(٢) شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٧/ ١١٥).

(٣) نقلاً عن ابن تيمية: «كتاب الإيمان»: (٣٧٣ـ ٣٧٤).

وبهذا عرفت عينها، قال الإمام ابن أبي العز الحنفي ـ رحمه الله ـ: (اعلم أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها، ويكون بينها قدرٌ مشترك ومشابهة في أصل المعنى، وإلا فلا يمكن تفهيم المخاطبين بدون هذا قط)(١). ولذلك تميز تفسير الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وكذلك تميز بيانهم للسنة فإنهم:

* تلقوا عن نبينا محمد ﷺ المعاني كما تلقوا الألفاظ وكانوا أحرص الناس على تعلم الكتاب وتدبره، وفهم السنة.

* وعايشوا التنزيل، ورأوا من النبي ﷺ أحواله ومشاهده وعلموا مقاصد التنزيل برؤية عين المراد، فليس من سمع وعلم، ورأى حال المتكلم كمن كان غائباً لم ير ولم يسمع أو سمع وعلم بوسائط كثيرة(٢).

والمرد في فهم الألفاظ الشرعية ليس إلى اللغة فحسب، بل هو إلى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، بل إذا عرف تفسير تلك الألفاظ من جهة الشرع فلا حاجة إلى كلام أهل اللغة والاستدلال به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (ومما ينبغي أن يُعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرِف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم)(٣).

فأسماء الإيمان والإسلام والنفاق والكفر ـ مثلاً ـ قد بين الرسول ﷺ المراد بها بياناً شافياً لا يُحتاج معه إلى الاستدلال بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك، وعليه فالواجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ـ عز وجل ـ

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية»: (١/ ٦٤).

(٢) ينظر: ابن القيم: «مختصر الصواعق»: (٢/ ٣٤١ـ٣٤٧).

(٣) «الفتاوى»: (٧/ ٢٨٦).

ورسوله محمد ﷺ فإنَّه شاف كاف(١).

ذلك أن الأسماء ثلاثة أنواع:

**الأول**: يعرف حده بالشرع مثل: الإيمان، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج.

**الثاني**: يعرف حده باللغة مثل: الشمس، القمر، الليل، النهار.

**الثالث**: يعرف حده بالعرف مثل: القبض(٢).

والألفاظ الشرعيةوإن كانت عربية في الأصل إلا أنه لا بد من معرفة مراد الشارع الذي نقل تلك الألفاظ عن مدلولاتها الأصلية إلى معانٍ بينها وبين المعنى الأصلي نوع اشتراك إذ (جنس ما دل عليه القرآن ليس من جنس ما يتخاطب به الناس، وإن كان بينهما قدرٌ مشترك، فإن الرسول ﷺ جاءهم بمعانٍ غيبية لم يكونوا يعرفونها، وأمرهم بأفعالٍ لم يكونوا يعرفونها، فإذا عبر عنها بلغتهم كان بين معناه وبين معاني تلك الألفاظ قدرٌ مشتركٌ، ولم تكن مساويةً بها، بل تلك الزيادة التي هي من خصائص النبوة لا تعرف إلا منه)(٣).

فالصلاة في أصل اللغة الدعاء فجاء الشرع مخصصاً الصلاة بأقوال وأفعال وهيئات معينة.

والزكاة في أصل اللغة هي النماء والزيادة فجاء الشرع مخصصاً معناها بما يدفع من حق معلوم لمستحقيه باعتبار ذلك الدفع طريقاً للنماء والزيادة.

والصوم في أصل اللغة مطلق الإمساك فجاء الشرع مخصصاً معناه بالامتناع عن أشياء معينة في أوقات معينة.

---

(١) ينظر: شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٧/ ٢٨٦ - ٢٨٧).

(٢) ينظر: شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٧/ ٢٨٦).

(٣) ابن القيم: «مختصر الصواعق»: (٢/ ٣٤٧).

والحج في أصل اللغة: القصد، فخص الشرع ذلك القصد بأنه القصد لبيت الله الحرام لأداء أعمال معينة.

فالشرع إذاً لم ينقل تلك الألفاظ ـ وغيرها ـ عن معانيها اللغوية بالكلية، ولم يبق عليها كما هي في أصل اللغة، بل خصت تخصيصاً شرعياً ببعض مواردها كما أن عُرْف الناس يخصص بعض الألفاظ ببعض مواردها[١].

وإذا أعرض المرء عن هذا المنهج السلفي في فهم القرآن فإنه يصير إلى أحد ثلاث طرق:

**الطريق الأولىٰ**: أن يستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خيرٌ فيعدلُ عن الطريق التي فيها العلوم اليقينية، والأمور الإيمانية، ويبني كلامه في التنزيل على الرأي المجرد، والعقل، والأهواء دون اعتبارٍ للنصوص، وأقوال الصحابة والتابعين، وهذا الفعل متوعدٌ عليه بالنار فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علمٍ فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

---

(١) ينظر: ابن تيمية: «الفتاوى»: (٧/ ٢٩٨ـ ٣٠٢)، وابن قيم الجوزية: «مختصر الصواعق»: (٢/ ٣٤٧).

(٢) رواه الترمذي في «سننه»: (٥/ ١٩٩، رقم ٢٩٥٠)، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وفي (٥/ ١٩٩، رقم ٢٩٥١) بمعناه، وقال: «هذا حديث حسن»، وفي (٥/ ٢٠٠، رقم ٢٩٥٢)، في الباب نفسه بمعناه، وفي سند هذا الحديث الأخير سهيل بن أبي حزم. قال عنه الترمذي: (وقد تكلم أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم).

ورواه أبو داود في «سننه» بمعناه: (٤/ ٦٤، رقم ٣٦٥٢)، كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، والبغوي في «شرح السنة»: (١/ ٢٥٧ـ ٢٥٩، رقم ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠)، كتاب العلم، باب من قال في القرآن بغير علم، وقد حسَّن الحديث من طريقين، وسكت عن طريق.

**الطريق الثانية**: أن يأخذ بظواهر النصوص من غير تدبر، ولا نظر في مقاصدها ومعاقدها، فيبادر إلى تفسيرها بمجرد ظاهر اللغة، وفهم العربية، وبهذا يكثر الغلط في فهم التنزيل.

ومن جرى على الأخذ بالظواهر تناقضت عليه السور والآيات وصارت الأدلة متعارضة بين يديه ينقض بعضها بعضاً.

واعتبر ذلك بهذا المثال:

يقول الله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨١].

فإن الناظر في الآية لأول وهلة يَعُدُّ الكاسب للسيئة كافراً بمعصيته مخلداً في النار، ولكن عند التأمل في الكتاب العزيز نجد أن السيئة والخطيئة تطلقان على الشرك فما دونه من السيئات والخطايا.

فمن إطلاقها على الشرك قوله تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ [سورة نوح، الآية: ٢٥]، وقوله سبحانه في الآية السابقة: ﴿بلىٰ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ومن إطلاقها على ما دون الشرك قوله سبحانه: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ [سورة النساء، الآية: ٣١].

وقوله سبحانه على لسان إبراهيم: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٨٤].

وعليه فليست الآية كما يظهرلأول وهلةٍ من ظاهرها أنها دالة على أن مرتكب السيئة كافر، خصوصاً إذا رجعنا إلى الآيات المحكمة من مثل قوله تعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٨].

**الطريق الثالثة**: الأخذ بحرفية النص دون النظر إلى معانيه والمقصود منه بالنظر إلى سنة الشارع في الخطاب، بجمع النصوص والرجوع إليها في فهم المراد.

**مثال ذلك**: فهم قول النبي ﷺ: «سبابُ المسلم فسوقٌ وقتاله كفر»[١].

فإن الأخذ بحرفية قوله: «كفر» تدل على أن المسلم المقاتل لأخيه المسلم يكفر، ولكن المراد ليس ذلك بل المرادالكفر غير المخرج من الملة، بدليل قول الله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٠]، قال الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ: (فسماهم مؤمنين)[٢].

قال ابن حجر: (استدل المؤلف . . . على أن المؤمن إذا ارتكب معصية لا يكفر بأن الله تعالى أبقى عليه اسم المؤمن فقال: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾، ثم قال: ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾، كما استدل أيضاً بقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما»[٣]، فسماهما مسلمين مع التوعد بالنار)[٤].

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (٧/ ٨٤)، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، وفي (٨/ ٩١)، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ومسلم في «صحيحه»: (١/ ٨١، رقم ٦٤)، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، والترمذي في «سننه»: (٤/ ٣٥٣، رقم ١٩٨٣)، كتاب البر والصلة، باب ٥٢، والنسائي في «سننه»: (٧/ ١٢١، رقم ٤١٠١ ـ ٤١١٠)، كتاب تحريم الدم، باب قتال المسلم، وأحمد في «مسنده»: (١/ ٣٨٥، ٤١١، ٤٣٣، ٤٥٤ ـ ٤٥٥) من حديث عبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

(٢) «صحيح البخاري بشرحه فتح الباري»: (١/ ٨٤).

(٣) رواه البخاري: (١/ ١٣)، كتاب الإيمان: باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، و(٨/ ٣٧)، كتاب الديات: باب قول الله تعالى: ﴿ومن أحياها .﴾ الآية. ومسلم: (٣/ ٢٢١٣ ـ ٢٢١٤، رقم ٢٨٨٨، والحديثان بعده)، كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، وأحمد: (٤/ ٤١٨)، من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) «الفتح»: (١/ ٨٥).

فيكون المراد أيضاً بقوله: «كفر» ليس الكفر المخرج من الملة بل الكفر الأصغر غير المخرج من الملة، وقد أطلق على هذا الفعل اسم الكفر مبالغة في التحذير[1].

* * *

وقد كان التعامل المباشر مع النص دون نظرٍ في تفسيره ومعناه سبباً لانحراف الخوارج؛ فإنهم كانوا معرضين عن السنة وعن أقوال الصحابة، ويتعاملون مباشرة مع النص فيأخذون بظاهره وحرفيته.

ومن ذلك استشهادهم على إبطال التحكيم الذي قام به عليٌّ ومعاويةُ ـ رضي الله عنهما ـ بقوله سبحانه: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٥٧، وسورة يوسف، الآية: ٤٠، ٦٧]، والمعنى المأخوذ من الآية صحيح في الجملة، ولكنه على التفصيل وفي عين ما أرادوا غير صحيح، ولذلك ردّ عليهم عليُّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ قولهم فقال: «كلمة حق أريد بها باطل»[2]، ورد عليهم بآيات أُخر من مثل قوله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٥]، فقال في مجمع من الناس: (أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله، يقول تعالىٰ في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾، فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل)[3].

---

(١) ينظر ابن تيمية: «الاقتضاء»: (١/ ٢٠٨)، وابن حجر: «الفتح»: (١/ ١١٣).

(٢) رواه مسلم: (٢/ ٧٤٩)، كتاب الزكاة: باب التحريض على قتل الخوارج، حديث تابع لرقم ١٠٦٦.

(٣) سبق تخريجه ص (٢١٦).

وقد كان أهل البدع كلهم كذلك: يتعاملون مع النص تعاملاً مباشراً فيفهمون النصوص على مقتضى الآراء والأهواء وظاهر اللغة دون اعتماد على تفسير النبي ﷺ للقرآن، ودون الجمع بين النصوص والتأليف بينها، ودون الاعتداد بتفاسير الصحابة والتابعين يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (ولهذا تجدُ المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة، ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ، والصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة، والحديث، وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعها رؤوسهم، وهذه طريقة الملاحدة أيضاً إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة، وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها، هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه)[1].

ولذلك ضلوا، وانحرفوا عن الحق، وصاروا فرقاً وشيعاً ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ [سورة الروم، الآية: ٣٢].

ثم تتابع الانحراف بهذه الأسباب، فكان الواقعون في الغلو اليوم متميزين بهذا الأمر الذي كان من أسباب انحرافهم وصيرورتهم إلى الغلو في الدين.

فمن أمثلة ذلك: اعتمادهم على حرفية الكلمة دون النظر في مراد الشارع، كقولهم:

---

(١) «الفتاوى»: (٧/ ١١٩).

(إن لفظة الكفر ما جاءت في الشريعة إلا لتدل على عكس الإيمان وانتفائه، وهي تعبر عن حكم عام يشتمل على عدة أنواعٍ منه لكل نوعٍ منها اسمُ علمٍ خاص به كالفسق والظلم والخبث)[١]، مع أن المتأمل للنصوص الدارس لمرادات الشارع ومقصوده يجد أن لفظة الكفر تطلق على الكفر المخرج من الملة، والكفر غير المخرج من الملة. ومن أظهر الأدلة على ذلك من كلام رسول الله ﷺ حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: «أُريتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن قيل أيكفرن بالله، قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»[٢]. فهذا الحديث فيه التصريح البين أن لفظ الكفر يطلق على ما دون الكفر بالله المخرج من الملة، ولذلك بوَّب عليه الإمام البخاري بقوله: (باب كفران العشير، وكفرٌ دون كفر)[٣].

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ: (ومراد المصنف أن يبين أن الطاعاتِ كما تسمى إيماناً كذلك المعاصي تسمىٰ كفراً، لكن حيثُ يطلق عليها الكفرُ لا يراد الكفر المخرج عن الملة)[٤].

وقال النووي ـ رحمه الله ـ: (وفيه إطلاق الكفر على غير الكفر بالله تعالى ككفر العشير والإحسان، والنعمة، والحق، ويؤخذُ من ذلك صحة تأويل

---

(١) رسالة إجمال تأويلاتهم وإجمال الرد عليهم نقلاً عن محمد سرور: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (١٦١).

(٢) رواه البخاري: (١/ ١٣)، كتاب الإيمان، باب كفران العشير وكفرٌ دون كفر، ومختصراً: (٢/ ٢٨)، كتاب الكسوف: باب صلاة الكسوف جماعة، وأحمد مطولاً: (١/ ٣٥٨ـ ٣٥٩) من حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) «صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري»: (١/ ٨٣).

(٤) نقلاً عن ابن حجر: «فتح الباري»: (١/ ٨٣).

الأحاديث المتقدمة)[١].

وقد أدت بهم هذه الحرفية الظاهرية في فهم معنى الكفر إلى تكفير كل من عمل عملاً ورد وصفه أنه كفر أو ظلم أو فسق أو جاهلية.

ومن أمثلة تلك الحرفية الظاهرية في فهم النص استدلالهم على تكفير العاصي بقوله تعالى: ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٤]. ويقولون احذف المكرر من الآيتين ينتج المطلوب ويصبح من لم يتب كافرا[٢].

وهذا الاستدلال بهذا الأسلوب الحرفي الظاهري للنص غير صحيح إذ إن الظلم ليس كله كفراً فـ (الظلم المطلق يتناول الكفر ولا يختص بالكفر، بل يتناول ما دونه أيضاً، وكلٌّ بحسبه كلفظ «الذنب» و«الخطيئة» و«المعصية» فإنَّ هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيانَ فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تزني بحليلة جارك»[٣]. )[٤].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٢/ ٦٧).

(٢) ينظر في هذا الاستدلال ما نقله عنهم: محمد سرور زين العابدين: «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو»: (١٦١).

(٣) رواه البخاري: (٥/ ١٤٨)، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾، ومسلم: (١/ ٩٠، رقم ٨٦)، كتاب الإيمان، باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب، والنسائي: (٧/ ٨٩، رقم ٤٠١١)، كتاب تحريم الدم، باب ذكر أعظم الذنوب، والترمذي: (٥/ ٣٣٦، رقم٣١٨٢)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفرقان، وأبو داود: (٢/ ٧٣٢، رقم ٢٣١٠)، كتاب الطلاق، باب في تعظيم الزنا.

(٤) شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٧/ ٧٢).

فليس كل ظلمٍ كفراً بل الكفر المطلق هو الظلم المطلق[١].

ويدل على أن الظلم منه ما هو كفر ومنه ما ليس بكفر بل هو دون ذلك حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما أنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال رسول الله ﷺ: (إنَّه ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ [سورة لقمان، الآية: ١٣]. )[٢].

فتبين بهذا سوء هذا المنهج وما جرَّ إليه من انحرافات وغلو في الدين في القديم والحديث.

❑ ❑ ❑

(١) ينظر: شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٧/ ٧٤).

(٢) سبق تخريجه ص (٧٧).

## المطلب السادس

## الاجتهاد من غير أهلية

**تعريف الاجتهاد لغة:**

تدور الأحرف الأصلية لهذه الكلمة: (جهد) على معنى المشقة والجُهد بالضم الطاقة، ومنه قوله تعالى: ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٩].

وقال الأزهري: (الجهد «بالفتح» بلوغك غاية الأمر الذي لا تألوا على الجهد فيه، تقول: جَهَدتُ جهدي، واجتهدت رأيي ونفسي حتى بلغت مجهودي)[٢].

وبناء على ذلك فإن الاجتهاد لا يكون إلا فيما فيه كلفة ومشقة من الأفعال، ولذلك يقال: اجتهد في حمل الرحى، ولا يقال اجتهد في حمل خردلة[٣].

**تعريف الاجتهاد في الاصطلاح:**

عرّف بعض الأصوليين: الاجتهاد بأنه: (استفراغ الجهد في درك الأحكام الشرعية)[٤].

---

(١) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة: مادة جهد: (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).

(٢) «تهذيب اللغة»: (٦/ ٣٧) مادة: جهد، وينظر في معنى الاجتهاد لغة: ابن منظور: «لسان العرب»: مادة جهد: (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، والجوهري: «الصحاح»: مادة جهد: (٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١).

(٣) ينظر في ذلك: الغزالي: «المستصفى»: (٢/ ٣٥٠)، والبخاري: «كشف الأسرار»: (٤/ ١٤)

(٤) «شرح الأسنوي على المنهاج»: (٤/ ٥٢٤). وينظر في تعريف الاجتهاد: الغزالي: «المستصفى»: (٤/ ٣٥٠)، وابن الحاجب: «مختصر ابن الحاجب»: (٢/ ٢٨٩).

* **أهمية الاجتهاد:**

تتبدىٰ أهمية الاجتهاد من خلال النظر فيما يلي:

١ـ أن النصوص الشرعية محدودة ومحصورة، والمسائل والفروع كثيرة غير متناهية، إذ تتجدد في كل وقت، وتتنزل نوازل ليس للناس بها عهد من قبل، والشرع شرع متكامل ينتظم جوانب الحياة كلها، فيحتاج إلى إثبات أحكام شرعية لتلك المسائل والنوازل بعمل هو الاجتهاد، وذلك بإثبات الأحكام الشرعية عن طريق الأدلة التفصيلية إذا كان ثمة دليل فردٌ حاكم في النازلة، أو بردها إلى نظائرها وهو ما يسمى بالقياس، أو ردها إلى القواعد الشرعية العامة التي تندرج تحتها، ومن تلك القواعد: تحريم الضرر «لا ضرر ولا ضرار»، ورفع الحرج، وتحريم الخبائث. أو بالرجوع إلى مصادر التشريع الأخرى كالمصالح المرسلة أو الاستحسان أو العرف وغير ذلك.

٢ـ أن النصوص الشرعية ينظر إليها من جهتين: الثبوت والدلالة. فأما نصوص القرآن فهي قطعية الثبوت، ولكن أكثر نصوص السنة غير قطعية الثبوت فيحتاج إثبات صحة نص ما إلى الاجتهاد في النظر لرجال السند، والنظر في المتن، وبعد ذلك النظر في دلالتها على المراد ليثبت بها حكم من الأحكام، ثم إن نصوص القرآن وإن كانت قطعية الثبوت فإن الحاجة قائمة للنظر في دلالتها ـ إن لم تكن قطعية ـ لإثبات الحكم بنص من القرآن.

٣ـ أن هناك عوارض تعرض للأدلة، فهناك: التخصيص والتقييد، وهناك تعارض فيما يظهر للناظر ـ أول وهلة ـ بين النصوص، ولا بد من ناظر لدفع ذلك التعارض، والجمع بين النصوص، وإظهار الائتلاف فيما بينها فيكون هناك نصٌّ مخصصٌ لنصٍ ونص مقيدٌ لنص، ونص مبين لنص، ونص

ناسخ لنص وهكذا.

وهذا الأمر يحتاج إلى مؤهل هو: المجتهد، المطلع على النصوص العارف لأساليبها، القادر على فهمها.

هذه ثلاث فوائد تُظْهِرُ على جوانب من أهمية الاجتهاد، وتبين جلالة هذا العمل وعظمته، الأمر الذي جعل النبي ﷺ يثبت للقائم به الأجر على كل حال سواء أخطأ أم أصاب مادام قصده الحق.

- **شروط الاجتهاد:**

ذكر العلماء للاجتهاد شروطاً معينة تؤهل صاحبها للاجتهاد والنظر في النصوص، وقد اختلفت أساليب الأصوليين في عرض هذه الشروط، فمنهم من أجمل ومنهم من فصَّل، وجملة ما قالوه في ذلك يمكن تلخيصه فيما يلي:

**الشرط الأول**: أن يكون المجتهد بالغاً عاقلاً؛ لأن من لا يستطيع النظر في مصلحة نفسه لا يمكنه النظر في المصالح العامة.

**الشرط الثاني**: أن يكون عارفاً بربه سبحانه وتعالى وما له من الكمالات وما يستحقه من الصفات، مصدقاً بالرسول ﷺ وما جاء به من الشرع المنقول إلينا.

**الشرط الثالث**: أن يكون عالماً بكتاب الله عز وجل وما تضمنه من آيات الأحكام، وما يتعلق بدلالات ألفاظها ومعانيها، وأسباب نزولها، وقد اختلف الأصوليون في حصر الآيات التي يشترط للمجتهد العلم بها، وبعضهم قال: يكفيه العلم بمواضعها والإلمام العام بها.

**الشرط الرابع**: معرفة الأحاديث المتعلقة بالأحكام سواءٌ أكانت قولية أم فعلية أم تقريرية، وما يتعلق بها من جهة الثبوت والصحة، ولا يعني ذلك حفظ جميع السنة بل يكفي التمكن من الرجوع إليها في مصادرها، ومعرفة مواقعها في كتب السنة.

**الشرط الخامس**: أن يكون عالماً بمواقع الإجماع، حتى لا يجتهد فيما سبق فيه الإجماع، ويكفيه أن يعلم أن فتواه غير مخالفة للإجماع؛ لا أنه يحيط بجميع المسائل المجمع عليها.

**الشرط السادس**: أن يكون عالماً بقواعد اللغة العربية، وطرق دلالتها على معانيها، وما يعينه على فهم معاني الكتاب والسنة اللذين جاءا بلسان عربي، ولا يعني هذا أن يكون متبحراً في دقائق علوم النحو واللغة، بل يكفيه درك ما يمكن من الاجتهاد واستنباط الأحكام من النصوص.

**الشرط السابع**: أن يكون عالماً بمقاصد الشريعة، وقواعدها العامة، وخبيراً بواقع الناس وأحوالهم وعاداتهم؛ لأن فهم النصوص متوقف على معرفة ذلك، كما أن الأحكام الجزئية عائدة إلى أصول وقواعد كلية وأهداف عامة، إذا أحاط بها أمكنه أن يوفق بين هذه الأحكام، وعند التعارض بين المصالح أو بين المصالح والمفاسد أو بين المفاسد يرجح ما هو أقرب إلى مقاصد الشارع الحكيم.

**الشرط الثامن**: أن يكون عالماً بالقياس بحيث يلم بشروطه، وأركانه، وأقسامه ويكون قادراً عليه لاستنباط الأحكام غير المنصوص عليها، وردّها إلى نظائرها المنصوص عليها.

**الشرط التاسع**: أن يكون عالماً بعلم أصول الفقه وبخاصة ما يعينه على إدراك الأحكام واستنباطها، إذ مدار الاجتهاد على العلم بأصول التشريع، وطرائق الاستنباط، وعوارض الأدلة، وطرق دفعها.

فهذه جملة الشروط وأهمها، وإن كان ثمة شروط أخرى ذكرها بعض الأصوليين، وهي من الشروط المختلف فيها، أو التي ليس لها من الأهمية مثل ما ذكرت من الشروط.

وهذه الشروط هي المتعلقة بالمجتهد المطلق، أما المجتهد المقيد فلا يطلب منه من هذه الشروط إلا مقدار ما يخص الجزئية التي يجتهد فيها[1].

* **خطورة الاجتهاد من غير أهلية:**

إن الاجتهاد المعتبر شرعاً، والذي يرفع به الوزر، ويثبت به الأجر للمجتهد هو ما كان واقعاً ممن هو أهل للاجتهاد، أما غير المؤهل: فهو وإن زعم الاجتهاد فليس له ذلك لافتقاره إلى أدواته ومؤهلاته، وكلامه إذ ذاك إنما هو دائر بين الظن والهوى، وكلاهما مؤدٍ بصاحبه إلى خلاف الشرع.

يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (الاجتهاد الواقع في الشريعة ضربان: أحدهما: الاجتهاد المعتبر شرعاً، وهو الصادر عن أهله الذين اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر إليه الاجتهاد . . . والثاني: غير المعتبر، وهو: الصادر عمن ليس بعارفٍ بما يفتقر الاجتهاد إليه، لأن حقيقته أنه رأي بمجرد التشهي، والأغراض، وخبط في عماية، واتباع للهوى، فكل رأي صادر على هذا الوجه فلا مرية في عدم اعتباره؛ لأنه ضدّ الحق الذي أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . . . الآية﴾ [سورة ص، الآية: ٢٦]، وهذا على الجملة لا إشكال فيه)[2].

---

(١) ينظر الشافعي: «الرسالة»: (٥٠٩ ـ ٥١٠)، و«الأم»: (٧/ ٢٧٧، فما بعدها)، والغزالي: «المستصفى»: (٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٤)، والآمدي: «الإحكام في أصول الأحكام»: (٤/ ١٦٢ ـ ١٦٤)، والبخاري: «كشف الأسرار»: (٤/ ١٥)، وابن قدامة: «روضة الناظر»: (٣/ ٩٦٠ ـ ٩٦٤)، والشوكاني: «إرشاد الفحول»: (٢/ ٢٩٧ ـ ٣٠٣)، والشاطبي: «الموافقات»: (٤/ ١٠٥، وما بعدها)، والأسنوي: «نهاية السول»: (٤/ ٥٤٧، وما بعدها).

(٢) «الموافقات»: (٤/ ١٦٧).

ويحصل باجتهاد غير الأهل نتيجتان بيّنهما النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عنه عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علمٍ فضلوا وأضلوا»(١). فالنتيجتان هما: الضلال والإضلال، يضلون هم بإفتاء الناس بالباطل، وقولهم على الله عز وجل بغير علم، وهذا أمر خطير، إذ القول على الله عز وجل بغير علم قد يؤدي إلى الشرك، وقد يؤدي إلى ارتكاب منكرات عظيمة، أو ترك واجبات عظيمة. ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣٦]، وقال: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣٣].

ويضلون الناس الذين اتبعوهم إذا التزموا قولهم وبنوا على فتواهم فكانت طريقاً لضلالهم. وحينذاك يهلك المجتمع بل إن تبعة الحكم تكون على من تصدى للاجتهاد والإفتاء وهو غير أهل، فلقد سمّى الرسول ﷺ موت رجل بسبب فتوى مَنْ جهل الحكم قتلاً لذلك الرجل. فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرجنا في سفرٍ فأصاب رجلاً منا حجر فشجّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل، فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري: (١/ ٣٣ ـ ٣٤)، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، وفي (٨/ ١٤٨)، كتاب الاعتصام، باب ما يذكر في ذم الرأي وتكلف القياس، ومسلم: (٤/ ٢٠٥٨، رقم ٢٦٧٣)، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ واللفظ للبخاري.

أُخبر بذلك، فقال: قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِيّ السؤال»(١).

وإنما يقع الانحراف عن الحق بأسباب من ضمنها: الاجتهاد من قومٍ لا يملكون أهلية الاجتهاد والنظر في النصوص.

وإيجاب الاجتهاد أو التقليد زاغ فيه أقوام، فكانوا طرفين:

طرفاً يوجب التقليد، وطرفاً يوجب النظر والاجتهاد على كل أحد. والحق بينهما. قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ مقرراً ذلك: (المسائل الفروعية من غالية المتكلمة والمتفقهة من يوجب النظر والاجتهاد فيها على كل أحد حتى العامة، وهذا ضعيف؛ لأنه لو كان طلب علمها واجباً على الأعيان فإنما يجب مع القدرة، والقدرة على معرفتها من الأدلة المفصلة تتعذر أو تتعسر على أكثر العامة. وبإزائهم من أتباع المذاهب من يوجب التقليد فيها على جميع من بعد الأئمة: علمائهم وعوامهم .. والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة، والتقليد جائز في الجملة، لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون الاجتهاد، وأن الاجتهاد: جائز للقادر على الاجتهاد، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد. وأما: القادر على

---

(١) رواه أبو داود: (١/ ٩٣، رقم ٣٣٦، ٣٣٧)، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، والدارمي في «سننه»: (١/ ١٥٧، رقم ٧٥٨)، الطهارة، باب المجروح تصيبه الجنابة، وابن ماجه: (١/ ١٨٩، رقم ٥٧٢)، الطهارة، باب في المجروح تصيبه الجنابة، والدارقطني: (١/ ١٩٠، رقم ٧)، الطهارة، باب جواز التيمم، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ١٧٨)، الطهارة، باب كيف يغتسل من احتلم. قال محقق «سنن الدارمي»: «رواه الحاكم وقد أقام إسناده وهو صحيح على شرط الشيخين، قال في التنقيح: ورواه أيضاً الدارقطني والبيهقي وضعفاه، ولكن تعاضدت طرق حديث الباب فصلح للاحتجاج به ولذا صححه ابن السكن ...» ينظر: «سنن الدارمي»: (١/ ١٥٧ ـ ١٥٨).

الاجتهاد فهل يجوز له التقليد؟ هذا فيه خلاف، والصحيح أنه يجوز حيث عجز عن الاجتهاد: إما لتكافؤ الأدلة، وإما لضيق الوقت عن الاجتهاد، وإما لعدم ظهور دليل له فإنه حيث عجز سقط عنه وجوب ما عجز عنه، وانتقل إلى بدله وهو التقليد)[١].

ومن غلا في ذلك من المعاصرين جماعة شكري مصطفى حيث ألزموا الناس كلهم بالاجتهاد، يقول شكري مصطفى في صفة الجماعة المسلمة (جماعته): (هي جماعة واحدة لها أمير واحد، سندها كتاب الله، والسنة، يكفرون بالتقليد، وكل مسلم فيها مجتهد لا مجال فيها للفرق والمذاهب والأحزاب، بل كلها حول أميرها معتصمون بحبل الله)[٢].

وفي حوار بين أحد الأساتذة المهتمين بالموضوع وبعض الواقعين في الغلو ما يدل على هذا حيث قال لهم:

(الذي أخشاه أن فقد الثقة بالعلماء سيحملكم على أحد أمرين أو على الأمرين معاً: وهو الاجتهاد من غير استعداد كافٍ، ومعرفة تؤهل لذلك، أو العودة للكتب والأخذ عنها دون الاستعانة بأحد، وفي الاثنين من المخاطر ما فيهما.

قال أحد الشباب: لقد وقعنا في الاثنين معاً، ففي السجن الاجتهاد، والذي خرج من السجن يقرأ في الكتب، وبعضنا لم يدرس اللغة العربية إلا في المدارس الرسمية، والذين درسوا «علمي» لا يذكرون من العربية وقواعدها وآدابها شيئاً، وهم داخل السجن يفتون وكل اعتمادهم على القرآن والسنة، أما الذين يخرجون من السجون فيبحثون في الكتب دون خبرة ولا مرشد لهم.

---

(١) «الفتاوى»: (٢٠/٢٠٣-٢٠٤).

(٢) «الحجيات»: (١٤).

وقال بعضهم: إني لأجد الحديث النبوي فأفرح به، ثم بعد مدة أجد حديثاً آخر لكنني لا أعرف كيف أجمع بينهما.

وضرب مثلاً: الأحاديث التي تدعو إلى الخروج على الحاكم الظالم، وإن قتل فهو شهيد أو سيد الشهداء، وهناك أحاديث تمنع الخروج مطلقاً)[١].

إن هذا الحوار يجسد مدى ما وصل إليه بعض من وقع في الغلو من اجتهاد في النظر في النصوص دون أهلية لذلك الاجتهاد، ولقد بلغوا في هذا مبلغاً لا يحق لعالم مجتهد أن يبلغه فضلاً عن غير العالم وهو الاجتهاد في الأمور القطعية التي لا اجتهاد فيها، وفي الأمور المعلومة من الدين بالضرورة.

لقد أفتت جماعة شكري مصطفى ـ على سبيل المثال ـ بوجوب إيقاف صلاة الجمعة وحرمة إقامتها، فقالوا: (إن فريضة الجمعة لها شروط إذا توافرت أقيمت الفريضة، وإلا توقفنا عنها حتى تستوفى شروطها، وشرطوا في إقامة الجمعة التمكين في الأرض، فلا جماعة مع الاستضعاف)[٢].

□ □ □

(١) نعمان السامرائي: «التكفير: جذوره، أسبابه، مبرراته»: (١٥).

(٢) ينظر رجب مختار مدكور: «التكفير والهجرة وجهاً لوجه»: (١٩٩ ـ ٢٠٠).

## المطلب السابع

## الإغراق في الاهتمام بأحاديث الفتن

تستأثر أحاديث الفتن المحذرةُ منها، والمبينةُ لها بمكانٍ كبير من أحاديث الرسول ﷺ وهو جارٍ في ذلك على سنن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذين حذروا كلهم من أعظم الفتن: فتنة المسيح الدجال، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «ما بُعث نبيٌّ إلا أنذر أمته الأعور الكذّاب، ألا إنه أعور وإنَّ ربكم ليس بأعور، وإنَّ بين عينيه مكتوب: كافر»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصِ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإنَّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمور تنكرونها»(٢).

وتحذيره ﷺ من الفتن جزءٌ من كمال هذه الشريعة، فلم يمت - عليه الصلاة والسلام - إلا وقد حذر أمته من كل شرٍّ وبلاء يصيبها، والفتن من جملة تلك الشرور فعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال: «لقد خطبنا النبي ﷺ خطبةً ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره علمه من علمه وجهله من

---

(١) رواه البخاري: (٨/ ١٠٣)، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال.

(٢) رواه مسلم، واللفظ له: (٢/ ١٤٧٣، رقم ١٨٤٤)، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، والنسائي: (٧/ ١٥٣، رقم ٤١٨٨)، كتاب البيعة، باب ذكر ما على من بايع الإمام وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، وابن ماجه: (٢/ ١٣٠٦، رقم ٣٩٥٦)، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن.

جهله، إنْ كنت لأرى الشيء قد نسيتُ فأعرفه ما يعرف الرجُلُ إذا غاب عنه فرآه فعرفه»(١).

ومن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ اهتم حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ بأحاديث الفتن، وكان يقول عن نفسه: «إنَّ أصحاب النبي ﷺ كانوا يسألون عن الخير، وكنتُ أسأل عن الشر مخافة أن أدركه»، وفي رواية: «وكنت أسأل عن الشر كيما أعرفه فأتقيه، وعلمتُ أن الخير لا يفوتني»(٢).

لقدِ شاء الله سبحانه أن يحبب (إلى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير ليعملوا بها وليبلغوها غيرهم، وحُبب إلى حذيفة السؤال عن الشر ليجتنبه، ويكون سبباً في دفعه عمّن أراد الله له النجاة، وكل من حبب إليه شيء فإنَّه يفوق فيه غيره، ولهذا كان حذيفة صاحب السر الذي لا يعلمه غيره حتى خُصّ بمعرفة بعض المنافقين، وبكثير من الأمور الآتية أي التي ستقع»(٣).

ولكن شأن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ في اهتمامه بأحاديث الفتن يجب ألاَّ يتخذ تعلة للإغراق في دراستها، وإغفال أبواب العلم الأخرى لأمور أهمها:

١ ـ أن عمل حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ لا يعطي قاعدة عامة بل هو استثناء من الأصل، ومن أغرق في دراسة أحاديث الفتن قد قلب الأمر فجعل عمل حذيفة هو الأصل بعذر معرفة الشر.

---

(١) رواه البخاري: (٧/ ٢١١ ـ ٢١٢)، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ومسلم: (٣/ ٢٢١٧، حديث تابع لرقم ٢٨٩١)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى يوم القيامة، وأبو داود: (٤/ ٤٤١، رقم ٤٢٤٠)، كتاب الفتن والملاحم.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٤٣٢)، كتاب الفتن والملاحم.

(٣) ابن أبي جمرة: «بهجة النفوس»: (٤/ ٢٦١).

٢ـ أنه لا مانع من قيام بعض العلماء وطلبة العلم بهذا الأمر اقتداء بحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ لكن مع مراعاة نسبة حذيفة ـ رضي الله عنه ـ للصحابة الذين كانوا يسألون عن الخير، فجمهور الصحابة بل كلهم كان يتعلم الخير، ويحرص عليه قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يسألون عن الخير، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أدركه».

٣ـ أن حجم أحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان بالنسبة إلى الأحاديث الأخرى قليل فيجب أن تكون دراسة الأحاديث المتعلقة بالعلوم الشرعية موازية لحجمها، وكذلك دراسة أحاديث الفتن موازية لحجمها.

٤ـ أن العمل المبني على أحاديث الفتن أقل بكثير من العمل المبني على ما سواها من الأحاديث، إذ هو من باب الحماية من الشر في حين أن العمل المبني على بقية الأحاديث كبير جداً، مثل: قيام المعتقد السليم، والعمل الصائب، وعلى الالتزام بها تنبني النجاة في الأولى والآخرة.

٥ـ أن مقصد بعض المعاصرين في الاهتمام بأحاديث الفتن ومنهجهم في فهمها غير مقصد حذيفة ـ رضي الله عنه ـ ومنهجه، فاهتمام المعاصرين المغرقين في دراسة أحاديث الفتن إما لمجرد العلم، وإما لتأويلها على الوقائع، وإما لالتماس العذر في القعود عن العلم والعمل، وإما للتسلية بانتظار الخوارق والأحداث الجسام التي يحصل بها صلاح الأمة كظهور المهدي.

وأما منهج حذيفة في اهتمامه بأحاديث الفتن فهو قائم على مقصد شرعي هو: تحقيق الحماية لنفسه وللمسلمين من الشرور والفتن، ثم إنه كان يهتم بأحاديث آخر الزمان ليظهر الناسُ، وليظهر هو على أمرلم يكن معروفاً، فهذا مسوغٌ واضحٌ لاهتمامه، أما بعد ذلك فقد دونت الأحاديث وعرفت ولا مجال للاستزادة، ومعرفة المزيد من الأخبار إلا من طريق تلك الأحاديث.

٦ ـ أنّ حذيفة لم يكن مقتصراً على تعلم الشرور والفتن، بل كان يتعلم الخير، ولكن رأى أن الشر لا يُسأل عنه الرسول ﷺ إذ كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يسألون عن الخير فأراد القيام بما لم يقوموا به، فكان يسأل عن الشر، وأما الخير فقد كفي أمره فهو يأخذه عن الآخرين، ولذلك كان يقول: «وعلمتُ أن الخير لا يفوتني»[1]، أي: علمت: أن هناك من يسأل عن الخير وأنا أسمع فأتعلم فلا يفوتني.

* * *

إنَّ أحاديث النبي ﷺ المتعلقة بالفتن وأخبار آخر الزمان مما يجب الإيمان بما صحَّ منها، كما يجب أن تأخذ مكانها اللائق بها من الاهتمام، فلا يركز عليها الإنسان ويغفل عمَّا عداها، ولا يغفل عنها، إذ من الملاحظ أن بُعد الناس عن قراءتها ـ مع طول الزمان ـ ينسيها من الأذهان فيقع الاستبعاد لها، أو الاستخفاف بها، أو الإنكار لوقوعها ممن لا علم عندهم، كما يحصل الجهل بسبل الخلاص منها، وطرق النجاة.

وخشية الوقوع في هذه المحذورات جعل السلف يهتمون بأحاديث الفتن، وخصوصاً تلك التي ينبني على العلم بها العلم بسبل النجاة قال السفاريني ـ رحمه الله ـ: (مما ينبغي لكل عالم: أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال وقد قال الإمام ابن ماجه: سمعت الطنافسي يقول: سمعت المحاربي يقول: ينبغي أن يدفع هذا الحديث، يعني حديث الدجال إلى المؤدِّب حتى يعلمه الصبيان في الكتّاب، وقد ورد أن من علامات خروجه نسيان ذكره على النَّاس)[2].

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٥١).

(٢) «لوامع الأنوار البهية»: (٢/ ١٠٦).

إن التوسط بين الإغراق والإغفال، وإعطاء أحاديث الفتن من الاهتمام نظير ما تستحقه، والحرص على المنهج الرشيد في فهمها يعصم بإذن الله من دخول الزيغ والانحراف من قبل سوء فهمها. لقد أغرق أقوامٌ في دراسة أحاديث الفتن، وأخبار آخر الزمان فاشتغلت أذهانهم بذلك حتى صاروا يفسرون الوقائع وأحداث الحياة المعاصرة بما علموه من أحاديث الفتن، بل صاروا يطبقون تلك الأحاديث التي هي من باب القدر المخبر عنه، لا من باب الشرع المأمور به في حياتهم وأضرب لذلك مثلين:

**الأول**: أن شكري مصطفى ألف كتاباً أسماه: «التوسمات» وهو كتابٌ يهدف في الجملة إلى دراسة الأوضاع العالمية في ضوء أحاديث الفتن، وأخبار آخر الزمان، مع التركيز على جماعته ليصور لأتباعه أنها الجماعة الوحيدة الملتزمة بمنهج الحق فهي الجماعة التي يجب اتباعها، وفي ذلك يقول شكري مصطفى: (إذا كنّا الجماعة المسلمة، وإذا اتفق على أننا الجماعة المسلمة المعنية في آخر الزمان، والتي ما إن تظهر حتى تظل ظاهرة غالبةً لا يضرها من خالفها حتى يقاتل آخرها الدجال، أو حتى تقوم الساعة)[1].

ويقول بعد أن أورد جملة من أحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان (هذه الإشارات بينت أننا سوف ندرك عيسى بن مريم ـ إن شاء الله ـ ولكن التحديد الزمني الدقيق لا نعلمه الآن . . . قد نعلمه بعد خروج الدجال، وقد نعلم وقت الملحمة بعد خراب يثرب، وقد نعلم خراب يثرب بعد عمران بيت المقدس . . . وهو يعمر الآن . . .

---

(١) (٣٨).

نحب أن يشرفنا الله أن نكون أتباع محمدٍ ﷺ خير أمةٍ أخرجت للنَّاس، وأصحاب عيسى الذين سوف يجد منهم خلفاء من حوارييه، والذي سيكون فيهم خير جيش وخير الشهداء، وفيهم خير الفرسان، كما أخبر رسول الله ﷺ نحب أن يشرفنا بذلك)(١).

ويقول في آخر كتابه «التوسمات»: (وأخيراً فإن من علامات دمار الكفر وظهور دولة الإسلام: أولاً: ظهور جماعة الحق(٢) التي أخبر عنها رسولُ الله ﷺ والتي يستقيم أولها استقامة كاملةً على أمر الله، ويقاتل آخرها الدجال، وحتى ينزل عيسى بن مريم، هذه الجماعة التي وضعت حداً فاصلاً بين الكفر والإسلام في وقت كثير فيه الضلال والمضللين(٣) ووضعت الحد الفاصل بين من هو مسلم ومن هو كافر، وهي قضية لن يكون إسلام ولا مسلمون إلا بمعرفتها، وتكلمت عن قضية الأسماء التي لن يستقيم للإنسان عبودية إلا إذا تلقى اسم(٤) من عند الله، وتكلمت عن قضية الإصرار، وتكلمت عن قضية الشروط، وتكلمت عن قضية الحكم وأسس المجتمعات، وتكلمت عن قضية الهجرة، وبينت أن الإسلام لن يعود إلا كما بدأ، وأخيراً تكلمت في موضوع التوسمات، وذلك الموضوع الذي تناولناه وفصَّلناه على علمٍ من القرآن والسُّنَّة، هذا فضلاً عن كلامها في موضوع الكبيرة والصغيرة، وموضوع التوقف وموضوعاتٍ أخرى.

ثانياً: جفاف بحيرة طبرية، وعدمُ إثمار نخل بيسان وجفاف عين زغر وقد حدث كل هذا.

---

(١) المصدر نفسه: (٥٤).

(٢) يعني جماعته كما تدل على ذلك النصوص السابقة واللاحقة من الكتاب ذاته.

(٣)، (٤) كذا في الأصل.

ثالثاً: علو اليهود في الأرض، وسيطرتهم الآن على العالم، وإن كانت بصورة لازالت خفية.

رابعاً: عمرانُ بيت المقدس وهو الآن يعمر)[١].

وواضح من هذا النص ربطه بين جماعته والأحداث التي تقع في آخر الزمان، حيث تكلم عن جماعته، وذكر جملاً من أصول منهجها، ثم تكلم عن بعض الأمور التي أخبر بها النبي ﷺ وهو بهذا يريد تأكيد وضع جماعته بأنها جماعة الحق، وإن من عداها ليس بمسلم، وأن الدخول في ولاء هذه الجماعة شرط من شروط الإيمان، إذ يقول في كتابه «الخلافة»: (إن الولاء لله تعالى ولرسوله لا يتمثل من الناحية العملية بداهة إلا في الدخول في ولائها [أي جماعة المسلمين = جماعته] وأن الله تعالى إنَّما أوجب ترك موالاة جماعات الكفر للوقوع في ولائه وولاء حزبه، وأنَّه كما قال ولاءان وتجمعان ونظامان الكفر والإسلام وليس لأحد أن يقع إلا في أحدهما)[٢].

**الثاني**: لقد اشتغل أقوام بأحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان حتى أداهم ذلك إلى محاولة إخراج المهدي من بين صفوف جماعتهم كما وقع في المسجد الحرام عام ١٤٠٠هـ حيث ادعى قومٌ المهدية لرجل منهم، وترتب على فعلهم ذلك استحلال محارم الله بالإلحاد في بيته الحرام، وسفك الدماء وقتل النفوس المعصومة، ومنع المسلمين من الصلاة في المسجد الحرام، فقد جمعوا بين الاهتمام الزائد بتلك الأحاديث وسوء منهج فهمها بتطبيقها وتأويلها على أشخاص وأعيان حُدِدوا بغير علمٍ ولا برهان، والإلحاد في البيت الحرام.

وأختم الكلام عن هذا السبب بملاحظةٍ هامة هي:

---

(١) (٥٤ـ٥٥).

(٢) (٣/٢٨).

أن أعمال الناس التي رتبت على أحاديث الفتن، وأخبار آخر الزمان ليست بقادحةٍ في الأخبار ذاتها، فكما أن ادعاء بعض الدجَّالين النبوة لا يقدح في أصل النبوة وإرسال الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فكذلك ادعاءُ بعض الدَّجالين المهدية ليس بقادحٍ في النصوص التي بينت خروج المهدي في آخر الزمان.

وليس تعطيل تلك الأحاديث وعدم دراساتها بمانع من دجل الدَّجالين، ومن الفهم السيء لأحاديث الفتن، ولو أخذنا بهذا فعطلنا تلك النصوص لقدحنا في كل النصوص، فلا يكاد نصٌّ من النصوص يسلم من سوء فهم بعض الناس، ولو أخذنا بهذا ـ أيضاً ـ لكذّبنا الله عز وجل ورسوله ﷺ ولعطلنا أحكام الشريعة فتحصل بذلك مفاسد عظيمة دينية ودنيوية.

□ □ □

## المطلب الثامن

## الاعتماد على الرؤى والأحلام

**معنى الرؤيا في اللغة:**

قال ابن فارس: (الراء والهمزة والياء أصل يدل على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة . . . والرؤيا معروفة، والجمع رؤى)[٢].

وفي «اللسان» و«القاموس»: الرؤيا ما رأيته في منامك، وجمع الرؤيا رؤىً بالتنوين[٢].

**معنى الحلم في اللغة:**

قال في «معجم مقاييس اللغة»: (الحاء واللام والميم أصول ثلاثة: الأول: ترك العجلة، والثاني: تثقب الشيء، والثالث: رؤية الشيء في المنام، وهي متباينة جداً، تدل على أن بعض اللغة ليس قياساً وإن كان أكثره منقاساً)[٣].

وفي «اللسان»: (والرؤيا والحلم عبارةٌ عمّا يراه النائم في نومه من الأشياء، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح)[٤].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: مادة (رأى): (٢/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٢) ابن منظور: «اللسان»: مادة (رأى): (١٤/ ٢٩٧)، والفيروزآبادي: «القاموس»: مادة (رأى): (٤/ ٣٣٣).

(٣) ابن فارس: مادة (حلم): (٢/ ٩٣).

(٤) ابن منظور: مادة (حلم): (١٢/ ١٤٥).

**معنى الرؤى والأحلام في الشرع واصطلاح العلماء:**

عُرِّفت الرؤى والأحلام بتعريفات عدة منها:

تعريف ابن القيم ـ رحمه الله ـ إذ يقول: (الرؤيا أمثالٌ مضروبة يضربها الملك الذي قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائي بما ضرب له من المثل على نظيره ويعبر منه إلى شبهه، ولهذا سمي تأويلها تعبيراً)[١].

ولكن هذا التعريف قاصرٌ على الرؤيا من الله عز وجل. غير مشتمل على الحلم وأحاديث النفس ولعل تعريف ابن العربي يشمل ذلك إذ يقول: (الرؤيا: إدراكات علقها الله تعالى في قلب العبد على يدي ملك أو شيطان إما بأسمائها أي حقيقتها وإما بكناها أي بعباراتها، وإما تخليط، ونظيرها في اليقظة الخواطر)[٢].

ولقد قال النبي ﷺ: «الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان»[٣]. فكان في ذلك الدلالة على التفريق بين الرؤيا والحلم قال ابن حجر: (وظاهر قوله: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» أن التي تضاف إلى الله لا يقال لها حلم، والتي تضاف للشيطان لا يقال لها رؤيا، وهو تصرفٌ شرعي، وإلا فالكل يسمى رؤيا)[٤].

مع أنه قد ورد في بعض الأحاديث: «الرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه»[٥].

---

(١) «إعلام الموقعين»: (١/ ١٩٥).

(٢) نقلاً عن ابن حجر: «فتح الباري»: (١٢/ ٣٥٢).

(٣) رواه البخاري في التعبير: (٩٥) باب الرؤيا من الله رقم٦٥٨٣، «فتح الباري» (١٢/ ٣٦٩).

(٤) «فتح الباري»: (١٢/ ٣٦٩).

(٥) رواه البخاري في «صحيحه»: (٨/ ٧٧)، كتاب التعبير، باب القيد في المنام، ومسلم في «صحيحه»: (٢/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣)، كتاب الرؤيا، واللفظ له، وأبو داود في «سننه»: (٥/ ٢٨٢، رقم ٥٠١٩)، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا.

فدل ذلك على أن الغالب استعمال الرؤيا في خصوص البشرى من الله مع أنها تطلق على عموم ما يراه النائم.

- **أنواع الرؤى والأحلام:**

دلت بعض الأحاديث على أن ما يراه النائم أقسام وسأذكر بعض تلك الأحاديث وأثني بتفصيل القول فيها:

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزءٌ من خمس وأربعين جزءاً من النبوة. والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس»[١].

٢ ـ عن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ «إنَّ الرؤيا ثلاث: منها: أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابنُ آدم، ومنها: ما يهم به الرجل في يقظته، فيراه في منامه. ومنها: جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[٢].

٣ ـ عن أبي قتادة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان»[٣].

وفي ضوء هذه الأحاديث يتبين لنا أن المرائي تنحصر في ثلاثة أقسام:

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٩).

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٢٨٥ ـ ١٢٨٦، رقم ٣٩٠٧)، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا ثلاث.

(٣) سبق تخريجه ص (٢٥٩).

**القسم الأول**: الرؤيا الصادقة وهي رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين وقد تقع لغيرهم نادراً.

**القسم الثاني**: الأضغاث وهي التي لا تنذر بشيء وهي نوعان:

النوع الأول: تلاعب الشيطان ليحزن الرائي: مثل أن يرى الإنسان أن رأسه قطع وأنه يتبعه، أو يرى أنه وقع في هولٍ ولم يجد من ينقذه.

النوع الثاني: أن يرى أن بعض الملائكة تأمره أن يفعل المحرمات مثلاً أو نحو ذلك من المحال عقلاً وشرعاً.

**القسم الثالث**: أحاديث النفس: بأن يرى ما تتحدث به نفسه في اليقظة أو يتمناه فيراه كما هو في المنام، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة أو ما يغلب على مزاجه ويقع عن المستقبل غالباً وعن الحال كثيراً وعن الماضي قليلاً [١].

* * *

ذهب بعض الناس إلى الاعتماد على الرؤى والمنامات واعتبارها حجة[٢].

والصحيح أن الرؤيا لا تعتبر حجة ولا مصدراً من مصادر التشريع ولا يجوز أن يبني عليها الإنسان حكماً شرعياً حلاً أو حرمة، كراهة أو استحباباً، أو غير ذلك من مثل تعيين مراد الله ورسوله ﷺ بتفسير الكتاب والسنة، وذلك لمدارك عدة منها:

١ـ أن الشرع قد تم فلا مجال للتشريع بعد وفاة الرسول محمد ﷺ يقول الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة، الآية: ٣].

(١) ينظر هذا التقسيم عند ابن حجر: «فتح الباري»: (١٢/ ٣٥٤).

(٢) ينظر ما نقله الشوكاني عن جماعة من أهل العلم دون تحديد لهم في «إرشاد الفحول»: (٢/ ٢٩١).

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: (ولا يخفاك أن الشرع الذي شرعه الله لنا على لسان نبينا ﷺ قد كمله الله عز وجل . . . ، ولم يبق بعد ذلك حاجة للأمة في أمر دينها، وقد انقطعت البعثة . . . بالموت)[١].

٢ـ أن الشارع قد حدد أدلة الأحكام ولم يترك الأمر في ذلك للناس ليصدروا عما يريدون، ولم يجعل من أدلة الأحكام ومصادر التشريع الرؤى والمنامات (ولم يأتنا دليل يدلُّ على أن رؤيته في النوم بعد موته ﷺ إذا قال فيها بقول أو فعل فيها، يكون دليلاً وحجة، بل قد قبضه الله إليه بعد أن كمل لهذه الأمة ما شرعه لها على لسانه)[٢].

٣ـ أن منابع الرؤى والأحلام متعددة فمنها: الرحماني ومنها النفساني ومنها الشيطاني كما تبين من الكلام السابق عن أقسام الرؤى والمنامات، ولا سبيل إلى العلم بالرحماني منها والشيطاني حتى يقبل هذا ويرد الآخر قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: (والرؤيا كالكشف: منها رحماني . . . ومنها شيطاني . . . ورؤيا الأنبياء وحي فإنها معصومة من الشيطان وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا. وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح فإن وافقته وإلا لم يعمل بها)[٣].

وقال الشيخ: عبد الرحمن المعلمي ـ رحمه الله ـ: (الرؤيا قصاراها التبشير والتحذير، وفي الصحيح: أن الرؤيا قد تكون حقاً وهي المعدودة من النبوة وقد تكون من الشيطان وقد تكون من حديث النفس والتمييز مشكل)[٤].

---

(١) «إرشاد الفحول»: (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٢) الشوكاني: «إرشاد الفحول»: (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٣) «مدارج السالكين»: (١/ ٥١).

(٤) «التنكيل»: (٢/ ٢٤٢).

٤ ـ أن الغالب أن الرؤيا حتى وإن كانت صادقة تكون على خلاف ظاهرها وتحتاج إلى تأويل، فتكون محتملة لمعانٍ ومقاصدها متعددة وإذا كان هذا شأنها فالاستدلال بها باطل قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي ـ رحمه الله ـ: (الغالب أن تكون على خلاف الظاهر حتى في رؤيا الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما قصَّ من ذلك في القرآن، وثبت في الأحاديث الصحيحة ولهذه الأمور اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحجة، وإنما هي تبشير وتنبيه وتصلح للاستئناس بها إذا وافقت حجة شرعية صحيحة)[١].

٥ ـ أن الرؤيا تكون والإنسان نائم، والنوم ليس حالة ضبط وتحقيق فلا يقبل قول الإنسان في هذه الحالة وترد روايته وشهادته، إن الحلم الذي يراه النائم وإن كان حقاً (لا يجوز إثبات حكم شرعي به لأن حالة النوم ليست حالة ضبط وتحقيق لما يسمعه الرائي، وقد اتفقوا على أن من شرط من تقبل روايته وشهادته أن يكون متيقظاً لا مغفلاً ولا سيء الحفظ ولا كثير الخطأ، ولا مختل الضبط، والنائم ليس بهذه الصفة فلا تقبل روايته لاختلال ضبطه)[٢].

فإن قيل بعد هذا فما فائدة الرؤى:

قيل فائدتها أن تكون مبشرة للعبد ففي الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشراتِ» قالوا:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) النووي: «شرح صحيح مسلم»: (١/ ١٥٥)، وينظر في هذا الموضوع: د. يوسف القرضاوي: «الإلهام والكشف والرؤى هل تعد مصادر للأحكام الشرعية» بحث منشور في حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في قطر، العدد السابع: (١١ ـ ٢٨)، وصادق سليم صادق: «المصادر العامة للتلقي عند الصوفية»: (٥٠٨ ـ ٥١١).

وما المبشرات؛ قال: «الرؤيا الصالحة»[١].

أو أن تكون منذرة (والمنذرة قد ترجع إلى معنى المبشرة لأن من أُنذر بها سيقع له ولو كان لا يسره أحسنُ حالاً ممن هجم عليه ذلك فإنه ينزعج ما لا ينزعج من كان يعلم بوقوعه فيكون ذلك تخفيفاً عنه ورفقاً به)[٢].

أو أن تكون للاستئناس لا للاعتماد وذلك حين توافق حجة شرعية صحيحة قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي ـ رحمه الله ـ: (اتفق أهل العِلم على أن الرؤيا لا تصلح للحجة، وإنما هي تبشير وتنبيه وتصلح للاستئناس بها إذا وافقت حجة شرعية صحيحة)[٣].

وتصلح للاستئناس حين تكون مطابقة للشرع منبهة عليه أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه فينتبه بالرؤيا على ذلك[٤].

ولا يستدل بالرؤى ويعتمد عليها إلا ضعيف العلم قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: (لا يستدل بالرؤيا في الأحكام إلا ضعيف المُنّة، نعم يأتي المرئي تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً، ولا يبنون عليها أصلاً، وهو الاعتدال في أخذها حسب ما فهم من الشرع فيها)[٥].

* * *

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (٨/ ٦٩)، كتاب التعبير، باب المبشرات.

(٢) ابن حجر: «فتح الباري»: (١٢/ ٣٧٢).

(٣) «التنكيل»: (٢/ ٢٤٢).

(٤) ينظر ابن القيم: «مدارج السالكين»: (١/ ٥١).

(٥) «الاعتصام»: (١/ ٣٣٦).

ولا ريب أن الشيطان قد يلبس على الناس أمر دينهم فيظهر لهم في المنام موجهاً لأعمال غير مشروعة، وقد يتمثل لهم حتى في اليقظة، والعاقل الأريب لا يجعل ذلك مصدراً تصدر عنه أقواله وأفعاله، وإنما يرجع إلى الوحي، عن حارثة ابن مضرب قال: (إنَّ النَّاس نودي فيهم بعد نومةٍ أنَّه من صلى في المسجد الأعظم دَخل الجنة فانطلق النساء والرجال حتى امتلأ المسجد قياماً يصلون.

قال أبو إسحاق: إن أمي وجدتي فيهم، فأتى ابن مسعود فقيل له: ادرك النَّاس، فقال: ما لهم؟ قيل: نودي فيهم بعد نومةٍ أنه من صلى في المسجد الأعظم دخل الجنة، فخرج ابن مسعودٍ يشير بثوبه: ويلكم اخرجوا لا تعذبوا إنَّما هي نفحةٌ من الشيطان، إنه لم ينزل كتابٌ بعد نبيكم، ولا ينزل بعد نبيكم، فخرجوا وجلسنا إلى عبد الله فقال: إن الشيطان إذا أراد أن يوقع الكذب انطلق فتمثل رجلاً فيلقىٰ آخر، فيقول له: أما بلغك الخبر، فيقول الرجلُ وما ذاك، فيقول: كان من الأمر كذا وكذا، فانطلق فحدث أصحابك، قال: فينطلق الآخر، فيقول: لقد لقينا رجلاً إني لأتوهمه أعرف وجهه زعم أنَّه كان من الأمر كذا وكذا وما هو إلا الشيطان)[1].

والرجوع إلى الرؤىٰ والمنامات من علامات أهل البدع فأهل السنة يرجعون إلى الكتاب والسنة والإجماع، وأهل البدعة يرجعون إلى المنامات والإسرائيليات قال شيخ الإسلام في بيان مصادر أهل السنة أنها: (الكتاب والسنة والإجماع، وبإزائه لقومٍ آخرين: المنامات، والإسرائيليات، والحكايات)[2].

---

(١) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها: (٨).

(٢) «الفتاوى»: (١٩/ ٥).

ولقد وقع انحراف بعض المبتدعة من المتصوفة وغيرهم بسبب اعتمادهم على الرؤى واستدلالهم بها قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ مبيناً هذا: (وأضعف هؤلاء احتجاجاً، قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المنامات[١] وأقبلوا وأعرضوا بسببها، فيقولون: رأينا فلاناً الرجل الصالح فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا. ويتفق مثل هذا كثيراً للمتمرسين برسم التصوف، وربما قال بعضهم: رأيتُ النبي ﷺ في النوم فقال لي: كذا وأمرني بكذا فيعمل بها ويترك بها، معرضاً عن الحدود الموضوعة في الشريعة وهو خطأ؛ لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً على حال، إلا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية فإن سوغتها: عمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراضُ عنها، وإنَّما فائدتها البشارة والنذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا)[٢].

وقد قال بعض هـؤلاء المتصوفة: (من رأى النبي ﷺ فقـد رآه حقاً، وإن كان على غير صورته، . . . وإذا أمره أو نهاه عن نهي، فإن كان في الصورة المنعوت بها ﷺ فما أمره به في النوم: كأمره في اليقظة وأنه يُتبَّع، وكذلك ما نهى عنه)[٣].

وقد أداهم ذلك إلى ألوانٍ من الانحراف في تفسير الكتاب العزيز وفهم نصوص السنة، والجوانب الفقهية وفضائل الأشخاص وخصوصاً المقدمين فيهم، والأدعية والأذكار، بل والجوانب العقدية والتزكية لما هم عليه[٤].

---

(١) في الأصل المقامات والصواب: (المنامات).

(٢) «الاعتصام»: (١/ ٣٣١ـ ٣٣٢).

(٣) أحمد بن إدريس: «سعادة الدارين»: (٤٦٩)، نقلاً عن صادق سليم صادق: «المصادر العامة للتلقي عند الصوفية»: (٣١٠).

(٤) ينظر تفصيل ذلك عند صادق سليم صادق: «المصدر السابق»: (٣١٣ـ ٣٢٦).

وفي الحياة المعاصرة وجدت من سماع بعض كلام من وقعوا في الغلو اعتبارهم للرؤى والأحلام خصوصاً في مجال تزكية الجماعة التي ينتسب الواحد منهم إليها، وظهر ذلك في زعم بعض هؤلاء أن مقدماً من مقدميهم هو المهدي واعتمادهم في ذلك على رؤى ومنامات[١] لا تخلو إما أن تكون أحلاماً من الشيطان أو من حديث النفس، وذلك لفرط اهتمامهم بهذه القضية وتعلقهم بها قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في بيان بطلان هذا الفعل: (وأما اعتماد المنامات في إثبات كون فلانٍ هو المهدي فهو مخالف للأدلة الشرعية ولإجماع أهل العِلم والإيمان؛ لأن المرائي مهما كثرت لا يجوز الاعتماد عليها في خلاف ما ثبت به الشرع المطهر؛ لأن الله سبحانه أكمل لنبينا محمدٍ ﷺ ولأمته الدين، وأتم عليهم النعمة قبل وفاته عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز لأحدٍ أن يعتمد شيئاً من الأحلام في مخالفة شرعه عليه الصلاة والسلام)[٢].

وينبني على مثل هذا الاعتماد على الرؤى غلوٌ في شخص المرئي وألوانٌ أخرى من الغلو في حق المكذبين للرؤيا المخالفين لمن اعتمدها.

❑ ❑ ❑

---

(١) ينظر محمد أحمد إسماعيل: «المهدي حقيقة لا خرافة»: (١٦٨).

(٢) نقلاً عن المصدر السابق: (١٦٩ ـ ١٧٠).

## المبحث الثالث

# الأسباب المتعلّقة بالمنهج العملي

**وفيه ثلاث مطالب :**

**المطلب الأول : الاستعجال.**

**المطلب الثاني : التعصب.**

**المطلب الثالث : عدم تقدير ظروف الناس وأعذارهم.**

## المطلب الأول

## الاستعجال

**معنى الاستعجال في اللغة :**

يقول ابن فارس: (عجل: العين والجيم واللام أصلان صحيحان يدل أحدهما على الإسراع، والآخر على بعض الحيوان: فالأول: العجلة في الأمر يقال: هو عَجِلٌ وعَجُلٌ لغتان . . . واستعجلت فلاناً حثثته وعجلته سبقته قال الله تعالى: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ والعجالة ما تعجل من شيء)[1].

وقال ابن منظور: (العجلة: السرعة خلاف البطء)[2].

**معنى الاستعجال هنا :**

المراد بالاستعجال هنا: استعجال قوم من المنتسبين للدعوة حلول العذاب بالمخالفين، أو استعجالهم نصر الله عز وجل عليهم.

إن من طبيعة البشر التي جبلوا عليها: الاستعجال، يقول الله عز وجل: ﴿خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٣٧].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، واستعجلت ذلك. فقال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر،

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٤/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٢) «لسان العرب»: (٢/ ٦٩٤).

ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني: ﴿فلا تستعجلون﴾ . )[١].

ولهذا الاستعجال فيما يتعلق بالدعوة والدعاة أسباب ومظاهر، هذا إجمال لها:

* **أسباب الاستعجال:**

**(١) اشتداد البلاء:**

إن كثرة الضغوط واشتداد البلاء تدفع بالمرء إلى الاستعجال في التغيير أو استعجال حلول العذاب بالمخالفين، فهو يود التخلص مما هو فيه من بلاء وما حل به من كرب.

لقد شكا خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي ﷺ ما يجد المؤمنون فقال: «ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[٢].

ولذلك عندما تشتد الكروب يستبطيء الناسُ النصر، مع أن النصر قريب

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (٤/ ٥٦٣).

(٢) رواه البخاري واللفظ له: (٤/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، وبنحوه في: (٨/ ٥٦)، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، وأبو داود في «سننه»: (٣/ ١٨٠، رقم ٢٦٤٩)، كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الكفر، وأحمد في «مسنده»: (٥/ ١٠٩).

ولكن لا بد أن يسبق ذلك النصر شدة وبلاء. قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٤].

قال ابن كثير ـ رضي الله عنه ـ: (قوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال تعالى: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾، كما قال: ﴿فإنَّ مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا﴾، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها)[(١)].

(٢) **شيوع المنكرات وعدم طاعة الناهين عن المنكر:**

إن الناظر في أوضاع المجتمعات المسلمة اليوم، يجد ألواناً من المنكرات قد شاعت، وهذا يدفع المؤمن الصادق إلى الاجتهاد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتثالاً لأمر الله عز وجل في قوله: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٤]، وأمر رسوله ﷺ في قوله: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(٢)].

غير أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ربما قوبل بالسخرية أو قوبل بالإعراض، ولم يُدَن له بأمرٍ ولا نهي. فيثير ذلك في نفسه عوامل الغيظ من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٤٤٥).

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»: (١/ ٦٩، رقم٤٩) كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، والإمام أحمد: (٣/ ١٠، ٢٠، ٤٩) ورواه الترمذي في «سننه»: (٤/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠، رقم٢١٧٢) أبواب الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب.

المنكر وأهله، فربما استعجل عليهم العذاب أو استعجل في تغيير ذلك المنكر بأسلوب يراه ناجحاً مع كونه غير شرعي.

**(٣) الشعور بظهور المنكرات العامة:**

إن ظهور المنكرات العامة، والإقرار بها، يورث قلب الغيور حرقة تجعل قلبه دائم الغليان وربما زاد الأمر عن حده حتى يتحول ذلك الأمر إلى ثورة عارمة تأكل الأخضر واليابس. ولعل هذا هو الأمر الذي جعل النبي ﷺ يأمر بالصبر على جور الأئمة لعلمه أن من الناس من سينزع إلى العنف حين لا يدان له بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقد جعل النبي ﷺ لذلك حدوداً:

١ـ أن يرى الناس ما عليه الحاكم من كفر لا أن يرى ذلك أحدهم أو بعضهم، إذ ربما كان عند بعضهم حساسية مفرطة، أو سوء ظن، أو لا يملك منهجاً رشيداً في الحكم على الأشخاص وتقويمهم، ولذلك لا بد أن يكون الحكم من جميع المعتبرين.

٢ـ أن يكون ذلك الكفر بواحاً ظاهراً للناس.

٣ـ أن يقوم البرهان الشرعي من الكتاب والسنة على أن هذا العمل أو القول كفر. وهذا ظاهر من جملة نصوص، منها:

أـ عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنهما ـ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[١].

---

(١) متفق عليه ـ فقد رواه البخاري في «صحيحه»: (٨/ ١٢٢)، كتاب الأحكام، باب يبايع الإمام الناس، ومسلم في «صحيحه» واللفظ له: (٢/ ١٤٧٠)، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، حديث تابع الرقم (١٧٠٩).

ب ـ عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله! ألا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا»[1].

**(٤) العجز عن تحمل مشاق الطريق:**

إن طريق الدعوة إلى الله طريق طويل وشاق، وليس عملاً يقضى بين عشية وضحاها، بل هو عمل تفنى فيه الأعمار، وقد لا ترى نتيجة الأعمال في الدنيا، وهذا يصعب السير في هذا الطريق، فيحتاج السائر إلى صبر وجلد، ومثابرة وجد.

والمحتسبون الصابرون قلة، فقد يكون ثمة من يملك شجاعة وجرأة يستطيع أن يقدم بها نفسه ولو أدى ذلك إلى الموت ولكنه لا يصبر على لأواء الطريق الطويل الشاق.

**(٥) عدم فقه نصوص الجهاد والاستشهاد:**

إنَّ قوماً قرأوا نصوص القرآن والسنة في الكلام عن الجهاد والاستشهاد وقول الحق، فأخذوها على ما ظهر منها وعملوا بها. فمن ذلك:

حديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[2].

وينصب كل تفكيره على مثل هذا الحديث فلا يرى طريقاً للإصلاح إلا هذا

---

(١) سبق تخريجه ص (١٠٢).

(٢) رواه النسائي في «سننه»: (٧/ ١٦١، رقم ٤٢٠٦)، كتاب البيعة، باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٣٠، رقم ٤٠١٢)، وأحمد في «المسند»: (٣/ ١٩)، عن أبي سعيد الخدري، و(٤/ ٣١٤، ٣١٥)، عن طارق بن شهاب، و(٥/ ٢٥١)، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ.

الطريق، مع أنه يمكن للإنسان أن يدعو إلى الله عز وجل بوسائل أخرى غير مجابهة الحاكم، فمدح قائل كلمة الحق عند السلطان الجائر لا يدل على أنه لا أسلوب للدعوة إلا هذا الأسلوب.

**(٦) عدم الفقه بسير الرسل والدعاة إلى الله:**

إن المتأمل في سير الرسل يجد أنهم صبروا على أقوامهم وأطالوا المكث فيهم لدعوتهم إلى الخير، ولم يستعجلوا عليهم العذاب، ولم يستعجلوا في تغيير ما عليه أقوامهم، فها هو نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١٤].

وها هو رسولنا محمد ﷺ يبعث والأصنام تملأ جوف الكعبة فيمكث في قومه سنين طوالاً يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، ولم يسع في تحطيم الأصنام، لعلمه أنه لو حطمها إذ ذاك لاستبدلت بما هو أفخر منها بناءً وأعظم تشييداً مما يزيد الفتنة ويعظم الإثم.

ولكنه سعى إلى الدعوة للتوحيد في نفوس الناس، فلما وقع ذلك لمعظم أهل مكة والمدينة وأظهره الله على القوم سعى في تحطيم الأصنام وإزالتها بيده الشريفة مردداً قول الله تبارك وتعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٨١].

**(٧) عدم فقه المصالح والمفاسد:**

إن الدين الإسلامي دين مصالح، فقد جاء لجلب المصالح ودرء المفاسد[١] ولكن عدم فقه ذلك يؤدي إلى الاستعجال في إنهاء المنكرات، فيفعل المُنكِرُ

---

(١) قد بسطت الكلام في هذا الموضوع في موضع سابق من البحث ص (١١٦).

للمنكر فعلاً يريد به إنهاء ذلك المنكر دون النظر لمآلات الأمر وعواقبه فربما أدى هذا إلى منكر أعظم وأخطر.

**(٨) البعد عن ذوي الخبرة والتجربة:**

إن الله عز وجل خلق الإنسان لا يعلم شيئاً ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً . . .﴾ [سورة النحل، الآية: ٧٨]، وجعل له من وسائل الإدراك ما يمكنه من التعلم. ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾ [سورة السجدة، الآية: ٩]، والعلم والخبرة والتجارب تأتي تراكمية على مدى العمر، وبقراءة كتب التاريخ والاعتبار بما حصل للأمم الخالية، ولذلك كان أبعد الناس عن الأخطاء أكثرهم اعتباراً بما حصل في السابق له وللناس، وأقربهم للخطأ وأكثرهم وقوعاً فيه المغتر بنفسه الذي لا يعتبر بحوادث الزمان.

والمتأمل يجد أن معظم الشباب يتسم بقلة التجربة وضعف الخبرة، وحدة العاطفة، ومن ثم يستعجل الأمور، وتنقصه الروية فيها، ولو جمعت عاطفة الشباب إلى خبرة الشيوخ لكان في ذلك الخير الكثير. والشاب يجب أن يزم عاطفته بزمام العلم، ويتلقاه عن الكبار لا عن الحدثاء.

عن أبي أمية الجمعي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر»[1].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «فساد الدين إذا جاء العلم

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»: ص٦١، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: (١/ ٨٥، رقم ١٠٢)، والطبراني في «الكبير»: (٢٢/ ٣٦١، رقم ٩٠٨)، وفي «الأوسط» ينظر الهيثمي في «المجمع»: (١/ ١٣٥)، وفيه ابن لهيعة إلا أن ابن المبارك ممن سمع منه قبل احتراق كتبه.

من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير تابعه عليه الصغير»[١].

وفي رواية: «ألا وإن الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، ولم يقم الصغير على الكبير، فإذا قام الصغير على الكبير فقد»[٢] أي فقد هلكوا.

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفّه الصغير الكبير»[٣].

وقد اختلف في الأصاغر المذكورين هنا من هم على أقوال عدة:

القول الأول: أنهم أهل البدع الذين يقولون بالرأي ولا يتبعون الأثر. قيل للإمام ابن المبارك: من الأصاغر؟ قال: (الذين يقولون برأيهم، فأما صغيرٌ يروي عن كبير فليس بصغير)[٤].

القول الثاني: أن المراد بالأصاغر أن يؤخذ العلم عمَّن بعد الصحابة ممن يقدم رأيه على رأيهم[٥].

القول الثالث: أن الأصاغر هم الذين لا علم عندهم سواء أكانوا صغار سن أم كباراً[٦].

القول الرابع: أن المراد بالصغر صغر السن فإنَّ عالم الشباب محقور[٧].

---

(١) رواه القاسم بن أصبغ في «مصنفه» بسند صحيح صححه الحافظ في «الفتح»: (١/ ٣٠١ـ ٣٠٢).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: (١/ ١٥٨)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»: (١/ ٨٤، رقم ١٠٠).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: (١/ ١٥٩).

(٤) رواه ابن عبد البر: «جامع بيان العلم وفضله»: (١/ ١٥٨).

(٥) نقله ابن عبد البر عن أبي عبيد في «جامع بيان العلم»: (١/ ١٥٨).

(٦)، (٧) ينظر ابن عبد البر: «المصدر السابق».

والذي أراه من القول هنا: أن هذا الاختلاف من اختلاف التنوع إذيمكن أن يطلق هذا الوصف على كل أولئك وصغار السن الأغلب عليهم نقص العلم فإن العلم يتراكم بتراكم التلقي، فلا يبلغ الإنسان منزلة عالية من العلم إلا إذا كبُرَ سنه، وتعدّى مرحلة الشباب الأولى ـ وهذا في الغالب ـ وحين يوجد شباب يكرمهم الله عز وجل بالعلم وهم صغار كعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل ـ رضي الله عنهم ـ فأولئك استثناء من الأصل.

**(٩) طبيعة النفوس وطبيعة العصر:**

إن من طبائع النفوس البشرية كما أسلفت: العجلة، ولهذه الطبيعة أثرها في استعجال الدعاة النتائج واستعجالهم حلول العقوبات بالمخالفين.

كما لطبيعة العصر أيضاً تأثير كبير، حيث سمي عصرنا عصر السرعة، لما هيأ الله لأهله من الوسائل التي تنجز بها أمورهم، وتقضى بها حوائجهم في أوهىٰ مدة وأقل فترة. وهذا ربما أثر في نفوس الدعاة، فصار هم الواحد سرعة رؤية ثمره، وسرعة رؤية مصارع الكافرين، وفضائح المنافقين.

**(١٠) انعدام البرامج العملية للإصلاح:**

قد يندفع امرؤ إلى عمل الخير والإصلاح، ولكنه لا يجد برامج عملية يفرغ فيها الشحن العاطفية التي تمتلىء بها نفسه.

إذ لو كان ثمة من الأعمال الدعوية الطيبة في المسجد والحي والمدرسة والعمل ما يملأ فراغ الإنسان لم يتجه إلى أعمال أخرى، إذ إن نفس الإنسان التي بين جنبيه إن لم يشغلها بالحق شغلته بالباطل[1].

---

(١) ينظر بعض هذه الأسباب د/ السيد محمد نوح: «آفات على الطريق»: (١/ ٦٣ ـ ٧٦).

* **مظاهر الاستعجال:**

**١ ـ استعجال نزول العذاب بالمعرضين عن الدعوة:**

إن رؤية المرء إعراض قومٍ عن الله، وشدة ما يقابلون به الحق وأهله من مكر وكيد، قد تفضي به إلى استعجال وقوع عذاب الله بهم.

ولقد نهى الله نبيه عن ذلك فقال: ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدّاً﴾ [سورة مريم، الآية: ٨٤].

(يقول عز ذكره: فلا تعجل على هؤلاء الكافرين بطلب العذاب والهلاك يا محمد، إنما نعد لهم عداً، يقول: فإنما نؤخر إهلاكهم ليزدادوا إثماً، ونحن نعد أعمالهم كلها ونحصيها حتى أنفاسهم لنجازيهم على جميعها، ولم نترك تعجيل هلاكهم لخيرٍ أردناه بهم)[1].

فتأخير العذاب عن الكافرين إنما هو لأجل معدود مضبوط وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله.

وهذا ظاهر من جملة آيات منها: قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤٢].

وقوله: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظ﴾ [سورة لقمان، الآية: ٢٤]. وقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٧٨].

وقد أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ بالصبر كما صبر من قبل أولوا العزم من الرسل، فقال سبحانه: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاَّ ساعة من نهار﴾ [سورة الأحقاف: الآية: ٣٥].

فقد أمر بالصبر على أذية المكذبين المعاندين، وحضه على إدامة الدعوة

(١) الطبري: «جامع البيان»: (١٦/ ١٢٦).

لهم، والاقتداء بأولي العزم من المرسلين، وهم أولوا العزائم والهمم العالية، ونهاه عن الاستعجال لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإنَّ هذا من جهلهم وحمقهم[١]، ﴿ولا تستعجل لهم﴾: (.. فلا يستخفنك جهلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعوا الله عليهم بذلك فإن كل ما هو آت قريب﴾[٢].

وقد عمل نبينا محمد ﷺ بهذا، فقد عرض عليه أن يقع العذاب بقومه في يوم شديد البأس عليه، لقي فيه من الأذى ما لقي، ومع ذلك طلب ألاَّ يعذبوا.

فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[٣].

---

(١) ينظر السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٧/ ١٦٠).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه»: (٤/ ٨٣)، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه.

٢ـ استعجال نصر الله وتغير أوضاع المسلمين:

إن من سنن الله عز وجل في خلقه أن لكل شيء أجلاً مسمّى، فكل شيء عند ربنا بمقدار، ولقد كان الرسول من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يمكث في قومه عشرات السنين بل مئاتها، كما ورد في قصة نوح عليه السلام ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١٤]، ومع ذلك لا يتحقق له النصر والظهور، وقد مكث نبينا محمّد ﷺ سنين طوالاً في مكة في حال شديدة، والله قادر على تغيير الأوضاع التي يعيشها حيث عبادة الأصنام في بيته الحرام، والاضطهاد لأهل الدين الحق. ولكن سنته في خلقه غير ذلك، إذ من سنته سبحانه تأخير النصر عن المؤمنين ليبتلي الله عز وجل عباده ويعلم المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب، والصابر من المتسخط الجازع. يقول تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٤].

أي: لا يدر بخلدكم وحسبانكم أن النصر يأتي دون أن يقع لكم مثل ما وقع لمن قبلكم من الابتلاء، فالله يمتحن عباده بالبأساء والضراء، هذه سننه الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل؛ أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه الله، فإن صبر على أمر الله، ولم يبالِ بالمكاره الواقعة في سبيله فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله فصدته المحن عن مقصده فذلك الكاذب في دعوى الإيمان، إن أمماً من قبل قد مستهم بالبأساء والضراء وزلزلوا فاجتمعت عليهم أنواع المكاره والمضار حتى استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، وكانوا لشدة الأمر وضيقه

يقولون: ﴿متى نصر الله﴾. ولكن فرج الله قريب: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾، فكل من قام بالحق فإنه يمتحن، فإذا صابر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقة راحة، وأعقبه النصر على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء[١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٢].

فالجنة سلعة الله، وسلعة الله غالية، فلا يمكن أن (يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء)[٢].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿آلم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣].

فهذه الآيات نزلت في قوم من المؤمنين بمكة يؤذون من قبل المشركين ويعذبون، وكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكافرين، فنزلت هذه الآية مسلية لهم، ومعلمة أن هذه هي سنة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة.

وهي وإن نزلت في هؤلاء السلف الصالح من صحابة النبي ﷺ فإن حكمها باق بقية الدهر[٣].

---

(١) ينظر السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، وينظر في تفسير الآية: الطبري: «جامع البيان»: (٢/ ٣٤١)، وابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦).

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٤٠٩).

(٣) ينظر القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن»: (١٣/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

* * *

والمتأمل في حركة سير كثير من الدعوات التي وقعت في الغلو، أو الأشخاص الذين وقعوا فيه ـ وخصوصاً الغلو في الجوانب المتعلقة بالدعوة والتغيير ـ يجد أن من أقوى العوامل التي أوقعتهم في ذلك استعجالهم ورغبتهم في شفاء صدورهم من المنكرات وأهل المنكرات.

وهذا وإن لم يكن له تنظير علمي فيما كتب المتهمون بالغلو إلا أنه ظاهر من الدراسة العامة لتلك الحوادث.

ومن الاستعجال: الاستعجال بسلوك طريق من طرق التغيير قبل حلول أوانه.

مثال ذلك: الخروج على الحكام الكافرين. فإنه يجوز بشروط منها: القدرة، وغلبة المصالح على المفاسد.

وقد يستعجل قومٌ باستخدام هذا الأسلوب في التغيير قبل تحقق القدرة فيكون ذلك سبباً في الوقوع في أضرب من الغلو.

وعندما يناقش أمثال هؤلاء تجدهم يزعمون أنهم قد أعدوا العدة. وحقيقة الأمر أنهم غير قادرين على التغيير وإنما أعجبوا بعددهم، والإعجاب بالعدد والعدة مذموم بكل حال، وفي حال الاغترار بها والتقدم دون أخذ الأهبة هي أكثر ذماً، وربما أدى ذلك الاستعجال إلى جر قوم من الدعاة إلى مصارعهم على وجه غير شرعي وقد كان لهم من وسائل الدعوة والتغيير الأخرى مندوحة عن تكليف الإنسان نفسه فوق طاقتها.

والله عز وجل يقول: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦].

ويقول: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦].

وقد نهى النبي ﷺ عن إذلال المؤمن نفسه، فعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[١].

□ □ □

(١) رواه الترمذي في «سننه»: (٤/ ٥٢٣، رقم ٢٢٥٤)، كتاب الفتن، باب (٦٧)، وقال: حسن غريب. ورواه أحمد في «المسند»: (٥/ ٤٠٥)، وله شاهد من حديث ابن عمر عند الطبراني في «الكبير».

## المطلب الثاني

## التعصب

### التعصب في اللغة:

العين والصاد والباء أصل صحيح واحدٌ يدلُّ على ربط شيءٍ بشيءٍ مستطيلاً أو مستديراً، ثم يفرَّع ذلك فروعاً[١]. وتعصب: شد العصابة، وأتى بالعصبية[٢]، والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصره عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا[٣].

### التعصب في الاصطلاح:

وعرف بعض المتأخرين التعصب بأنه: (شيمة من شيم الضعف، وخلة من خلل الجهل، يبتلى بها الإنسان فتعمي بصره وتُغشي . . . عقله، فلا يرى حسناً إلا ما حَسُن في رأيه ولا صواباً إلا ما ذهب إليه أو من يتعصب له)[٤].

وسواء كان تعصب المتعصب لرأي نفسه أو لرأي عالم مجتهد، أو لرأي إنسان ليس أهلاً للإمامة وإن كان إماماً في نظر المتعصب، أو كان لجماعة أو طائفة فكل ذلك من ألوان التعصب.

وقد وقع التعصب في تاريخ الأمة كثيراً وأمثلته لا تكاد تتناهىٰ؛ ففي كل

---

(١) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: (٤/ ٣٤٠)، مادة عصب.

(٢) ينظر الفيروزآبادي: «القاموس المحيط»: (١/ ١٠٩)، باب الباء، فصل العين، مادة «عَصَبَ».

(٣) ينظر ابن منظور: «لسان العرب»: (١/ ٦٠٦)، مادة عصب.

(٤) محمد العبده وطارق عبد الحكيم: «مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم»: (٨٣).

زمن تحدث ألوانٌ من التعصب ولقد ذكر الإمام الشاطبي عشرة أمثلة، هذه ثلاثة منها:

**الأول**: قولُ من جعل اتباع الآباء في أصل الدين هو المرجوع إليه دون غيره، حتى ردوا بذلك براهين الرسالة وحجة القرآن ودليل العقل فقالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنَّا على آثارهم مقتدون﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٢٣].

**الثاني**: رأي الإمامية اتباع الإمام المعصوم ـ في زعمهم ـ وإن خالف ما جاء به النبي المعصوم حقاً وهو محمدٌ ﷺ فحكَّموا الرجال على الشريعة، ولم يحكّموا الشريعة على الرجال، وإنَّما أُنزل الكتاب ليكون حَكماً على الخلق على الإطلاق والعموم.

**الثالث**: مذهب: المهدوية الذين ادعوا أن مقدمهم المهدي المنتظر، وجعلوا أفعاله حجة، سواء وافقت الشريعة أم خالفتها؛ بل كفروا من خالفه وجعلوا حكمه حكم الكافر الأصلي[١].

❊ **منشأ التعصب**:

ينشأ التعصب عن الهوى بمحبة النفس، أو محبة الإمام المقتدى به، أو نحو ذلك من أوجه الهوى بحيث يظن المرءُ نفسه معصومةً أو إمامه أو طائفته، ولذلك نهانا الله عن التشبه باليهود في أوصافهم التي منها: كتمانُ العلم بخلاً به أو اعتياضاً عن إظهاره بالدنيا أو تعصباً وخوفاً أن يُحتج عليهم بما أظهروا منه[٢] يقول تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٨٧].

---

(١) ينظر «الاعتصام»: (٢/ ٨٦٣ـ٨٦٤).

(٢) ينظر شيخ الإسلام: «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٧٢).

(وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين للعلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلاً به، وكراهة لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضاً عنه برياسة أو مالٍ يخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفةٍ قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفة وإن لم يتيقن أن مخالفة مبطل)[1].

وكل أولئك من أسباب التعصب للقول أو للطائفة.

ويوضح ذلك: ما وقع في تاريخ الأمة من شدة تعصب أقوام لأشخاص أو مذاهب فتجد الرجل يتفقه ويتأدب بطريقة قومٍ من المؤمنين مثل أتباع الأئمة والمشايخ ثم يجعل أصحابه العِيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم[2] قال شيخ الإسلام ابن تيمية في وصيته لأتباع عدي بن مسافر ـ رحمه الله ـ: (الواجبُ أن يُقدم من قَدَّمه الله ورسوله، ويؤخر من أخره الله ورسوله، ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويُنهىٰ عمَّا نهى الله عنه ورسوله، وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله، وأن يكون المسلمون يداً واحدة)[3].

فالمحبة والكره، والرضى والغضب، والتقديم والتأخير إنما هو بحسب محبة الله، وكرهه، ورضاه، وغضبه، وتقديمه، وتأخيره، وأما أهلُ الأهواء فإنما ينتصرون لأهوائهم بغير علم، ويقدمون آراءهم وآراء مقدميهم ومعظميهم بلا هدى من الله.

ولقد ذكر الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ جملة من أسباب التعصب غالبها عائدٌ إلى الهوى فمن تلك الأسباب:

١ ـ النشوء في بلدٍ متمذهب بمذهب معين وأهله مقتدون بعالمٍ مخصوص.

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٧٢).

(٢) ينظر شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٢٠/ ٨ ـ ٩).

(٣) «الوصية الكبرى»: (٨٥).

٢ـ حب الشرف والمال.

٣ـ الجدال والمراء وحب الانتصار والظهور.

٤ ـ حبُّ القرابة والتعصبُ للأجداد[١].

* **مظاهر التعصب:**

يهمنا في هذا الموضوع مظهران:

- **الأول: التعصب للجماعة أو الطائفة:**

إذا كان يجوز لقومٍ من المسلمين أن يجتمعوا على عملٍ من أعمال الخير، فإنه لا يجوز لهم التعصب على مقتضى ذلك الاجتماع فإن فعلوا فقد وقعوا في المحذور، ويحكم على الطائفة عبر النظر في حال أهلها (فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان؛ فهم مؤمنون، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا، مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله)[٢].

والتعصب نهينا عنه حتى وإن كان للأسماء الفاضلة المستحبة فقد أنكر النبي ﷺ التعصب للمهاجرين أو للأنصار فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: اقتتل غلامان: غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادىٰ المهاجر: يا للمهاجرين، ونادىٰ الأنصاري: يا للأنصار فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية؟» قالوا: لا يا رسول الله. إلا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر، قال: «فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»[٣].

---

(١) ينظر «أدب الطلب ومنتهى الأرب»: (٤٠ ـ ١٢٣).

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (١١/ ٩٢).

(٣) رواه مسلم: (٣/ ١٩٩٨، رقم ٢٥٨٤) كتاب البر والصلة، بابُ نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً.

قال شيخ الإسلام: (لما دعا كلٌّ منهما طائفته منتصراً بها أنكر النبي ﷺ ذلك، وسماها «دعوى الجاهلية» حتى قيل له: إن الداعي بها إنما هما غلامان لم يصدر ذلك من الجماعة، فأمر بمنع الظالم، وإعانة المظلوم؛ ليبين النبي ﷺ أن المحذور إنَّما هو تعصب الرجل لطائفته مطلقاً فعل أهل الجاهلية، فأما نصرها بالحق من غير عدوان: فحسن واجب أو مستحب)(١).

وقال: (فإذا كان هذا التداعي في هذه الأسماء، وهذا الانتساب الذي يحبه الله ورسوله فكيف بالتعصب مطلقاً والتداعي للنسب والإضافات التي هي إما مباحة أو مكروهة)(٢). وخطورة الأمر في التعصب للجماعة تظهر حين لا يقبل المرء من الدين والعلم إلا ما جاءه من طريق طائفته، وقد كان هذا من أسباب ضلال اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ [سورة البقرة، الآية: ٩١]، بعد أن قال سبحانه: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمَّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨٩].

فوصف اليهود: بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي الناطق به، وكانوا يظنون أن النبي سيكون منهم، فلمَّا جاءهم هذا النبي الناطق بالحق من غير الطائفة التي يهوونها لم ينقادوا له إذ كانوا متعصبين لطائفتهم لا يقبلون الحق إلا إذا جاء منها(٣) فكان تعصبهم لطائفتهم سبباً في الضلال الأعظم وهو: الكفر بالله ورسوله ﷺ فاستحقوا بذلك اللعنة التي جعلها الله على الكافرين.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٢١١).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٢١٤)، وينظر «الفتاوى»: (٣/ ٤١٥).

(٣) ينظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٧٣).

وهذا الذي وقعت فيه اليهود ابتليت به طوائف (من المتنسبين إلى طائفة معينة في العلم أو الدين من المتفقهة أو المتصوفة أو غيرهم، أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين غير النبي ﷺ، فإنهم لا يقبلون من الدين لا رأياً ورواية إلا ما جاءت به طائفتهم)[١]. وهذا متعارض مع ما جاء في الدين أصلاً من وجوب الإيمان بما جاء به رسولنا محمد ﷺ يقول تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣]، وليس بعد الحق إلا الضلال والهوى فمن أعرض عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ فقد اتبع هواه فإنك: (تجد قوماً كثيرين يحبون قوماً، ويبغضون قوماً لأجل أهواء لا يعرفون معناها، ولا دليلها، بل يوالون على إطلاقها، أو يعادون من غير أن تكون منقولة نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ وسلف الأمة ومن غير أن يكونوا هم يعقلون معناها، ولا يعرفون لازمها ومقتضاها)[٢]. ولذلك جعل بعض السلف علامة المبتدع تعصبه للأهواء فقد قيل لأبي بكر بن عيّاش: يا أبا بكر من السُّني؟ قال: (الذي إذا ذُكِرَت عنده الأهواء لم يغضب لشيء منها)[٣].

وكما ابتليت بعض طوائف أهل الضلال المتقدمين بهذا ابتلي الغلاة المعاصرون، فقد جعل بعضهم جماعته مصدر الحق، يقول أحد قياديي جماعة شكري مصطفى: (نحن جماعة الحق ومن عدانا فليس بمسلم)[٤].

---

(١) شيخ الإسلام: «اقتضاء الصراط المستقيم»: (١/ ٧٣ـ ٧٤).

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٢٠/ ١٦٣)، وينظر «درء تعارض العقل والنقل»: (١/ ٢٧١ـ ٢٧٢).

(٣) ذكره شيخ الإسلام في «الاستقامة»: (١/ ٢٥٥).

(٤) هو المكنى بأبي مصعب: ينظر عبد الرحمن أبو الخير: «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (٩٤).

- **الثاني: التعصب للأئمة والقادة:**

لقد اتفق المسلمون على أن الرسول ﷺ معصومٌ فيما بلغه عن الله تعالى، وكذلك الأمة معصومة أن تجتمع على ضلالة[١].

كما اتفقت الأمة على أن كل أحدٍ من النَّاس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فالنَّاس كلهم: العلماء والأئمة والأولياء مفتقرون إلى الكتاب والسنة، فلا بد لهم أن يَزِنوا جميع أمورهم بآثار الرسول ﷺ فما وافقها فهو الحق، وما خالف ذلك فهو باطل، وإن كانوا مجتهدين فيه والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ويغفر لهم خطأهم[٢]. وإذا ما خالف أحدٌ هذا الأصل العظيم فجعل بعض المعظمين عنده بمثابة الرسول ﷺ يطيعهم في كل ما أمروا به، فقد وقع في الغلو، وأوقعه هذا الغلو في ألوان أخرى من الانحراف والغلو والابتداع.

لقد غلا أهل الكتاب في مقدميهم من الأحبار والرهبان، فكان ذلك الغلو مقدمة لانحراف في الديانتين: اليهودية والنصرانية خطير. قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمَّا يشركون﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣١]، وفي الحديث عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ قال: «إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه»[٣].

---

(١) ينظر شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (٣٣/ ٢٨).

(٢) ينظر «المصدر السابق»: (٢/ ٢٢٧).

(٣) رواه الترمذي واللفظ له: (٥/ ٢٧٨، رقم ٣٠٩٥)، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، وابن جرير في «جامع البيان»: (١٠/ ١١٤)، والبيهقي: (١٠/ ١١٦)، قال =

وقد سئل أبو العالية ـ رحمه الله ـ كيف كانت الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: (قالوا: ما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم)[١].

ولقد تنبه علماء المسلمين وأئمتهم لهذا فكانوا يحذرون من التعصب لهم وتقليدهم تقليداً مطلقاً:

قال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: (إذا جاء الحديث الصحيح الإسناد عن النبي ـ عليه السلام ـ أخذنا به)[٢].

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: (إنما أنا بشرٌ أخطيء وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنّة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه)[٣].

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: (إذا صح الحديث فهو مذهبي)[٤].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: (رأي الأوزاعي، ورأي مالك، ورأي أبي حنيفة كلُّه رأي، وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار)[٥].

---

= الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث والحديث ضعفه الدارقطني كما نقل الحافظ في «التهذيب»: (٨/ ٢٥١)، وللحديث رواية موقوفة ربما يتقوى بها، رواها ابن جرير: (١٠/ ١١٤ ـ ١١٥)، والبيهقي: (١٠/ ١١٦)، وينظر عبدالقادر الأرناؤوط «حاشية جامع الأصول» (٢/ ١٦١).

(١) رواه ابن جرير في «جامع البيان»: (١٠/ ١١٥)، ورواه البيهقي: (١٠/ ١١٦)، وينظر ابن تيمية: «الفتاوى»: (٧/ ١٧).

(٢) رواه ابن عبد البر في «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء»: (١٤٥).

(٣) رواه ابن عبد البر: «جامع بيان العلم وفضله»: (٢/ ٣٢).

(٤) نقله النووي في: «المجموع»: (١/ ٦٣)، والألباني في «صفة الصلاة»: (٣٠).

(٥) رواه ابن عبر البر في: «جامع بيان العلم وفضله»: (٢/ ١٤٩).

(وهذا لسانُ حال الجميع، ومعناه: أن كل ما يتكلمون به على تحري أنَّه طابق الشريعة الحاكمة، فإن كان كذلك فبها ونعمت، وما لا فليس بمنسوبٍ إلى الشريعة، ولاهم أيضاً ممن يرضى أن تنسب إليهم مخالفتها)[١].

وأما أهل الضلال فقد غلوا في مقدميهم فأطاعوهم طاعةً مطلقة فأضلوهم، واعتبر ذلك بالروافض والمتصوفة ونحوهم.

والغلاة المعاصرون وقعوا في ذلك التعصب والطاعة العمياء يقول عبدالرحمن أبو الخير عن جماعته، جماعة شكري مصطفى: (لقد قام بناء هذه الجماعة على الطاعة المطلقة بل والعمياء، فأي شخص كان يُشم منه رائحة لقياس الأوامر الصادرة إليه بمقياس شرعي، أو حتى استفسار عن مغزاه كان يواجه بتهمة الردة ويعامل معاملة المرتدين)[٢].

ويقول: (لقد كان الشباب يستدعى بأوامر عسكرية فلا يعلم طبيعة المهمة المقبل عليها، ولا مدى اقتناعه بها، وكان أغلب الشباب لا يعرفون شيئاً عن طبيعة تركيب عقل قيادة الجماعة، وكان الكل يخضع تماماً لأمر أبي سعد[٣] دون مناقشة، بل إن عملية ضرب المرتدين ـ يعني الخارجين عن الجماعة ـ والإعلان الواسع عنها قد بعث الرعب في قلوب الجميع: الغرباء وأبناء الجماعة أنفسهم)[٤].

وكانت تصوراتهم فيما يتعلق بالبيعة دالة على التعصب لرأس الجماعة إذ يرون لقائد الجماعة: شكري مصطفى بيعة على أنه إمام المسلمين يقول شكري

---

(١) الشاطبي: «الاعتصام»: (٢/ ٨٦٢).
(٢) «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (١٣٤ ـ ١٣٥).
(٣) كنية شكري مصطفى.
(٤) المصدر نفسه: (٧١).

بعد أن ساق جملة من نصوص البيعة: (إنها البيعة بمعنى البيعة، يخطيء من يظن أنها أقل من بيع النفس كاملة لله، من خلال الجماعة المسلمة المتمثلة في عقدٍ على يد إمام، إنَّه بمقتضىٰ هذه البيعة ينبغي أن يكون الإمام أقرب إليه من نفسه، وأولى بها منه حيث إنه قد باع وانتهى الأمر)[1].

ويقول: (إن للإمام أن يأمر بالأمر من غير بيان علة الأمر؛ بل من الواجب عليه ذلك فيما يرى أن في كتمانه صلاحاً أو أن في إفشائه خطأ، وعلى المسلم أن يسمع ويطيع في كل ذلك حتى فيما دخل فيه الاحتمال أو الشبهة إذ ليست الشبهة والاحتمال معصية مستيقنة أو كفراً بواحاً)[2].

لقد كان من دوافع التعصب لهذه القيادة ما مثلته شخصية شكري مصطفى التي كانت شخصية آسرة لأناس لم يجدوا قيادة راشدة تأخذ بأيديهم يقول أحد من كانوا من رؤوس هذه الجماعة عن شكري: (لقد كان . . . طويل الشعر واللحية، يفرق شعره من منتصف رأسه ويرتدي العمامة البيضاء وينفعل على أقل القليل من دين الله، تشعر حين تجالسه أنه متأجج العاطفة لنصرة دين الله شديد الحماس لكل ما يراه حقاً، غيورٌ أشد الغيرة، ومتحسرٌ غاية التحسر على ضياع كثير من أوامر الله والتفريط فيها، كل ذلك مع بساطة في تكاليف المعيشة، وقلة حظٍّ من متاع الدنيا، وجرأة عجيبة في مواجهة الأخطار مهما عظمت.

كل هذه الأمور مجتمعة تخلب نظرك وتستثير إعجابك، وتشعرك أنك أمام رجلٍ فذ، منقطع النظير، قوي الحجة، ظاهر الدليل، واضح كل الوضوح)[3].

---

(١) «الخلافة»: (٣/ ٣٠).

(٢) المصدر نفسه: (٣/ ٣٧).

(٣) رجب مختار مدكور: «التكفير والهجرة وجهاً لوجه: (٧).

وهذه الكلمات دالةٌ على عظيم أثر شخصية الرجل في نفوس أتباعه، الذين يفتقدون أبسط أدوات الحكم على النَّاس ومعرفة أقدارهم.

* * *

إنَّ هذا التعصب جر الأمة إلى بلايا عظيمة في المعتقد والشريعة والسياسة فلقد غلبت الأهواء على النفوس حتى امتنعت عن قبول الحق، والسماع من المحق، بل جر هذا التعصب الأمة إلى سفك الدماء، قال الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ: (واعلم أنه كما يتسبب عن التعصب محق بركة العلم، وذهابُ رونقه، وزوال ما يترتب عليه من الثواب كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلى سفك الدماء، وهتك الحرم، وتمزيق الأعراض، واستحلال ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفى على عاقل، وقد لا يخلو عصر من العصور، ولا قطرٌ من الأقطار من وقوع ذلك . . . وهذا يعرفه كل من له خبرةٌ بأحوال النَّاس)[1].

وحين النظر في مظاهر الغلو المعاصر نجد: مظاهر كانت وليدة التعصب للجماعة أو القيادة، وإن كانت تلك المظاهر تختلف: إذ جاء بعضها نتيجة مباشرة للتعصب، وبعضها أثر في إيجاده التعصب وإن لم يكن ذا أثرٍ مباشر.

وهذان مثالان دالان على ما قررت:

- **المثال الأول: تكفير الخارج عن الجماعة:**

تكفر بعض طوائف الغلاة كل خارج عن الجماعة سواء الذي لم يدخلها على الإطلاق، أو دخلها ثم خرج منها فكل أولئك في عرفهم كفارٌ، وقد بنوا هذا على تعصبهم لجماعتهم إذ قاسوا قياساً فاسداً فجعلوا جماعتهم هي جماعة المسلمين التي وردت النصوص آمرة بلزومها، ومحذرة من مفارقتها، وهذا الحوار الذي نقله عبد الرحمن أبو الخير شاهد على ما ذكرت:

(١) «أدب الطلب ومنتهى الأرب»: (٩٢).

(أبو الخير: لماذا لا نصلي على كل من الشيخ صالح سرية وكارم الأناضولي[١]؟

أبو مصعب[٢]: لأنا قد بلغناهم الحق فرفضوه.

أبو الخير: ومتى بلغتموهم؟

أبو مصعب: عندما كنَّا معهم في سجن مزرعة طرة والسجون الأخرى.

أبو الخير: علام اتفقتم، وعلام اختلفتم؟

أبو مصعب: اختلفنا في مسألة أقوال الصحابة، وأقوال الفقهاء، فهم يأخذون بهذه الأقوال، ونحن لا نعوِّل عليها.

أبو الخير: ولكني قرأت محاكمة صالح، وسمعتُ مرافعة كارمٍ عن نفسه فتبينتُ وضوح المصطلحات لديهما مصطلح الطاغوت والكفر والإيمان، والجاهلية والإسلام ... فضلاً عن إدراك كارم لعضوية المعركة ضد الحركة الإسلامية عبر السنين.

أبو مصعب: ولكنهما رفضا أن يبايعا الجماعة، ونحن جماعة الحق، ومن عدانا فليس بمسلم.

أبو الخير: ألا يجوز أن تعترف بالأمر الواقع، تعدد الجماعات القائمة على التصور الصحيح (الكفر والإسلام) لعل مرحلةً قادمة توحد هذا الشتات، وتلك الفرق.

أبو مصعب: لا يجوز أن تتعدد الجماعة المسلمة.

أبو الخير: ولكن هناك جماعات أخرى أسبق منَّا في النشأة وتقول بالإسلام والجاهلية، مثل الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية، أو قد ينشأ بلاغ آخر في

---

(١) صالح سرية وكارم الأناضولي شخصان كانا من قيادات جماعة مخالفة لجماعة شكري مصطفى وهي الجماعة المشهورة بـ (جماعة الفنية العسكرية).

(٢) كنية أنور مأمون صقر أحد قيادات جماعة شكري مصطفى.

أي قارة أخرى قدراً على نفس التصور الذي أنزل الله على نبيه محمد ﷺ ويحول بيننا وبينهم افتقارنا لإمكانية الاتصال وأدواته . . .

**أبو مصعب**: ولو، لا يجوز أن تعدد الجماعة المسلمة فالحق واحد والجماعة واحدة)[١].

وهذا الحوار يظهر مدى تأثير التعصب للجماعة في إحداث الغلو بتكفير الخارج عنها، حيث كانت الجماعتان متقاربتين في الجملة، وإن اختلفتا في بعض القضايا ومع ذلك كان الخلاف وعدم قبول ما جاء عن جماعة المتكلم سبباً في تكفير المخالفين.

- **المثال الثاني : القول بمرحلية الأحكام أو بدعة القول: إننا نعيش في العهد المكي.**

فقد أخذ بعض الغلاة المعاصرين بهذا فقالوا: (من العقيدة أن يؤخذ الدين على صورته التي نزلت على النبي ﷺ فنأخذ الأحكام على مراحل كما كان متبعاً في أول الإسلام، وهو البدء بما نزل في مكة بالنسبة لعهد الاستضعاف الذي نعيش فيه حالياً، فإذا تمكنت الجماعة من الوصول إلى السلطة، وحكمت بالإسلام أخذت بما نزل في المدينة لأنها في عهد التمكين، أما في العصر الذي نعيش فيه فهو عصر استضعاف)[٢].

وما كان هذا القول أن يترسخ في نفوس الأتباع لولا ما أشربوا في قلوبهم من التعصب لقيادتهم ورؤوسهم حتى بنوا على ذلك أحكاماً تخالف جماعة المسلمين كالقول بإيقاف صلاة الجمعة، فأثر التعصب في أخذ هؤلاء الأتباع بهذا القول وبقائهم عليه، وإن لم يكن ذلك التأثير مباشراً.

---

(١) نقلاً عن عبد الرحمن أبو الخير: «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (٩٣ ـ ٩٥).

(٢) نقلاً عن البهنساوي: «الحكم وقضية تكفير المسلم»: (٣٣ ـ ٣٤).

## المطلب الثالث

## عدم تقدير ظروف النَّاس وأعذارهم

إن دين الإسلام، دين عدل ورحمة، فقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بالرحمة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧]، فقد رفع الله به الإصر والأغلال التي كانت على أهل الأديان السابقة ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٧].

ويقول النبي ﷺ عن نفسه: «إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً»(١).

ويدخل في ضمن ذلك:

* عدم تكليف الناس فوق طاقتهم ووسعهم ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦].
* والتخفيف عنهم إن وقعت المشقة بهم ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٨]، ولذلك أباح للمسافر والمريض الفطر، مع قضاء أيام أخر، بعد زوال سبب الرخصة.

---

(١) رواه مسلم واللفظ له: (٢/ ١١٠٥، رقم ١٤٧٨)، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، وأحمد في «مسنده»: (٣/ ٣٢٨).

* وإعذارهم عند وقوع الخطأ والنسيان أو نحوهما، يقول الله تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦].

وقد ورد في الحديث ما يفيد أن الله عز وجل استجاب لهذه الدعوات التي علمنا إياها، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء. فقال النبي ﷺ: قولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمنا. قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم. فأنزل الله تعالى: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا «قال: قد فعلت» ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا «قال: قد فعلت» واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا «قال: قد فعلت»[1].

وبهذا يتبين أن تقدير ظروف الناس، واعتبار العوارض التي تعرض لهم، جزء من العدل الذي جاء به الإسلام، والرحمة التي بعث بها سيد الأنام ﷺ.

وحين تسلط الأحكام على الناس، دون نظر في أحوالهم ودعوة لهم، وإبانة للخير، فإن المتسلط يكون ظالماً جائراً. وحين التأمل في أهل البدعة نجدهم على مر التاريخ متصفين بهذه الصفة، بينما (أئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان، فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة، سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم، كما قال

---

(١) رواه مسلم واللفظ له: (١/ ١١٦، رقم ١٢٦)، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، والترمذي: (٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢، رقم ٢٩٩٢)، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة.

تعالى: ﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨]، ويرحمون الخلق فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداء، بل إذا عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم، كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا)[١].

ولو ذهبنا نتتبع النصوص الدالة على اعتبار العوارض التي تعرض للناس، والأحكام المبنية على ذلك الاعتبار، لاحتاج الأمر إلى بحوث طويلة، ولكني أقتصر هنا على ثلاثة أمثلة هي:

١ ـ العذر بالجهل.

٢ ـ العذر بالإكراه.

٣ـ العذر بالعجز وعدم القدرة.

فليس المراد الحصر، وإنما الدلالة على ما يجب الالتفات إليه عند الحكم على الناس، وليقس ما لم يقل. وهذا تفصيل القول فيهما:

* **أولاً: العذر بالجهل:**

المراد بالجهل: قال ابن فارس: (الجيم والهاء واللام، أصلان: أحدهما: خلاف العلم)[٢]، وقال ابن منظور: (الجهل نقيض العلم)[٣]، والمراد بالجهل هنا: فقد العلم والخلو منه، سواءٌ كان ذلك الجهل عاماً، أو خاصاً في أمرٍ من الأمور.

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الرد على البكري»: (٢٥٧ـ٢٥٨).

(٢) «معجم مقاييس اللغة»: (١/ ٤٨٩، ٤٩٠)، باب الجيم والهاء وما يثلثهما مادة جهل.

(٣) «لسان العرب المحيط»: (١/ ٥٢٤)، مادة جهل.

وأصل اعتبار عارض الجهل، مأخوذ من جملة من الأدلة:

فمن القرآن الكريم:

١ ـ قوله سبحانه: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [سورة النساء، الآية: ١٦٥].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٥].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (إخبار عن عدله تعالى وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسول إليه)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلوغ؛ لقوله تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٩]، وقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، وقوله: ﴿لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل﴾.

ومثل هذا في القرآن متعدد، بين سبحانه أنه لا يعاقب أحداً حتى يبلِّغه ما جاء به، ولا يعذبه الله على ما لم يبلغه، فإنه إذا لم يعذبه على ترك الإيمان إلا بعد بلوغ الحجة، فإنه لا يعذب على بعض شرائعه إلا بعد البلوغ)[٢].

قال العلامة الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: (والآيات القرآنية مصرحة بكثرة، بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، وهو دليل عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ فإنه قال فيها: حتى نبعث رسولاً، ولم يقل حتى نخلق عقولاً، وننصب أدلة، ونركز فطرة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رسلاً مبشرين

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (٤/ ٢٨٧).

(٢) «الفتاوى الكبرى»: (٢/ ٤١ ـ ٤٢).

ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس، وينقطع به عذرهم هو: إنذار الرسل، لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة)(١).

وأما السنة، فثم أحاديث واضحة الدلالة في العذر بالجهل منها: هذان الحديثان:

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذُروني في الريح، فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً. فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله تعالى الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتُك حملتني فغفر له»(٢).

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: (وأما جهل هذا الرجل المذكور في هذا الحديث بصفة من صفات الله في علمه وقدرته، فليس ذلك بمخرجه من الإيمان . . .)(٣).

وقال الخطابي ـ رحمه الله ـ: (قد يستشكل هذا فيقال: كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب: أنه لم ينكر البعث، وإنما

(١) «أضواء البيان»: (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢).

(٢) رواه البخاري واللفظ له: (٤/ ١٥٢)، كتاب الأنبياء، باب ٥٤، و(٧/ ١٨٥)، كتاب الرقاق، باب الخوف من الله، و(٨/ ٢٠٠)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، ومسلم: (٣/ ٢١٠٩ ـ ٢١١١، رقم ٢٧٥٦، ٢٧٥٧)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، وأنها سبقت غضبه، ومالك في «الموطأ»: (١/ ٢٤٠، رقم ٥١)، كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز، وغيرهم. والحديث متواتر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (١٢/ ٤٩١).

(٣) «التمهيد»: (١٨/ ٤٦ ـ ٤٧).

جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب. وقد ظهر إيمانه باعترافه أنه إنما فعل ذلك من خشية الله)[١].

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: (فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذرى، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك. وهذان أصلان عظيمان:

**أحدهما**: متعلق بالله تعالى، وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

**والثاني**: متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملاً صالحاً، وهو: خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح)[٢].

٢ ـ عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ﷺ: «يَدْرسُ الإسلامُ كما يدرس وَشيُ الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة، ولا نسك ولا صدقة، وليُسْرَى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز، فيقولون: أدركنا آباءنا على الكلمة، لا إله إلا الله، فنحن نقولها» فقال له صلة[٣]: ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام، ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في

---

(١) نقلاً عن ابن حجر: «الفتح»: (٦/ ٥٢٢).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (١٢/ ٤٩١)، وانظر له: «الفتاوى»: (٣/ ٢٣١)، و(٧/ ٦١٩)، و(١١/ ٤٠٩)، و(٢٣/ ٣٤٧)، و(٢٨/ ٥٠١)، و«الرد على البكري»: (٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٣) صلة بن زفر العبسي: تابعي كبير.

الثالثة، فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً(١).

ففي هذا الحديث إثبات العذر بالجهل لأقوامٍ في آخر الزمان، تخفى عليهم الأحكام الظاهرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما يبعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر. ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة، فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول)(٢). وأورد ـ رحمه الله ـ حديث حذيفة، مستدلاً به على ما سبق.

❊ ❊ ❊

إن كلام أهل العلم في قضية العذر بالجهل واسع ومتشعب، ولكني أضع هنا جملة من الملاحظ التي تكشف بعض جوانب تلك القضية.

**الملحظ الأول:**

أنه وإن تقرر أن الجهل قد يمهد العذر للجاهل، إلا أن المسألة من مسائل الاجتهاد وموارده، فلا يقطع ببدعة قول المخالف؛ لأن أهل العلم مختلفون فيها،

---

(١) رواه ابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٤٤ ـ ١٣٤٥، رقم ٤٠٤٩)، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٤٧٣)، كتاب الفتن، وقال: صحيح على شرط مسلم. قال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وصححه الألباني، ينظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: رقم ٨٧، و«صحيح سنن ابن ماجه»: (٢/ ٣٧٨، رقم ٣٢٧٣).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (١١/ ٤٠٧).

كما أن المسألة من موارد الاجتهاد من جهة تطبيقها، وإنما كانت من أسباب الغلو، عندما اجتمعت مع جملة أسباب أخرى، فصارت بذلك الاجتماع، سائقة إلى الغلو.

والذي يحسم الخلاف ويقطع الأمر: أن نعلم أن العذر بالجهل وعدم العذر به في الغالب من قضايا الأعيان، فيحتاج في ذلك إلى فقه بواقع الناس، وعلم بأحوالهم. فالأمر قائم على النظر السلطاني القضائي الشرعي والنظر العلمي الاجتهادي، فإذا وجد ذلك حسم الخلاف؛ لأن نظر القاضي والمفتي لأحوال الإنسان، وإقامة الحجة عليه، تحصل به نتيجتان:

**الأولى**: اجتهاد القاضي والمفتي في إعذار المرء أو عدم إعذاره فيما فعل قبل الحكم عليه.

**الثانية**: إقامة الحجة عليه بعد ذلك بما يرفع عنه الجهل.

**الملحظ الثاني: نسبية العذر بالجهل**:

إن قوماً قد يعذرون بالجهل في أمر لا يعذر بالجهل به آخرون؛ لاختلاف حال الفريقين، فمن يعيش في مكان قد اندرس فيه العلم، حتى لا يعلم كثيراً مما بعث به الرسول ﷺ ولا يجد من يعلمه، ليس كمن يعيش في حاضرة من حواضر المسلمين.

قال الخطابي ـ رحمه الله ـ: (وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة، وامتنعوا عن أدائها، يكون حكمهم حكم أهل البغي؟ قلنا: لا؛ فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافراً بإجماع المسلمين. والفرق بين هؤلاء وأولئك: أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان، منها: قرب العهد بزمان الشريعة الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ.

ومنها: أن القوم كانوا جهالاً بأمور الدين، وكان عهدهم بالإسلام قريباً،

فدخلتهم الشبهة فعذروا، فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام، واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة، حتى عرفها الخاص والعام، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله في إنكارها. وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئاً مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين، إذا كان علمه منتشراً، كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، والاغتسال من الجنابة، وتحريم الزنا، والخمر، ونكاح ذوات المحارم، ونحوها من الأحكام، إلا أن يكون رجلاً حديث عهد بالإسلام، ولا يعرف حدوده، فإنه إذا أنكر شيئاً منها جهلاً بها لم يكفر، وكان سبيله سبيل أولئك في بقاء اسم الدين عليه. فأما ما كان الإجماع منه معلوماً من طريق علم الخاصة، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وأن القاتل عمداً لا يرث، وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام، فإن من أنكرها لا يكفر، بل يُعذر؛ لعدم استفاضة علمها في العامة)[1].

ومما يدخل في النسبية هذه، النسبية فيما يعذر به؛ إذ من الجهل جهل لا يعذر به، وهو الجهل في الإقرار المجمل بالإسلام، فإن الكافر كافر حتى وإن كان مقلداً لآبائه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الكلام عن جهلة الكفار: (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله، واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافراً معانداً، فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً؛ فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذَّب رسوله إما عناداً أو جهلاً وتقليداً لأهل العناد)[2].

---

(١) نقلاً عن النووي: «شرح صحيح مسلم»: (١/ ١٧٣).

(٢) «طريق الهجرتين»: (٤١١).

و(الواجب على العبد: أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه. هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا، فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم، وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة)[1].

وفي المجتمع المسلم أيضاً، تختلف المسألة التي يعذر فيها بالجهل، فقد يعذر في المسألة التي يخفى مثلها على مثله، في حين لا يعذر في مسألة ظاهرة يعلمها الناس. قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في إجابة سؤال عن العلم الواجب على الناس: (العلم علمان: علمٌ عامة، لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله جهله. قال: ومثل ماذا؟ قلت: مثل الصلوات الخمس، وأن لله على الناس صوم شهر رمضان، وحج البيت إذا استطاعوا، وزكاة في أموالهم، وأنه حرم عليهم الزنى، والقتل والسرقة والخمر، وما كان في معنى هذا . . .

وهذا الصنف كله من العلم، موجود نصاً في كتاب الله، وموجوداً [هكذا في الأصل] عاماً عند أهل الإسلام، ينقله عوامُّهم عن من مضى من عوامهم، يحكونه عن رسول الله، ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم. وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل، ولا يجوز فيه التنازع.

قال: فما الوجه الثاني؟

قلت له: ما ينوب العباد من فروع الفرائض، وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب، ولا في أكثره نص سنة، وإن كانت في شيء منه

---

(١) ابن القيم: «المصدر نفسه»: (٤١٣).

سنة، فإنما هي من أخبار الخاصة لا من أخبار العامة. وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً)(١).

**الملحظ الثالث:**

أن مسألة العذر بالجهل، أضحت مجالاً لجدل واسع بين بعض أهل الفضل والدعوة إلى الله، والذي أراه أنه لو تفرغ أولئك الذين أغرقوا في بحث هذه القضية، لو تفرغوا لرفع الجهل عن الناس بتعليمهم العقيدة الصحيحة، وتحذيرهم من البدع، لكان أجدى وأنفع.

* **ثانياً: العذر بالإكراه:**

١ ـ تعريف الإكراه في اللغة:

قال ابن فارس: (الكاف والراء والهاء أصل صحيح واحدٌ يدل على خلاف الرضا والمحبة. يقال: كرهت الشيء أكرهه كرْهاً، والكُرْه الاسم)(٢).

٢ ـ تعريف الإكراه في الاصطلاح:

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في تعريف الإكراه: هو: (إلزام الغير بما لا يريده)(٣).

وعرفه علاء الدين البخاري ـ رحمه الله ـ بقوله: (حمل الغير على أمر يمتنع عنه بتخويف يقدر الحامل على إيقاعه، ويصير الغير خائفاً فائت الرضا بالمباشرة)(٤).

---

(١) «الرسالة» للشافعي: (٣٥٧ـ٣٥٩).

(٢) «معجم مقاييس اللغة»: (٥/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، باب الكاف والراء وما يثلثهما، مادة (كره)، وينظر ابن منظور: «اللسان»: (٣/ ٢٥٠)، مادة (كره).

(٣) «فتح الباري»: (١٢/ ٣١١).

(٤) «كشف الأسرار»: (٤/ ٣٨٣).

* **أنواع الإكراه :**

يقسم العلماء الإكراه إلى قسمين :

١ ـ الإكراه التام، ويسمى (الإكراه الملجيء) وهو الذي يُعدم الرضا، ويفسد الاختيار. كالإكراه بالقتل، أو إتلاف عضو من أعضاء المكرَه.

٢ ـ الإكراه الناقص، ويسمى (الإكراه غير الملجيء) وهو الذي يُعدم الرضا ولا يفسد الاختيار. مثل التهديد بالحبس مدة طويلة أو الضرب ونحوهما مما لا يخاف المكرَه على نفسه أو عضو من أعضائه تلفا فيه(١).

والأصل في اعتبار الإكراه عارضاً يعذر به الإنسان في الجملة: قول الله عز وجل: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ [سورة النحل، الآية: ١٠٦].

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ: (لما سمح الله تعالى في الكفر به، وهو أصل الشريعة عند الإكراه، ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذبه)(٢).

وقد اتفق أهل العلم على أن هذه الآية، نزلت في عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ(٣) فعن محمد بن عمار بن ياسر، قال: «أخذ المشركون عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى

(١) ينظر البزدوي والبخاري: «أصول البزدوي وشرحه كشف الأسرار»: (٤/ ٣٨٣، فما بعدها)، النسفي: «كشف الأسرار»: (٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠)، وملاجيون: «نور الأنوار على المنار»، بهامش «كشف الأسرار» بالصفحتين المذكورتين. وابن ملك: «شرح المنار وحواشيه»: (٢/ ٩٩٢)، ود. حسين خلف الجبوري: «عوارض الأهلية»: (٤٧٨ ـ ٤٧٩).

(٢) «أحكام القرآن»: (٣/ ١١٨٠).

(٣) ينظر ابن حجر: «الإصابة»: (٢/ ٥١٢).

رسول الله ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك، وذكرتُ آلهتهم بخير. قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال: إن عادوا فعد»[١].

قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ: (أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، أنه لا يحكم عليه بالكفر، ولا تبين منه زوجته)[٢].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته. ويجوز له أن يأبى كما كان بلال ـ رضي الله عنه ـ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم يضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم وهو يقول: أحد أحد)[٣].

**وهنا جملة ملاحظ:**

**الملحظ الأول**: أنه وإن كان الإكراه يمهد للمرء العذر، إلا أن الثبات على الأمر يؤجر عليه المرء، فهو إن مات مات شهيداً سعيداً.

قال ابن بطال: (أجمعوا على أن من أكره على الكفر، واختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة. وأما غير الكفر، فإن أكره على أكل الخنزير، وشرب الخمر مثلاً، فالفعل أولى. وقال بعض المالكية: بل يأثم إن منع من أكل

(١) رواه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٥٧)، كتاب التفسير، حكاية أسارة عمار بن ياسر بيد الكفار وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٨/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، كتاب المرتد، باب المكره على الردة. وقال ابن حجر بعد ذكره لهذا الحديث: «وهو مرسل ورجاله ثقات». «الفتح»: (١٢/ ٣١٢).

(٢) نقلاً عن ابن حجر: «فتح الباري»: (١٢/ ٣١٤).

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: (٤/ ٢٢٨).

غيرها، فإنه يصير كالمضطر على أكل الميتة إذا خاف على نفسه الموت فلم يأكل)[١].

**الملحظ الثاني**: أن بعض صور الإكراه الذي يعذر به المكرَه، مما جرى فيه الخلاف بين أهل العلم، بل قد جعله بعضهم مختلفاً باختلاف أحوال الناس ومنازلهم. فقال: (إن أدنى مراتب الإكراه: ما يوجب غماً بعدم الرضا . . . وهو يختلف باختلاف الأشخاص، فإن الأشراف يغمون بكلام خشن، والأراذل ربما لا يغمّون إلا بالضرب المبرح)[٢].

**الملحظ الثالث**: أن هناك علاقة بين نوع الإكراه والأمر المكره عليه، فليس المعتبر في الإكراه على الكفر كالمعتبر في الإكراه على الهبة ونحوها.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: (تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكرَه، فليس المعتبر في كلمات الكفر كالإكراه المعتبر بالهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص في غير موضع على أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب أو قيد، ولا يكون الكلام إكراهاً. وقد نص على أن المرأة لو وهبت زوجها صداقها بمسكنه، فلها أن ترجع على أنها لا تهب إلا إذا خافت أن يطلقها أو يسيء عشرتها. فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة إكراهاً. ولفظه في موضع آخر: لأنه أكرهها. ومثل هذا لا يكون إكراهاً على الكفر، فإن الأسير إن خشي الكفار أن لا يزوجوه، أو أن يحولوا بينه وبين امرأته، لم يبح له التكلم بكلمة الكفر)[٣].

---

(١) نقلاً عن ابن حجر: «فتح الباري»: (١٢/ ٣١٧).

(٢) «حاشية ابن عابدين»: (٦/ ١٢٩)، وينظر ابن قدامة: «المغني»: (١٠/ ٣٥٣)، و«الخرشي على مختصر خليل»: (٣/ ١٧٣).

(٣) نقلا عن الشيخ حمد بن عتيق: بيان النجاة والفكاك ضمن «مجموعة التوحيد»: (٢٩٧).

* **ثالثاً: العجز وعدم القدرة:**

معنى العجز في اللغة: قال ابن فارس: (العين والجيم والزاء، أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف)[١]، وقال ابن منظور: (... والعجز: الضعف)[٢]، والمراد هنا: عدم القدرة على أداء الفعل كلاً أو جزءاً.

إن الناس من حيث القدرة متباينون، فمنهم القادر ومنهم العاجز وبين ذلك مراتب. ومن المتقرر في الشريعة أن الوجوب معلق بالاستطاعة، وهذا دلت عليه نصوص كثيرة:

فقد أخبر الله عز وجل عن نفسه، أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها فقال: ﴿لا يكلف الله نفس إلا وسعها﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦].

وقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٤٢].

وقال: ﴿لا تكلف نفسٌ إلا وسعها﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٣٣].

وقال: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٧].

وأمر الناس بتقواه وطاعته قدر قدرتهم واستطاعتهم، فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦]، وقال رسوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[٣].

والعجز عن الفعل درجات عدة:

١ـ العجز عن أصل الفعل، كمن لا يستطيع الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. يقول الله تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٤/ ٢٣٢)، باب العين والجيم وما يثلثهما، مادة: عجز.

(٢) «اللسان»: (٢/ ٦٩١)، مادة: عجز.

(٣) سبق تخريجه ص (١٢٢).

لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (من بلغه دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنه رسول الله فآمن به، وآمن بما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع كما فعل النجاشي وغيره، ولم تمكنه الهجرة إلى دار الإسلام، ولا التزام جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعاً من الهجرة، وممنوعاً من إظهار دينه، وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الإسلام، فهذا مؤمن من أهل الجنة، كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وكما كانت امرأة فرعون، بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفاراً، ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام . . . وكذلك النجاشي، هو وإن كان ملك النصارى، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، بل إنما دخل معه نفر منهم . . .

وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها، لم يكن دخل فيها؛ لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر ولم يجاهد، ولا حج البيت، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم. ونحن نعلم قطعاً أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن، والله قد فرض على نبيه بالمدينة، أنه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه . . .

والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم القرآن، فإن قومه لا يقرونه على ذلك، وكثيراً ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً بل وإماماً، وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه من ذلك، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وعمر بن عبد العزيز عودي وأوذي

على بعض ما أقامه من العدل. وقيل إنه سُمّ على ذلك.

فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة، وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها)[١].

(وبالجملة لا خلاف بين المسلمين أن من كان في دار الكفر وقد آمن، وهو عاجز عن الهجرة، لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها، بل الوجوب بحسب الإمكان)[٢].

٢ـ العجز عن الفعل على وجه الكمال، كمن لا يستطيع الصلاة قائماً فيصليها قاعداً، أو يستطيع العمل بما يمكنه من الأعمال، وإن لم يكن على الوجه الأكمل، كمن يعمل تحت ولاية ظالمة، فيعمل ما يمكنه عمله من العدل والخير. يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عن يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦].)[٣].

٣ـ العاجز عن العمل الأفضل، فيصير إلى العمل المفضول. وهنا قد يكون العملان من جنس واحد، أو لا يكونان كذلك. وأياً ما كان الأمر، فإن كل شخص إنما يستحب له من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله ما يقدر عليه

---

(١) «الفتاوى»: (١٩/ ٢١٧ـ٢١٩).

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفتاوى»: (١٩/ ٢٢٥).

(٣) «الفتاوى»: (٢٠/ ٥٦ـ٥٧).

ويفعله وينتفع به، فأكثر الناس يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً؛ إذ لا يقدرون على الأفضل، ولا يصبرون عليه إذا قدروا عليه، وقد لا ينتفعون به، بل قد يتضررون إذا طلبوه، مثل من لا يمكنه فهم العلم الدقيق إذا طلبه، فيفسد عقله ودينه[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له)[٢].

ومع فضل الله عز وجل وعفوه عن العاجز، وعدم تكليفه بما فوق طاقته، فإن الله يأجر العاجز كأجر الصحيح القادر إذا كان عازماً على الفعل، ولم يمنعه إلا عجزه: (فمن كان عازماً على الفعل عزماً جازماً، وفعل ما يقدر عليه منه، كان بمنزلة الفاعل، فهذا الذي كان له عمل في صحته وإقامته عزمه أن يفعله، وقد فعل في المرض والسفر ما أمكنه فكان بمنزلة الفاعل)[٣]. دل على ذلك حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»[٤]، ولكن (ليس كل معذور يكتب له مثل عمل الصحيح، وإنما يكتب له إذا كان يقصد عمل الصحيح ولكن عجز عنه)[٥].

* * *

(١) ينظر شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (١٩/ ١١٩)، وينظر: (٢٣/ ٥٨).

(٢) «الفتاوى»: (٢٣/ ٦٠)، ولمزيد من التفصيل، ينظر: (٢٣/ ٥٨ ـ ٦٠).

(٣) شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٢٣/ ٢٣٦).

(٤) رواه البخاري في «صحيحه»: (٤/ ١٧)، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر ما كان يعمل في الإقامة.

(٥) شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٢٣/ ٢٣٧).

إن صور وقوع الغلاة في الغلو ـ بسبب عدم تقديرهم ظروف الناس، وأعذارهم ـ كثيرة، ولكني أسوق هنا مثالاً واحداً:

إن من عجائب بعض الغلاة المعاصرين: إلزامه جميع الناس بالتقليد!

يقول شكري مصطفى في سياق وصفه للجماعة المسلمة: (هي جماعة واحدة لها أمير واحد، سندها كتاب الله والسنة. يكفرون بالتقليد، وكل مسلم فيها مجتهد، لا مجال فيها للفرق والمذاهب والأحزاب، بل كلُّها حول أميرها معتصمون بحبل الله)[١].

ويقول في معرض رده على أهل السنة: (ورداً على قولهم: إن الله لا يمكن أن يكلف هؤلاء الجاهلين بالإسلام. نقول: إن الحقيقة أنهم ما كانوا جاهلين إلا لتركهم الإسلام، وانشغالهم بالدنيا، وأنهم بعد أن أصبحوا جهلاء لا يعلمون فقد انخلعوا من الإسلام كلية، انشغلوا بالدنيا، وقلدوا أمورهم «أمر دينهم وأمر ربهم» لغيرهم، حتى يتفقهوا لهم في الدين ثم قلدوهم)[٢].

ويقول: (المشكلة أن هؤلاء الناس افترضوا الواقع الذي يعيشون فيه واقعاً إسلامياً، وعليه بنوا آراءهم وشطحاتهم ... فوجدوا من المسلمين بزعمهم من لا يكاد يفقه حديثاً، ولا يعرف عن الإسلام إلا الاسم فقالوا: كيف يكلف هؤلاء بالاجتهاد لمعرفة أحكام الإسلام؟ ويزول الإشكال بقولنا: إن الأصل هو أن تحتج بالإسلام على الواقع الذي تعيش فيه، فتبين أن هؤلاء الناس ليسوا على أدنى صلة بالإسلام، وأنهم من الأصل ليسوا مسلمين، فلا عجب إذن جهلهم بالإسلام. ولا داعي آنذاك أن يستدرك من لا عقل له على الله أن يكلف مثل هؤلاء بالإسلام)[٣].

---

(١) «الحجيات»: (١٤).    (٢) «المصدر نفسه»: (١١).

(٣) «المصدر نفسه»: (١٢)، وقد ناقشت قولهم وأدلتهم في: «الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة»: (٣٦٧ـ٣٧٤).

والحق أنه بهذا لم يلتفت إلى تفاوت الناس في العلم؛ إذ ذلك التفاوت أمر مقرر شرعاً وعقلاً وحساً: فالله عز وجل يقول في القرآن الكريم: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [سورة الزمر، الآية: ٩]. ويقول معلماً نبيه ﷺ ﴿وقل رب زدني علماً﴾ [سورة طه، الآية: ١١٤]، ويقول لمن لا علم له: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٨].

وبالعقل يعلم أن الإنسان لا يولد عالماً، وإنما العلم تراكمي، فتتراكم علوم الإنسان ومعارفه على مدى عمره. وبهذا يكون الناس درجات، منهم الجاهل، ومنهم المتعلم، ومنهم العالم.

❑ ❑ ❑

# الفصل الثاني
# الأسبابُ النفسيَّة والتربويّة

**وفيه مبحثان:**

**المبحث الأول : الأسباب النفسية.**

**المبحث الثاني: الأسباب التربوية.**

# المبحث الأوّل

# الأسباب النّفسيّة

**وفيه خمسة مطالب :**

**المطلب الأول : افتقاد التوافق.**

**المطلب الثاني : عدم إشباع الحاجات الإنسانية.**

**المطلب الثالث : الاضطرابات النفسية والسلوكية.**

**المطلب الرابع : الاضطرابات الانفعالية.**

**المطلب الخامس : طبيعة الشخصية الموجِّهة أو القائدة.**

## تمهيد

ابتغاء معرفة أشمل للسلوك الإنساني المتمثل في ردود الأفعال، أو المثيرات لمختلف جوانب وأوجه الحياة، علينا أن ندرس ماهية السلوك الإنساني سواء السلوك الظاهر أو السلوك الخفي، وكون هذا السلوك ذاتياً أو جماعياً، سوياً أو شاذاً، وما هي معايير الحكم على سوية السلوك أو شذوذه وهذا يستلزم منا أن ندرس ظاهرة الغلو من وجهة نفسية. ففي علم النفس يقول المختصون: إن تفسير السلوك الإنساني تفسيراً علمياً يتوقف على مقدار فهمنا للتكوين النفسي للإنسان ذاته[١] والعوامل الاجتماعية من حوله إذ إن سلوك الفرد تشكله دعامتان:

**الأولى: البعد الاجتماعي للسلوك.**

**الثانية: البعد النفسي للسلوك.**

ذلك أن سلوك الفرد يحدده النظام الاجتماعي السائد في بيئته، وما يفرضه هذا النظام من التزامات، ومسئولياتٍ، وواجبات، ومعايير وأنماطٍ للسلوك.

كما يتحدد سلوك الفرد بالفرد ذاته بالنظر إلى إمكاناته المميزة لشخصيته وتوافقه مع المواقف المختلفة بطريقةٍ معينة[٢].

---

(١) ينظر د. عبد الحميد الهاشمي: «أصول علم النفس العام»: (١١١ ـ ١١٢).

(٢) ينظر عباس محمود عوض: «مدخل إلى الأسس النفسية والفسيولوجية للسلوك»: (٢١٩).

وعليه فإن الاهتمام بالعوامل النفسية المؤثرة في مشكلات المجتمع لا بد أن يكون مراعياً للجمع بين تلك العوامل والعوامل الاجتماعية، وهو ما اصطلح عليه بعلم النفس الاجتماعي.

وهذا المبحث المعقود لدراسة العوامل النفسية والاجتماعية ليس هدفه قصر أسباب الغلو في هذا الجانب؛ ولكنه كشفٌ لأبعاد أخرى لأسباب الغلو وجذوره ليتحقق تكامل الرؤية الواضحة الموضوعية إذ (لا شك أن من أهم الأمور التي شغلت الباحثين في مجال العلوم السلوكية بحثهم الدائم للتوصل إلى الأسباب التي تدفع الأفراد لنهج سلوك معين، والامتناع عن أنماطٍ أخرى من السلوك)[1].

وإن كنت على يقين أن موضوع الأسباب النفسية: بحاجةٍ إلى معالجة أشمل من متخصص في علم النفس مطلع على العلوم الشرعية، ومظاهر الغلو المعاصرة إذ ثمة كتابات ودراسات لمتخصصين في علم النفس عن: التطرف، والإرهاب، والعنف والاتجاهات التعصبية؛ ولكن تلك الدراسات على كثرتها وتشعب آراء أهلها وتعدد اتجاهاتهم تفتقد الفهم للدين الذي وقع الغلو من بعض أهله مما يفقدها روحها ولبّها.

ولست بهذا أزعم كما زعم بعض الباحثين: أن مشكلة الغلو و(الإرهاب) عائدة إلى علة نفسية، ومرض عقلي يعاني منه (الإرهابي) أو المغالي[2] ولكني أعيد الإشارة إلى أن المشكلة نابعة من جملة أسباب مختلفة، وهذا ما شهد به بعض المتخصصين في علم النفس والطب النفسي، إذ يقول: (إن إطلاق صفة المريض على الإرهابي شدت انتباه الكثيرين، وراقت لهؤلاء الذين دفنوا رؤوسهم في الرمال، وغضوا النظر عن الأسباب الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية

---

(١) د. إبراهيم الغمري: «السلوك الإنساني»: (١٦٩).

(٢) ينظر سمير أحمد: «محددات التطرف الديني في مصر، مجلة المستقبل»: (١١٢).

الهامة، والموجودة في كل أنحاء العالم، والتي تعد أسباباً قوية للإرهاب السياسي وغيره من مظاهر العنف التي تسود الكرة الأرضية في عالمنا المعاصر.

إن مجرد إطلاق صفة المرض العقلي، أو الاضطراب (الفسيولوجي) على الإرهابيين تعد محاولة غير علميةٍ من جانبنا، كأننا نقول صراحة: العيب ليس فينا، المجتمع عادل ومتكامل، وليست هناك أخطاء لكن كلهم مجرد مرضى وعلينا إما أن نعالجهم أو نقتلهم، وحتى إذا توصلنا بشكل علمي إلى وجود خصائص نفسية أو سمات اجتماعية محددة لمن يقومون بالأعمال الإرهابية فلا يجب أن يدعونا ذلك إطلاقاً إلى الاسترخاء وتجاهل كافة العوامل السياسية والاجتماعية المحيطة بالموضوع)[١].

* * *

وللشروع في المقصود يحسن البدء بمقدمة عن السلوك الإنساني، وموقع الغلو منه:

تهتم الدراسات النفسية المعاصرة بدراسة متعمقة لسلوك الإنسان بغية الوصول إلى فهم أعمق للظواهر والمشكلات الإنسانية.

والسلوك يتمثل في جميع أوجه النشاط الصادرة عن الإنسان سواء كانت حركات جسمية، أم عبارات لفظية، أم خبرات فهو شامل لكل ما يمارسه الفرد ويفكر فيه ويشعر به[٢].

ومن أجل معرفة أدق للسلوك الإنساني أذكر بعض المفاهيم المتعلقة به ليتحدد موقع الغلو منها:

---

(١) د. خليل فاضل: «سيكولوجية الإرهاب السياسي»: (٦٢ ـ ٦٣).

(٢) ينظر: د. رجاء محمود أبو علاّم: «علم النفس التربوي»: (١٦)، ود. محمد عاطف غيث: «قاموس علم الاجتماع»: (٣٦).

١ ـ **السلوك الخفي**:

وهو السلوك الذي يقوم به الفرد، ويصعب على الآخرين ملاحظته؛ لأنه من قبيل المشاعر، والأحاسيس، والتفكير، والتذكر، والإدراك، أي يتعلق بالجوانب الانفعالية والعقلية في السلوك، ومع ذلك فإنه يمكن أن يستدل على هذا النوع من السلوك عن طريق السلوك الظاهر، أو عندما يصف الإنسان خبراته الخاصة للآخرين[١].

٢ ـ **السلوك الظاهر**:

وهو السلوك الذي يمكن ملاحظته، ومن أمثلة هذا النوع من السلوك النشاط الحركي الذي يقوم به الفرد[٢].

٣ ـ **النمط السلوكي**:

وهو سلسلة من الأفعال متماثلة ومستقرة نسبياً يقوم بها أشخاص تؤدي إلى استجابات معينة في موقف معين[٣].

٤ ـ **السلوك الشاذ**:

الشذوذ هو الخروج عن المألوف والمعتاد. فالسلوك الشاذ يمثل الانحراف عن النموذج المعياري للسلوك، فعندنا معشر المسلمين يعد المعيار الذي يحاكم إليه النَّاس هو الدين، ويعد عند غيرنا: النظم السائدة المتعارف عليها في المجتمع، ولهذا يختلف السلوك الشاذ من الناحية الاجتماعية ويصبح نسبياً مما يعد شذوذاً في مرحلة تاريخية لا يعد شذوذاً في مرحلة تاريخية أخرى.

---

(١) ينظر د. محمد عاطف غيث: «المصدر السابق»: (٣٦ ـ ٣٧).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٣٧)، و د. رجاء أبو علام: «علم النفس التربوي»: (١٦).

(٣) ينظر المصدر السابق نفسه.

- **كيفية الحكم على السلوك السوي والسلوك الشاذ:**

عندما نقرر أن المعيار لدينا للحكم على أن السلوك سويٌّ هو: الدين خصوصاً والكلام عن الغلو في الدين، فإننا بحاجة إلى بيان وتحديد سمات الشخصية السوية من خلال النصوص الشرعية، وذلك من خلال النظر إلى تسعة مجالات رئيسة من مجالات السلوك هي:

١ـ سمات تتعلق بالعقيدة: الإيمان بأركان الإيمان الستة.

٢ـ سمات تتعلق بالعبادات: الالتزام بأركان الإسلام، والتكاليف الرئيسة كالجهاد.

٣ـ سماتٌ تتعلق بالعلاقات الاجتماعية من مثل: الإحسان إلى النَّاس، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ـ سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية: من مثل: بر الوالدين وصلة ذوي الأرحام، وحسن المعاشرة بين الزوجين.

٥ـ سمات خلقية مثل: الصبر، الحلم، الصدق، الأمانة.

٦ـ سمات انفعالية وعاطفية مثل: حب الله، محبة الصالحين، لوم النفس على المعصية.

٧ـ سمات عقلية ومعرفية مثل: التفكر في الكون، عدم اتباع الظن.

٨ـ سمات تتعلق بالحياة العملية مثل: إتقان العمل، الجد.

٩ـ سمات تتعلق بالبدن مثل: الطهارة والقوة[1].

---

(١) ينظر محمد عثمان نجاتي: «القرآن وعلم النفس»: (٢١٤ ـ ٢١٥)، وينظر: د. سيد عبدالحميد مرسي: «الشخصية السوية»: (٦٨ ـ ٦٩)، و د. محمد محمود محمود: «علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام»: (٣٧٦ ـ ٣٨٥).

ولا يعني هذا أن الشخصية السوية لا بد فيها من توافر جميع هذه السمات، ولكن المراد أنَّه كلما قوي التحقق بها كانت الشخصية أقرب إلى أن تكون شخصية سوية.

ومن الملاحظ أن ملامح الشخصية السوية الممثلة في:

١ ـ **التكيف**: وهو القدرة على إيجاد العلاقات بين الفرد وبيئته.

٢ ـ **التوافق**: مع ذات الإنسان ومجتمعه.

٣ ـ **إشباع الحاجات الأساسية**[1]: كل أولئك يتحقق بحسب تحقق العبد بالسمات الرئيسة لمجالات السلوك التي جاء بها الإسلام.

وحين يخل العبد بشيء من تلك السمات أو يزيد في التحقق بها عن الحد الذي أمر به فقد انحرف عن الحق، سواءٌ إلى الغلو أو إلى التفريط.

وبهذا يتبين موقع الغلو وأنه نوع من أنواع السلوك الشاذ، وشخصية الغالي شخصية شاذة غير سوية كما هو الحال في المفرط أيضاً.

□ □ □

(١) ينظر د. سيد عبد الحميد مرسي: «الشخصية السوية»: (٧٩ ـ ٨١).

## المطلب الأول

## افتقاد التوافق

(إن التوافق النفسي هو إحساس الفرد بالرضا الذاتي نحو عمله وسلوكه المرغوب في المجتمع الذي يعيش فيه، ذلك السلوك الموحد، وإن شئت فقل نمط السلوك الذي يحدث وفق معايير الجماعة، ومثلها، واتجاهاتها، وقيمها الاجتماعية)(١). ويشمل ذلك: التوافق مع الذات والرضا عن النفس، والتوافق الاجتماعي مع الأسرة والمدرسة والمهنة والمجتمع بشكل عام.

فالتوافق مع الذات يستشعر من خلاله الفرد الطمأنينة والثقة واحترام النفس وتقبلها(٢).

والتوافق الاجتماعي يشعر الفرد من خلاله بحب الآخرين والثقة فيهم، والقدرة على إقامة علاقات اجتماعية سليمة، والانتماء للمجتمع، والاضطلاع بالأدوار الاجتماعية المناسبة، والتفاعل في الحياة الاجتماعية.

ونظرة الإسلام للتوافق قائمة على أن الإنسان يملك القدرة على اختيار أفعاله و إتيان سلوكه، وأنه مسؤول عن ذلك كله: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٩]، ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [سورة المدثر، الآية: ٣٨].

ويحث الإسلام على التوافق الحسن فيأمر بالتعاون على البر والتقوى ويحض على التسامح والمودة وحسن الجوار، والإصلاح بين الناس قال تعالى: ﴿وتعاونوا

---

(١) د. عزت عبد العظيم الطويل: «في النفس والقرآن الكريم»: (٢١).

(٢) د. حامد عبد السلام زهران: «الصحة النفسية والعلاج النفسي»: (١٣).

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

كما نهى عن كل ما يخل بتوافق الإنسان مع مجتمعه؛ فأمر باجتناب الحسد والتباغض، وسوء الظن، والخصومة[١]. قال رسول الله ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[٢].

كما أمر الإسلام الفرد بالتزام الجماعة، والخضوع لقواعد السلوك فيها: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٩].

ولم يجعل الإسلام توافق الإنسان مع ذاته ومجتمعه توافقاً قائماً على الخضوع الجبري، إذ لم يجعله صورة متكررة لأفراد المجتمع الآخرين، بل جعله توافقاً مسئولاً قائماً على بصيرة وإرادة الفرد حيث ألزمه إصلاح نفسه، والعمل من أجل الجماعة خضوعاً لأحكام الشريعة، فإن تعذر إصلاح الجماعة فعليه إصلاح نفسه، وعدم الطاعة في المعصية، فالطاعة إنما هي في المعروف يقول الرسول ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»[٣]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «على المرء المسلم

---

(١) د. كمال إبراهيم مرسي: «المدخل إلى علم الصحة النفسية»: (٩٢).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٧/ ٨٨)، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، وقوله تعالى: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾، وفي (٧/ ٩١)، كتاب الأدب، باب الهجرة وقول رسول الله ﷺ: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث»، ومسلم في «صحيحه»: (٣/ ١٩٨٣، رقم ٢٥٥٩)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، وأبو داود في «سننه»: (٥/ ٢١٣ ـ ٢١٤، رقم ٤٩١٠)، كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، والترمذي في «سننه»: (٤/ ٣٢٩، رقم ١٩٣٥)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الحسد، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه البخاري: (٩/ ٧٩) كتاب الاحكام: باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصيةٍ فإن أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة»[١].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا تكونوا إِمَّعَةً تقولون إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[٢].

وحين التأمل في الحياة المعاصرة نجد أن كثيراً ممن اتهموا بالغلو، أو وقعوا فيه هم ممن يفتقد التوافق مع المجتمع، ولكنهم حين افتقدوا هذا التوافق لم يصيروا إلى الأساليب الشرعية في التغيير، ودعوة الناس إلى دين الله، ومما يوضح ذلك كلام ماهر بكري فقد ربط بين كلامه حول وجوب الهجرة من المجتمعات المعاصرة، وما أسماه أزمة المسلم في المجتمع الجاهلي ومجمل كلامه في هذا الموضوع يدور (والمصطلحات مصطلحاته) حول الاستضعاف والاضطهاد الذي يلقاه المسلم في المجتمع الجاهلي وما يلزم على البقاء في هذا المجتمع من عدم استطاعة المسلمين إقامة مسجد، وعدم استطاعتهم إلغاء شريعة الطاغوت والتحاكم إلى غير شريعة الله، ولزوم انتظامهم في جيش الطاغوت، واقتطاع الأموال على هيئة ضرائب لدعم قوى الجاهلية، والخضوع لمناهج ونظم التعليم وما فيها من تخطيط لصرف الناس عن دراسة الإسلام[٣].

---

(١) سبق تخريجه ص (١٠١).

(٢) رواه الترمذي في «سننه»: (٤/ ٣٦٤، رقم ٢٠٠٧)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) ينظر كتاب« الهجرة»: (٢٢ ـ ٣٨)، والآراء التي طرحها ناقشتها تفصيلاً في بحث: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة.

ويبدو من مجمل كلامه حول ما أسماه (أزمة المسلم في المجتمع الجاهلي) أن عدم التوافق مع المجتمع يعد سبباً من أسباب غلوهم إذ نتج عن ذلك القول بوجوب الهجرة، وحرمة الصلاة في المساجد إلا المساجد الأربعة: المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ومسجد قباء، والقول بحرمة العمل في الوظائف الحكومية في جملة أخرى من مظاهر الغلو.

❑ ❑ ❑

## المطلب الثاني

## عدم إشباع الحاجات الإنسانية

إن معرفة حاجات الإنسان، وما يرتبط بها من دوافع السلوك وأهدافه، والاستجابات السوية، وغير السوية يعد من أهم أسس فهم شخصية الإنسان وتفسير سلوكه، فالإنسان لا يفكر، ولا يتعلم، ولا يستوي سلوكه، ولا يجنح، ولا يفعل شيئاً إلا إذا كان مدفوعاً بحاجة يتحرك لإشباعها.

(إن مبدأ الحاجات الإنسانية، وسعي الأفراد الدائم من أجل إشباعها يمثل الركن الأساسي لمحاولة تفهم . . . السلوك الإنساني . . . وبالتالي فإن الفهم الحقيقي للحاجات الإنسانية يساعدنا في تفهم الأسباب التي تدفع الأفراد إلى القيام بسلوك معين، كذلك تفيدنا في توقع أنماطٍ معينةٍ من السلوك)[1].

وتوافق الإنسان مع ذاته، ومع المجتمع يعود إلى قدرة الإنسان على إشباع حاجاته، وأساليب تحقيق أهدافه، فإذا كانت الحاجات مقبولة، واستطاع إشباعها بطرق مشروعة شعر بالرضا وحسن التوافق، أما في حال الإخفاق في إشباع الحاجات، أو الإشباع بطرق غير مشروعة فإنه يشعر بعدم الرضا، وسوء التكيف مع الذات ومع المجتمع.

ويظهر تأثير الحاجات على الإنسان من ناحيتين:

١ ـ ناحية تدفعه إلى الاستمرار في سلوك أو نشاط معين.

٢ ـ ناحية توجهه إلى النشاطات والموضوعات التي تتصل بحاجاته، وتحقق له إشباعها.

---

(١) د. إبراهيم الغمري: «السلوك الإنساني»: (١٦٩ ـ ١٧٠).

والحاجات لها تقسيمات عدة أهمها: أن منها حاجات سوية، وحاجات غير سوية؛ فالحاجات السوية هي الطيبات التي أباحها الله، وجعل في إشباعها حفظ حياة الإنسان، وتنمية قواه الروحية والجسمية والعقلية[١].

وأما الحاجات غير السوية فهي ما حرمها الله سبحانه ونهى عنها، ويمكن أن تصنف الحاجات صنفين:

**الأول**: الحاجات العضوية.

**الثاني**: الحاجات غير العضوية.

**أما الحاجات العضوية**: فهي الحاجات الأساسية التي ينشأ عن نقصها نقصٌ، أو خلل حيوي يصحبه عدم اتزان داخل جسم الإنسان، وتوترات، وإثارات ومن هذه الحاجات:

١ ـ الحاجة إلى الطعام.

٢ ـ الحاجة إلى الشراب.

٣ ـ الحاجة إلى النوم.

٤ ـ الحاجة إلى الزواج.

**أما الحاجات غير العضوية**: وتسمى الاجتماعية فهي مكتسبة يتعلمها الإنسان من البيئة التي يعيش فيها، وتختلف في طبيعتها، وطريقة إشباعها من مجتمع لآخر، وكل مجتمع ينمي عند أبنائه مجموعة من الحاجات تعتبر أساسية للنمو النفسي للأبناء، ونضوجهم الاجتماعي.

وهذه الحاجات منها ما هو سوي، ومنها ما هو غير سوي، وسأذكر جملة من أقسامها:

---

(١) ينظر د. محمد عودة محمد، و د. كمال إبراهيم مرسي: «الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام»: (٧١، فما بعدها).

١ـ الحاجة إلى السيطرة على الآخرين: وهي تمثل رغبة الفرد في التحكم في سلوك الآخرين، وفي مشاعرهم واتجاهاتهم.

٢ـ الحاجة إلى الانقياد: وهي تمثل الحاجة إلى اتباع قائد، والإعجاب به.

٣ـ الحاجة إلى الاستقلالية الذاتية: أي الرغبة في أن يسير الفرد وفق هواه دون أن يؤثر فيه الغير، ودون أن يوجه من قبل الآخرين.

٤ـ الحاجة إلى العدوان: أي الرغبة في الاعتداء على الآخرين ومهاجمتهم، والغضب عند المواجهة، أو في حال تعرض الفرد للإهانة، أو المعارضة، أو المضايقة.

٥ـ الحاجة إلى الخضوع، أو ما يعرف بتحقير الذات والخنوع الذي يصاحبه الشعور بالنقص.

٦ـ الحاجة إلى التحصيل والإنجاز وهي الرغبة في تحصيل شيء صعب المنال، وإتقان بعض المهارات، والتغلب على الموانع والعوائق.

٧ـ الحاجة إلى التذوق الحسي: وهي الرغبة في التمتع باللذة الحسية مثل الإبصار، وسماع الأصوات الحسنة أي الانطباعات الحسية كلها.

٨ـ الحاجة إلى الظهور ولفت النظر أي: الرغبة في التأثير على الآخرين حتى يروه ويسمعوه، فيثير انتباههم.

٩ـ الحاجة إلى الانتماء وتمثل الرغبة في التعاون مع الآخرين والاشتراك معهم.

١٠ـ الحاجة إلى النبذ والرفض الاجتماعي، وتمثل الرغبة في الابتعاد عن الآخرين غير المرغوب فيهم وإهمالهم[١].

---

(١) ينظر د. عبد الرحمن عيسوي: «دراسات في الشخصية الإسلامية والعربية وأساليب تنميتها»: (٢٠ـ٢٢).

* * *

وبهذا يتبين أن للشخصية الإنسانية وخصوصاً في مرحلة الشباب ـ التي هي مرحلة التكوين ـ جملةٌ من الحاجات الأساسية التي ينبغي إشباعها وتوجيهها، وإذا أمكن إشباعها وتوجيهها عاش المرء في استقرار نفسيٍّ واجتماعي، وأما إذا لم يتحقق فسوف تظل طاقة الشاب حبيسة معرضة للانحراف ويصير الشاب إلى أحد طريقين:

١ ـ إشباع حاجاته من طرق غير سوية.

٢ ـ البقاء في ظل الحرمان من إشباع تلك الحاجات.

وكلا الطريقين يصير بالمرء والمجتمع إلى ألوان من عدم الاستقرار.

لقد أجريت دراسة علمية على الشباب المصري[1] فكشفت تلك الدراسة عن أن الشباب يواجه مشكلات عديدة في الاحتياجات المختلفة:

* فالشباب يعاني من مشكلات شرعية تظهر في شكل تساؤلات وجوانب غامضة لا يجد لها إجابة حيث يظهر في نتائج الدراسة أن نحواً من ٢٧٪ من عينة البحث يعانون من عدم إشباع لهذه الحاجة الرئيسية.

* كما يعاني الشباب من مشكلاتٍ اجتماعية فمثلاً: قد لا تشكل الأسرة إطاراً ملائماً لإشباع الحاجات الأساسية إذ نجد أن نحو ٤١٪ من حجم العينة يعاني من مشكلات أسرية.

* كما يعاني الشباب من الجانب الاقتصادي حيث نجد أن نسبة ٨٣٪ من عينة الدراسة تعاني من مشكلات اقتصادية تعوق إشباع حاجات الشباب داخل السياق الاجتماعي.

---

(١) الدراسة هي للدكتور: علي ليلة وعنوانها: «الشباب والمجتمع: ملامح الاتصال والانفصال»: (١٧٧ ـ ١٧٩).

* كما يعاني الشاب فيما يتعلق بإشباع الحاجات الغريزية كالزواج فيفقد الأمل في تشكيل الأسرة، أو يؤخره لفترة تضعف فيها هذه الحاجة.

وتبين الدراسة أن حوالي ٢٨٪ من عينة الدراسة تعاني من مشكلات جنسية، ورغم ما يبدو من الانخفاض الظاهري لدرجة المعاناة هذه إلا أن من الواضح أن هناك من يشبع تلك الغريزة بطرق محرمة، أو من يمنعه الحياء عن إبداء معاناته من هذا الأمر(١).

وعند التأمل في جوانب الحاجات السابق ذكرها، وأقسامها يتبين وجه آخر من أوجه العلاقة بين عدم إشباع الحاجات وبين الغلو فمثلاً: الحاجة إلى الانقياد تظهر في أن طوائف من الشباب افتقدوا القيادات الراشدة في مجال العلم والعمل فعوضوا تلك الحاجة بتنصيب قيادات غير راشدة، وإن كانت في الظاهر آسرة لاتباعها.

* * *

ومع أن الحاجة تدفع المرء إلى النشاط، وبذل الجهد حتى يسد النقص، ويشبع الحاجة إلا أن من الواضح أن الوضع المعاصر لا يساعد في كثير من الأحيان على إشباع تلك الحاجات بل تقف أمام المرء كثيرٌ من العوائق مما يرفع درجة التوتر عنده، ويفقده التوازن الداخلي، ويدفعه إلى ما يشبع حاجته بوسائل غير شرعية ذلك أن السلوك الوسيلي أو الأدائي كما يسمى في علم النفس ـ وهو الاستجابات التي توصِلُ الإنسان إلى ما ينقصه ويشبع ـ حاجته ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

---

(١) ينظر د. علي ليلة: «الشباب في مجتمع متغير: تأملات في ظواهر الإحياء والعنف»: (٢١٢ ـ ٢١٥).

١ـ سلوك مقبول ويتمثل في استجابات مشروعة لإشباع الحاجات مثل تناول الطعام الحلال لإشباع الحاجة إلى الطعام.

٢ـ سلوك غير مقبول ويتمثل في استجابات غير مشروعة لإشباع الحاجات.

٣ـ سلوك دفاعي ويتمثل في استجابات يلجأ إليها الإنسان عندما يفشل في إشباع حاجة من حاجاته كي يخفف التوتر الناتج عن الفشل في تحقيقها[1].

وبالنظر إلى هذه الأنواع يتضح جانب آخر من علاقة هذا الموضع بالغلو ذلك أن المرء ولتحقيق حاجاته يلجأ إلى سلوك غير مقبول كالعنف مثلاً.

أو يلجأ إلى سلوك دفاعي فيكفر الآخرين للفرار من المشكلة التي هو واقعٌ فيها.

❑ ❑ ❑

---

(١) ينظر في هذا الموضوع د. محمد عودة محمد وزميله: «الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام»: (٧٢ـ ٧٣).

## المطلب الثالث

## الاضطرابات النفسية والسلوكية

إن العدوانية الناجمة عن العلاقات الأسرية السيئة تعد من عوامل ظهور الاضطرابات النفسية، كما أن اضطرابات التفكير هي من الاضطرابات النفسية وكل أولئك قد يكون من أسباب الغلو عند بعض الأفراد.

إن الاضطراب النفسي عند فردٍ معين، يمثل مشكلة ذاتية، لا يمكن فهمها إلا في ضوء دراسة شخصية هذا الفرد من أبعادٍ مختلفة: جسميةٍ، وعقلية، وانفعالية[١].

وعلاج الاضطرابات النفسية ينظر إليه على أساس التفاعل القائم بين الفرد وبيئته المادية والاجتماعية حتى يمكن تفسير سلوكه في ضوء هذا التفاعل.

وكل فرد رغم تشابهه مع غيره له شخصيته المميزة وظروفه الخاصة، فقد يثير موقفٌ معينٌ القلق والاضطراب لدى فرد في حين لا يؤثر هذا الموقف في غيره من الأفراد نفس التأثير، وليست العبرة بنوع الموقف، ولا بالعوامل المتداخلة فحسب، وإنما بكيفية استجابة الفرد له، وتفاعله معه أيضاً.

وهذا ما يفسر اتجاه فردٍ أو أفراد للغلو بسبب عوامل معينة تعرض لها المجتمع كله، ومع ذلك لم يستجب لها فيقع في الغلو إلا ذلك الفرد أو الأفراد.

والواقع أن الفرد عند استجابته لمواقف معينة يكون تحت تأثير عوامل متعددة أهمها:

---

(١) ينظر د. انتصار يونس: «السلوك الإنساني»: (٣٧١ـ٣٨٧).

١ ـ إيمانه وتمسكه العقدي.

٢ ـ درجة نضجه.

٣ ـ استعداداته العقلية.

٤ ـ خبراته السابقة.

٥ ـ اتجاهاته الاجتماعية.

٦ ـ تكوينه الحيوي.

ولتقريب الأمر أورد هذا المثال: إن من أهم أسباب الاضطرابات النفسية الانهيار الأسري، والتربية القاسية، والغلظة والاستبداد في معاملة الصغار وخاصة في المراحل العمرية الأولى لدرجة تعرضهم لاضطرابات انفعالية حادة.

ورغم هذا كله، ووفقاً لما نلمسه في حياتنا الاجتماعية، نجد أن بعض الأفراد تنمو لديهم وسائل دفاعية تزيد من قوة احتمال الذات لديهم، وتخفض التوتر الذي يواجههم فلا يقعون في اضطرابات نفسية.

❊ ❊ ❊

إن أسباب الاضطرابات النفسية ليست واحدة بالنسبة لكل الأفراد فهي تعتمد على: شخصية الفرد، ونوع المواقف التي يتعرض لها، وكيفية التفاعل بينه وبين هذه المواقف.

ولذلك فإن أي اختلال حيوي، أو اختلال في تناسق الوظائف النفسية، أو أي معوقات بيئية، كل هذا أو بعضه قد ينجم عنه الإحباط والصراع الشديد وتهديد الذات، ونتاج هذا القلق الذي يعاني منه الكثير من المغالين حيث أن القلق من وجهة النظر المرضية النفسية ينشأ من عجز الفرد عن حل صراعه، وبذلك يكون القلق هو نقطة البداية لكل ألوان سوء التكيف واضطراب الشخصية.

وهناك عوامل كثيرة تساعد على الاضطراب النفسي ، منها :

١ـ الوراثة .

٢ـ السن .

٣ـ الإفراط في العمل .

٤ـ العلاقات الشخصية .

ولعل من الأهمية بمكان إيضاح ما يتصل بالعلاقات الشخصية التي تعد مصدراً هاماً بل أساساً من مصادر الاضطراب النفسي حيث تؤثر في كفاءة الفرد الإنتاجية ، وفي سعادته وفي تكيفه الاجتماعي .

وتتأثر هذه العلاقات في شكلها العام بنوع العلاقات التي كانت قائمة بين الفرد ووالديه في الطفولة ، ولهذه العلاقات دورها الفعال في الصراع والإحباط وفي شخصية الفرد عامة .

زيادة على ذلك فإن العلاقات الأسرية غير السوية كثيراً ما تنمي عند الطفل نزعات عدوانية يكبتها في اللاشعور، وتظل نشطة تثير القلق الذي يؤدي بدوره إلى شعور بالذنب فيحولها الفرد إلى استجابات واضطرابات مرضية ولا أود استعراض الاضطرابات الفكرية والعدوانية عامةً ولكني أمثل بالعدوانية .

**العدوانية :**

يرجع العنف السلوكي أو ما يعرف بالعدوانية بين أفراد البشر إلى عوامل منها :

١ـ عدم معرفة الذات .

٢ـ تحقيق حاجات الفرد دون اهتمام أو اعتبار لحقوق الآخرين .

٣ـ عدم تقدير الذات حق قدرها .

والحياة الاجتماعية تقوم على علاقاتٍ متبادلة بين الفرد ومختلف الجماعات التي يعيش بينها، وعادة ما يسعى الإنسان نحو تحقيق حاجياته ورغباته في حياته الاجتماعية وإشباعها، وليس هناك من تساوٍ بين الأفراد بل هناك الفروق الفردية واختلاف طاقات الأفراد بين سلوك سوي وسلوك عدواني، وصراع ومناقشات مع الذات ومع الآخرين وعدم توافق أو انضباط اجتماعي لمصلحة الفرد أو مصلحة الجماعة.

والعدوانية تتمثل في الاستجابات التي تتسم بالعنف والمهاجمة ولا ترى وسيلة للتعامل مع الآخرين إلا بها[1].

ومن مظاهرها: الغضب الشديد، ويعد من الأعراض الأولية للاضطراب النفسي.

وترجع في أسبابها إلى إحباط لدوافع الفرد ونزعاته أو تكون وسيلة لتعويض الشعور بالنقص وعدم الأمن، أو تكون عملية تعويض لفقدان احترام الذات، وخاصة عندما ترتبط بالشعور بالاضطهاد، ولعل هذا ما يفسر الاتجاه إلى العنف وأنه يأتي عقب موجات التعذيب والاعتقالات والاضطهادات.

والعدوان له صور مختلفة فقد يأخذ شكل أفعال من الغضب، أو يفضي إلى عنف مادي نحو الموضوعات أو النَّاس، أو يكون في صورة لفظية، أو تخيلات تدور حول العنف والمهاجمة.

□ □ □

---

(١) ينظر أ. د: عبد المجيد منصور: «العنف السلوكي»: (١٠ـ ١١).

## المطلب الرابع

## الاضطرابات الانفعالية

تمثل الاضطرابات الانفعالية حالات تكون فيها ردود الأفعال الانفعالية غير مناسبة بالنسبة لمثيراتها بالزيادة أو النقصان فالخوف الشديد من مثير مخيفٍ لا يعتبر اضطراباً انفعالياً بل يعتبر استجابة انفعالية وضرورية للمحافظة على الحياة. أما الخوف الشديد من مثير غير مخيف فإنه يعتبر اضطراباً انفعالياً.

ومن الاضطرابات الانفعالية التي يندرج تحتها بعض حالات الغلو والتطرف أو تكون سبباً له ما يعرف بعدم الاتزان الانفعالي أو عدم الاستقرار الانفعالي، وكثرة التقلب. والتحول أو التنقل الانفعالي أو الخفة الانفعالية تدل على ذات غير سوية، والقصور في وجود ذات مستقرة يؤدي إلى قصور في الأحكام، وفي الحفاظ على نوعٍ من القرارات بل يسهل الإذعان للتقلبات المزاجية: (إن الانفعال الهائج علامة الفشل أو الخيبة في إيجاد حل سريع وإخفاق الكيف أو التوافق، والانفعال الثائر لا يعطل قوانا العقلية فقط، بل يبدد طاقتنا، ويؤدي إلى التهور والاندفاع والخروج عن الاعتدال والاتزان في سلوكنا وتعاملنا مع الآخرين مما يفسد العلاقات الإنسانية، ويؤدي إلى سوء التوافق الاجتماعي، وبالتالي يؤدي إلى عجز الشخص عن كفاءته الإنتاجية ومستوى الأداء)[١].

---

(١) د. محمد مصطفى زيدان: «الدوافع والانفعالات»: (٩٥).

بينما الانفعال الهادي المعتدل يساعد على تأدية الوظائف العقلية بنظام وتنسيق، فهو يمهد لتغلب العقل والروية على النزوات والاندفاعات والتهور ويساعد على ضبط النفس وكبح جماحها فيكون الشخص أكثر اتزاناً في التفكير والتصرفات وأبعد عن الهوى والعاطفة في الأحكام، ويحظى بالقبول في المجتمع والنجاح في التأثير على الآخرين كما يزداد لديه الميل إلى مواصلة العمل، ويساعده ذلك على حصر الانتباه ودقة الإدراك[١].

وتعود الاضطرابات الانفعالية إلى جملة أسباب فقد تكون:

* أسباباً حيوية مثل: القصور الجسمي والإصابات والعاهات والصرع، وعدم التوافق مع هذه الحالات.
* وقد تكون أسباباً نفسية مثل: الإحباط والفشل.
* وقد تكون أسباب اجتماعية مثل: البيئة الأسرية المضطربة أو الضغوط الاجتماعية الحادة.

والذي يبدو من خلال مناقشة بعض من وقعوا في الغلو أن الانفعال سمة من سماته ذلك أن الغالي يقع تحت تأثير ضغوط داخلية واجتماعية تدفعه إلى الانفعال فتكون أحكامه حادةً وقوية، وتصرفاته عنيفة.

□ □ □

---

(١) ينظر المصدر السابق: (٩٦).

## المطلب الخامس
## طبيعة الشخصية الموجهة أو القائدة

تتعدد أنماط الشخصية وفقاً لما هو معروف من الناحية النفسية بالفروق الفردية، الأمر الذي يجعل كل فردٍ له بناؤه الشخصي الذي يمثل نمطاً خاصاً به.

ومن أنماط الشخصية: الشخصية المتسلطة أي المستبدة، التي تتسم ضمن خصائصها بدافع إلى السيطرة والتسلط على الآخرين وعلى ما لدى الآخرين من حاجة إلى الاعتماد على غيرهم.

ولذلك لا ينبغي أن نفهم أن التسلطية الاستبدادية إنَّما تقوم على خوف الاتباع مما يتهددهم به المتسلط المستبد من عقاب أو أذىً مادي، فإن المستبد المتسلط لا يكتفي بالتخويف أو الإرهاب فقط، وإنما يعتمد على إشباع بعض الحاجات النفسية لأتباعه، كما أنه يسيطر على أتباعه نفسياً وبدنياً وهذا ما يفسر لنا ما كانت تقوم به جماعة شكري مصطفى من ولاء لقيادتها له وجهان:

فمن جهة لا يمكن لأي فرد أن يخرج عن الجماعة، فلقد قام بناء هذه الجماعة (على الطاعة المطلقة بل والعمياء فأي شخص كان يشم منه رائحة لقياس الأوامر الصادرة إليه بمقياس شرعي أو حتى استفسار عن مغزاه كان يواجه بتهمة الردة ويعامل معاملة المرتدين)[(١)].

ومن جهة أخرى يقوم نوع من التكافل بين أفراد الجماعة حيث يدفع المرء دخله إلى القيادة حتى ولو كان يعمل في الخارج ليوزع على بقية الأتباع ثم تقيم

---

(١) عبد الرحمن أبو الخير «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (١٣٤ ـ ١٣٥).

الجماعة في وحدات سكنية مشتركة ويزوج أعضاءٌ بأخوات أو بنات أعضاءٍ آخرين وهذا يحقق الكفاية في أمر السكن والزواج مع تحقيق الولاء والتبعية للقيادة.

إن الشخصية المستبدة المتسلطة تختلف عن الشخصية القيادية المعتدلة، إذ تنشىء الشخصية المستبدة عند الاتباع دوافع وحاجات نفسية معينة كالأمن والطمأنينة وتوقي الأخطار وإيثار السلامة وما إلى ذلك من دوافع لم تكن تصدر عنها الجماعة في سلوكها.

كما يقوم باستغلال ما لدى الأتباع من حاجات أولية ولا شعورية كالحاجة إلى الاتكال والاعتماد على الغير مثل أن يكون شخص بمثابة الوالد لجماعة الأتباع، والرغبة في الحصول على الرضا عندما يستجيب التابع لكل أوامر المتبوع ويكون صورة عنه[1].

هذا إلى أن الشخصية المستبدة المتسلطة تؤكد وجودها في بؤرة انتباه الجماعة ووعيها الدائم، وتؤكد أهمية الطاعة المطلقة للقيادة.

والشخصية المستبدة المتسلطة قد تلجأ في سبيل تحقيق طاعة الجماعة إلى العمل على التباعد بين أفراد الجماعة، وأن يكون التقارب والتفاعل من طريقه هو فقط.

ومن شأن مثل هذا السلوك أن يرسخ الغلو إذ يكون مصدر الأوامر ذلك الغالي المستبد بمن يتبعه دون أن يكون للأتباع سبيل للبحث عن الحق وسأورد جملة من أقوال شكري مصطفى حول الجماعة والطاعة والتي يقصد بها جماعته، وأقوال بعض أتباعه حول شخصيته والطاعة المطلقة له.

---

(١) ينظر د. أحمد عبد العزيز، و د. عبد السلام عبد الغفار: «علم النفس الاجتماعي»: (٢١٠ - ٢١١).

يقول شكري مصطفى: (إن للإمام الحق أن يتدخل ليوجه عناصر القوة في الجماعة، وأن ينسق بينها، حسب رؤيته للمصلحة . . . وإن الذين يظنون أن له أن يتحكم في الأرواح والدماء فيحدد ميعاد المعارك وخطتها . . . ثم لا يرون له حقاً في أن يتحكم في الأموال . . . حيث يشاء وينقل منها حيث يرى المصلحة أقول: إن الذين يظنون أن له هذه[(١)] وليس له هذه قد ضربوا المثل الرفيع في الحماقة)[(٢)].

ويقول: (إن للإمام أن يأمر بالأمر من غير بيان علة الأمر بل من الواجب عليه ذلك فيما يرى أن في كتمانه صلاحاً وأن في إفشائه خطأ، وعلى المسلم أن يسمع ويطيع في كل ذلك حتى فيما دخل فيه الاحتمال والشبهة، إذ ليست الشبهة والاحتمال معصية مستيقنة أو كفراً بواحاً)[(٣)].

ويقول عبد الرحمن أبو الخير: (لقد كان الشبابُ يستدعى بأوامر عسكرية فلا يعلم طبيعة المهمة المقبل عليها، ولا مدى اقتناعه بها، وكان أغلب الشباب لا يعرفون شيئاً عن طبيعة تركيب عقل قيادة الجماعة، وكان الكل يخضع تماماً لأمر أبي سعد[(٤)] دون مناقشة)[(٥)].

* * *

وهناك جانب آخر يتعلق بشخصية القائد وهو: أن الدراسات الاجتماعية والنفسية المعاصرة بينت أن بعض الحركات الدينية ـ بشكل عام ـ والتي تكون

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) «كتاب الخلافة»: (٣/ ٣٥).

(٣) «المصدر نفسه»: (٣/ ٣٧).

(٤) كنية شكري مصطفى.

(٥) «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (٧١).

ناقدة لدينها الأصلي القائم، تعتمد على شخصية مؤسسها وما يتمتع به من جاذبية وقدرة على التعبير والإقناع تجعل أتباعه يلتفون حوله، وتطلق على هذه الصفات اسم (الكرزما Charisma) أو الطاقة الملهمة أو الروحية غير العادية[١]، فتكون شخصية القائد آسرةً بحيث يستولي على أتباعه بقدراته الجدلية، وحين مقابلتي لبعض من كانوا ينتمون إلى جماعة شكري مصطفى رأيت من خلال أحاديثهم أنهم كانوا مأسورين لقوة شخصيته وقدرته على الحوار والإقناع، وتبدى لي ذلك من خلال سماع بعض الأشرطة لأحاديثه وحواراته ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال هذا النص الذي يتكلم فيه عبد الرحمن أبو الخير عن شكري مصطفى إذ يقول: (كنت كلما استمعت إلى الأخ شكري ازددت يقيناً في أنه تغيَّر، فلم يعد شكري ذلك الفتى العصبي الذي لا يؤبه بشأنه كما شاهدته آخر مرة في معتقل طرة السياسي . . . لقد كان حينئذ شكري الداعية المكتمل لعناصر الإمامة، لولا بقية من الهياج العصبي الذي يدفعه لتجريح محدثه إن لمس فيه أدنى ذرةٍ من الخلاف في الرأي)[٢].

---

(١) ينظر د. محمد أحمد محمد بيومي: «علم الاجتماع الديني»: (٣٨٦ ـ ٣٨٧).

(٢) «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (٣٢).

## المبحث الثاني

# الأسباب التربوية

**وفيه ستة مطالب :**


**المطلب الأول : ضعف الصبر.**

**المطلب الثاني : اليأس.**

**المطلب الثالث : طبيعة الشباب.**

**المطلب الرابع : اتباع الهوى.**

**المطلب الخامس : الجدال.**

**المطلب السادس : اختلال مناهج التعليم.**

## المطلب الأول

## ضعف الصبر

**الصبر في اللغة :**

قال ابن فارس: (الصاد والباء والراء أصول ثلاثة: الأول: الحبس، والثاني: أعالي الشيء، والثالث: جنس من الحجارة.

فالأول: الصَّبْر، وهو الحَبْس. يقال صبرت نفس على ذلك الأمر أي حبستها)[١].

قال ابن منظور: (وأصل الصبر الحبس، وكل من حبس شيئاً فقد صبره)[٢].

**الصبر في الاصطلاح :**

حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله[٣].

والصبر بهذا (خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها)[٤].

وقد ورد الحث على الصبر في القرآن بصيغ شتى منها:

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٣/ ٣٢٩). (٢) «لسان العرب»: (٢/ ٤٠٣) مادة: صبر.

(٣) ينظر ابن القيم: «مدارج السالكين»: (٢/ ١٥٦).

(٤) ابن القيم: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: (١٤).

* **أولاً : الأمر المباشر :**

١ـ ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ [سورة النحل ، الآية : ١٢٧].

٢ـ ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [سورة الروم، الآية : ٦٠].

٣ـ ﴿فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ [سورة غافر، الآية : ٧٧].

٤ـ ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ [سورة الأحقاف ، الآية : ٣٥].

٥ـ ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ [سورة المعارج ، الآية : ٥].

* **ثانياً : الحض على الاستعانة بالصبر على ما يؤمله العباد من خيري الدنيا والآخرة**

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ [سورة البقرة، الآية : ١٥٣].

* **ثالثاً : مدح الصابرين والثناء عليهم وبيان عظم منازلهم وفي ذلك وردت آيات منها :**

١ـ ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [سورة البقرة، الآيات : ١٥٥ ـ ١٥٧].

٢ـ قوله سبحانه في سياق الكلام عن البر وأهله القائمين به : ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [سورة البقرة، الآية : ١٧٧].

٣ـ ويقول الله ـ عز وجل ـ في سورة العصر: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .

والآيات والأحاديث في فضل الصبر كثيرة .

* * *

إن الداعي إلى الله تعرض له ألوان شتى من المضايقات في دعوته كل لون منها يحتاج إلى الصبر والمصابرة، فمن تلك الألوان :

١ ـ إعراض الخلق عن الداعية :

فحين يكون الداعية حريصاً على هداية الخلق مدركاً قيمة دعوته، وما تحويه من الخير، ويرى صدود الناس عن الدعوة وإعراضهم عنهم يتألم ويحزن فكأن نفسه تتقطع حسرة على هؤلاء أن لم يهتدوا يقول الله ـ عز وجل ـ لنبيه محمد ﷺ : ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾ [سورة النحل، الآية : ١٢٧]. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على من خالفك فإن الله قدّر ذلك ﴿ولا تك في ضيق﴾ أي غم ﴿مما يمكرون﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك، وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك، ومظفرك بهم)[(١)].

إن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال وضبط للعواطف. ولذلك فإن القرآن يوصي الرسول ﷺ وكل من تبعه في الدعوة إلى الله بالصبر، وأن لا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله[(٢)].

ويقول الله ـ عز وجل ـ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ [سورة الكهف، الآية : ٦].

والمراد : لا تهلك نفسك أسفاً عليهم ؛ بل أبلغهم ما أنزل إليك فمن اهتدى فلنفسه[(٣)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» : (٢/ ٦١٤).

(٢) ينظر: سيد قطب : «في ظلال القرآن» : (٤/ ٢٢٠٢).

(٣) ينظر: ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» : (٣/ ٧٦).

وقال سبحانه: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (﴿ولعلك باخع﴾ أي: مهلك ﴿نفسك﴾ أي: مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار)(١).

وقال سبحانه: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾ [سورة فاطر، الآية: ٨].

أي لا تأسف على كفر الكافرين وضلال الضالين فإن الله يضل من يضل ويهدي من يهدي لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام(٢).

**٢ـ إيذاء الناس:**

إن الداعي إلى الله ـ عز وجل ـ يدعو الناس إلى عبادة الله ـ عز وجل ـ وحده، والتحرر من عبادة من سواه، وهو إذ يفعل ذلك يصادم أهواء النفوس وشهواتها، والموروثات من الآباء والأجداد، فيصادم ويعادىٰ وترفض دعوته، ويتهم بالسفاهة والكذب والجنون، وغير ذلك، بل ربما أوذي في نفسه وماله وأهله. وحين يقع ذلك للداعية فإن من الواجب عليه أن يصبر؛ ولذلك فإن الله ـ عز وجل ـ أمر نبيه محمداً ﷺ بالصبر وذكره بسنة الله ـ عز وجل ـ في رسله فقال: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [سورة الأحقاف، الآية: ٣٥]، وقال: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[سورة الأنعام، الآية: ٣٤].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (٣/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٣/ ٥٥٦).

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ: (هذا تسلية من الله ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله.

يقول تعالى ذكره: إن يُكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فيجحدوا نبوتك، وينكروا آيات الله أنها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك، وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله حتى يأتي نصر الله، فقد كذبت رسل من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه فصبروا على تكذيب قومهم إياهم ولم يثنهم ذلك من المضي لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم)[١].

وابتلاء صاحب الدعوة جزء من سنة الله في خلقه فإن من سنن الله الابتلاء، فالحياة كلها خلقت لذلك: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [سورة الملك، الآية: ٢].

ومحمد ﷺ إنما بعث للابتلاء ففي الحديث عن عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك»[٢].

وكلما علت منزلة الإنسان ازداد ابتلاؤه؛ فعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل

---

(١) «جامع البيان»: (٧/ ١٨٣).

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»: (٣/ ٢١٩٧، رقم ٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، وأحمد في «مسنده»: (٤/ ١٦٢).

فالأمثل، فيبتلىٰ الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقة، ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[١].

وكما أوذي الدعاة السابقون من الرسل وأتباعهم أوذي أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم فعن خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده؛ وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: يا رسول الله: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحمٍ أو عصبٍ، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[٢].

وفي آخر الزمان تشتد الغربة حتى يصبح الصبر صعباً فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»[٣]، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان المتمسك فيه بسنتي عند اختلاف أمتي كالقابض

(١) رواه الترمذي في «سننه»، واللفظ له: (٤/ ٦٠١ ـ ٦٠٢، رقم ٢٣٩٨)، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٣)، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، والدارمي في «سننه»: (٢/ ٦٢٦، رقم ٢٧٨٦)، كتاب الرقاق، باب في أشد الناس بلاء، وأحمد في «المسند»: (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٧٠).

(٣) رواه الترمذي: (٤/ ٥٢٦، رقم ٢٢٦٠)، كتاب الفتن باب ٧٣، والحديث ضعيف الإسناد وله شواهد مذكورة عقيب الحديث.

على الجمر»[١]، قال القاري ـ رحمه الله ـ: (الظاهر أن معنى الحديث كما لا يمكن القبض على الجمرة إلا بصبر شديد، وتحمُّل غلبة المشقة، كذلك في ذلك الزمان لا يتصور حفظ دينه ونور إيمانه إلا بصبر عظيم وتعبٍ جسيم)[٢].

وحين يقع هذا الأمر يجب على العبد الصبر وعدم الجزع ولذلك قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [سورة الأحقاف، الآية: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (إن الإنسان إذا ابتلي فعليه أن يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات.. ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات)[٣].

ولا يعني أمره بالصبر أن يكون صبره صبراً سلبياً، بل هو صبر على الأذى مع اجتهاد في الدعوة والإصلاح والعمل الصالح ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٤].

---

(١) رواه أبو بكر الكلاباذي في «مفتاح المعاني»: (ق١٨٨/ ٢)، والضياء المقدسي في «المنتقى من مسموعاته بمرو»: (٩٩/ ١)، ذكر ذلك الشيخ ناصر الدين الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٢/ ٦٨٣).

(٢) «مرقاة المفاتيح»: (١٠/ ٩٧).

(٣) «الفتاوى»: (١٠/ ٣٨ـ٣٩).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٤٣)، و(٥/ ٣٦٥)، ورواه الترمذي في «السنن»: (٤/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣، رقم ٢٥٠٧)، كتاب القيامة، باب ٥٥، ورواه ابن ماجه في «السنن»: (٢/ ١٣٣٨، رقم ٤٠٣٢)، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء.

**٣ـ طول الطريق واستبطاء النتائج :**

إن طريق الدعوة طريق طويل، ونتائج الدعوة قد لا ترى في زمن وجيز، بل قد لا يراها الجيل الأول، وتأخر نتيجة الدعوة نوع من الابتلاء ليعلم الصابر من غير الصابر، والمصدق بوعد الله من المكذب؛ لأن الله وعد ووعده الصدق بإظهار دينه وإعلاء كلمته (ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه ﷺ بتصديق الوعد والإيمان، وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتصافه بصفة الوعد، كما قال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ [سورة الروم، الآية: ٦٠]، وقال: تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك﴾ [سورة غافر، الآية: ٧٧]. )[(١)].

وفي ذلك يقول الله ـ عز وجل ـ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٤].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمرٌ له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعدٌ له بالنصر كما نصروا وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾[سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣]. )[(٢)].

---

(١) «الفتاوى»: (١٥/ ١٩٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (٢/ ١٣٠).

ثم يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٥]، أي: (إن كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق الذي بعثتك به، فشق ذلك عليك، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾ يقول: فإن استطعت أن تتخذ سرباً في الأرض . . . فتذهب فيه ﴿أو سلماً في السماء﴾ يقول: أو مصعداً تصعد فيه كالدرج وما أشبهها . . . ﴿فتأتيهم بآية﴾ منها يعني بعلامة وبرهان على صحة قولك غير الذي أتيتك فافعل)[1].

وبين فقد الصبر والاستعجال علاقة وثيقة ذلك أن المتعجلين الذين يريدون قطف الثمرة في أوهى مدة يفقدون الصبر، وينسون سنة الله في الخلق فهو الذي أمر الداعي بالدعوة ليبتليه أيصبر على لأوائها وشدتها، وليبتلى المدعو أيقبل الدعوة أم يعرض، وهو سبحانه الذي لو شاء لجمع الناس على الهدى.

إن من طبيعة الابتلاء والامتحان أن يكون مفرق طرق للمبتلين.

فالمبتلون يقفون من الفتن مواقف منها:

١ ـ موقف المنقلبين الخاسرين لدنياهم وآخرتهم وفي هؤلاء يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [سورة الحج، الآية: ١١]. وفيهم يقول سبحانه أيضاً: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١٠].

---

(١) الطبري: «جامع البيان»: (٧/ ١٨٣ ـ ١٨٤).

٢ـ موقف الصابرين وهذا موقف سادات المؤمنين الذي وقفه الرسل وأتباعهم وفي الرسل يقول الله عز وجل: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[سورة الأنعام، الآية: ٣٤]. وفي أتباع الرسل يقول الرسول ﷺ: «لقد كان من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحمٍ أو عصبٍ، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»(١).

وهذا الصبر هو المأمور به في النصوص يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠]، ولكن الصبر كما هو معلوم صعب على النفوس ولصعوبة الصبر على الناس نهى النبي ﷺ عن تمني لقاء العدو قال ﷺ: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، وإذا لقيتموهم فاصبروا»(٢).

قال ابن بطال: (حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر وهو نظير سؤال العافية من الفتن، وقد قال الصديق: لأن أعافى فأشكر أحبّ إليّ من

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٧٠).

(٢) متفق عليه، فقدرواه البخاري في «صحيحه»: (٤/ ٩)، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبيﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، وفي: (٤/ ٢٤)، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، ومسلم في «صحيحه»: (٢/ ١٣٦٢، رقم ١٧٤١، ١٧٤٢)، كتاب الجهاد والسير، باب كراهية تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، وأبو داود في «سننه»: (٣/ ٩٦، رقم ٢٦٣١)، والدارمي في «سننه»: (٢/ ٥٣٣، رقم ٢٤٤٥)، كتاب السير، باب لا تتمنوا لقاء العدو.

أن أبتلى فأصبر)[١].

كما نهى عليه الصلاة والسلام المسلم أن يفتح على نفسه من أبواب البلاء ما لا يطيق فعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء ما لا يطيق»[٢].

٣ـ ومن الناس من يصاب بالإحباط واليأس، ذلك أن شدة البلاء مع ضعف الصبر والجلد على الدعوة يبث في روح العبد القنوط واليأس ولذلك نجد في النصوص ربطاً بين الصبر ووعد الله بالنصر: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [سورة الروم، الآية: ٦٠]، ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠]. وفي حديث خباب السابق وبعد أن أمر بالاقتداء بالسابقين في الصبر قال ﷺ: «والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[٣]، وفي ذلك من بث روح الأمل ما هو ظاهر.

وإذا امتلأ القلب باليأس جاءت الأفعال اليائسة وانتقل الداعية إلى حلول مستعجلة يود بها إنهاء الأمر سريعاً.

وإذا قوبل بعض الدعاة بالصد والرفض والإيذاء لم يصبروا على لأواء الطريق ومشقته، فحملوا في قلوبهم على الناس الذين وقفوا في طريقهم، فسعوا إلى إيقاع ألوان الأذى بهم، فصار ترك الصبر سائقاً إلى ألوان من الغلو في التعامل مع الناس، وحين التأمل في النصوص المنقولة عن المتهمين بالغلو نجد تغليب

---

(١) «فتح الباري»: (٦/ ٤٩٧).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٨٣).

(٣) سبق تخريجه ص (٢٧٠).

الحلول الجذرية العاجلة المتمثلة في المواجهة والمقاتلة، والبعد عن الحلول المنسجمة مع سنن الله في خلقه من تدافع الحق والباطل، وطول طريق الدعوة.

كما نجد أيضاً نزوعاً إلى العزلة فقد اتجه معظم من اتهموا بالغلو إلى العزلة ولكنهم انقسموا إلى طائفتين أجمعتا على المبدأ واختلفتا في الكيفية فطائفة قالت بالمفاصلة الشعورية، وطائفة قالت بالمفاصلة الكاملة.

فالمفاصلة الشعورية تعني: مجاراة المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم مع الاعتقاد بكفرهم دون إظهار ذلك الاعتقاد لهم[١].

يقول أحد القائلين بمبدأ المفاصلة الشعورية في تعليل القول بها: (هناك ضرورة حركية توجب مراعاة شعور من يصلي من الشعب فلا يصدم بأنه كافر، بل يطبق عليه مبدأ المفاصلة الشعورية)[٢].

وبالجملة فإن مؤدى القول بالمفاصلة الشعورية: (معاملة المجتمع في الظاهر على أنه مسلم مع مفاصلته في الباطن، وضرورة اعتقاد أنه كافر تجب محاربته والإضرار به)[٣].

وأما المفاصلة الكاملة فتعني المقاطعة الكاملة للمجتمع يقول شكري مصطفى: (إننا لا نقول بما أسموه العزلة الشعورية ثم السلوكية ولا نؤمن بهذا الترتيب بل نكفره بشدة، ولا نعرف بينهما فاصلاً زمنياً، وإنما الذي نؤمن به وجوب الأخذ في العزلة شعوراً وسلوكاً من أول يوم قدر الطاقة وجهد الاستطاعة بما لا يضر مع هدفنا النهائي وأهدافنا المرحلية)[٤].

---

(١) ينظر البهنساوي: «الحكم وقضية تكفير المسلم»: (٣٤ـ٣٥).

(٢) المصدر نفسه: (٣٥).

(٣) المصدر نفسه: (١٧٩).

(٤) «كتاب الخلافة»: (٣/ ٢١).

وواضح من هذه المفاصلة للمجتمع أن السائق إليها هو ضعف الصبر والجلد في الدعوة ولذلك نص النبي ﷺ على الصبر على الناس ومخالطتهم فقال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

ومن مظاهر الغلو أيضاً الخروج على الحكام الفاسقين أو الجائرين أو الخروج على الكافرين عند عدم القدرة، ومعلوم أن من أسباب الخروج عليهم ضعف الصبر ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم وطلب المظلوم حقه من الله، ولم يأذن للمظلوم المبغي عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة)(٣).

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ: (إن ما أمر به الرسول ﷺ من الصبر على جور الأئمة، وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وإن من خالف ذلك متعمداً أو مخطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد)(٤).

❑ ❑ ❑

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٥٢).

(٢) رواه البخاري: (٨/ ٨٧)، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: إنكم سترون بعدي أموراً تنكرونها.

(٣) «الاستقامة»: (١/ ٣٥).

(٤) «منهاج السنة»: (٤/ ٥٣١).

## المطلب الثاني

## اليأس

### معنى اليأس في اللغة:

قال ابن فارس: (الياء والهمزة والسين كلمتان: إحداهما اليأس: قطع الرجاء)[١]، وفي الصحاح: (اليأس: القنوط)[٢].

### معنى القنوط في اللغة:

قال ابن فارس: (القاف والنون والطاء كلمة صحيحة تدل على اليأس من الشيء)[٣].

### معنى اليأس والقنوط هنا:

المراد باليأس هنا: قطع الأمل والرجاء في حدوث المطلوب، وذهاب المرهوب.

ومن ذلك قطع الأمل في انتصار الإسلام والمسلمين، وظهور الدين، واهتداء الناس، أو قطع الأمل في ارتفاع ما أصاب المسلمين من فتن ومصائب مزلزلة.

### تحذير القرآن والسنة من اليأس:

إن القرآن يحذرنا من اليأس والقنوط على الصعيد الفردي وعلى الصعيد الجماعي:

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»: (٦/ ١٥٣)، مادة يأس.

(٢) «الصحاح» للجوهري: (٣/ ٩٩٢)، مادة يأس.

(٣) «معجم مقاييس اللغة»: (٥/ ٣٢).

ففيما يتعلق بالأفراد يقول الله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ [سورة الزمر، الآية: ٥٣].

وعلى صعيد المجتمعات يقول تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [سورة آل عمران، الآيات: ١٣٩ ـ ١٤١].

ثم يذكرهم بقوم أصابهم من قبل ما أصابهم فلم يكن ذلك سبباً لوقوعهم في اليأس والوهن والحزن، قال تعالى: ﴿وكأين من نبيٍّ قاتل معه ربيّون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٦].

كما يرد التحذير من اليأس وبيان أنه من صفات غير المؤمنين بالله، المقرين بفضله وكمال حكمته.

يقول الله عز وجل حكاية لقول يعقوب عليه السلام: ﴿يٰبنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تأيسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ [سورة يوسف، الآية: ٨٧]. ذلك أن الكافرين (لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم فلا تتشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد، يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه)[1].

ولقد نهى الله تعالى وحذر من القنوط فقال: ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ [سورة الحجر، الآية: ٥٦].

(١) السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٤/ ٢٧).

فلا يقنط إلا هؤلاء (الذين لا علم لهم بربهم وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً)[1].

ذلك أن إيمان المؤمن يدفعه إلى العلم بقرب غِيَرِ الله، وأن الله هو مفرج الكروب الذي جعل مع العسر يسرين، ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، وهو الولي الحميد﴾ [سورة الشورى، الآية: ٢٨].

واليأس يعد من الطبائع البشرية التي ابتلي بها الناس ليجّدوا في دفعها، فيصبروا على ما أصابهم من تغير النعم، ويجتهدوا في العمل الصالح المرضي لرب العالمين، فإن فعلوا ذلك سلموا من هذه الآفة النفسية المحطمة لحيوية القلب.

يقول الله عز وجل: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنَّ ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات . .﴾ [سورة هود، الآيات: ٩ - ١١].

فهذا إخبار من الله تعالى (عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضي الحال)[2].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وإذا أذقنا النَّاس رحمة فرحوا بها، وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ [سورة الروم، الآيتان: ٣٦ - ٣٧].

(يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدة، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحةٍ وغنى ونصر ونحو ذلك فرحوا بذلك، فرح بطر لا فرح

---

(١) السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٤/ ٨٤).

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٣/ ٥٤٠).

شكر . . . ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي حال تسؤوهم، وذلك ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من المعاصي ﴿إذا هم يقنطون﴾ ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة. ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق سعته وضيقه من تقديره ـ ضائع ليس له محل)[١].

* **أسباب اليأس والقنوط عند الدعاة :**

قد تكون الأسباب متعددة، فمنها :

**السبب الأول : قلة الأتباع وكثرة الأعداء :**

إن رؤية الناس وقد أعرضوا عن طريق الحق الذي يجتهد الداعية في دعوتهم إليه، والوحشة التي يجدها لانفراده مع قلة من الناس، والغربة التي يعاني منها في مجتمعه مع الكثرة في الصف المقابل للدعوة المناهض للدعاة ربما أورثت قلب الداعية اليأس من اهتداء هؤلاء الناس.

وهذا إنما ينتج عن أمور منها :

أ ـ الجهل بحقيقة أن الهادي هو الله تعالى، ولو شاء لهدى الناس كلهم، إذ الكافرون لا يزالون على غيهم وإعراضهم مع توالي الآيات، قال تعالى : ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله، إنَّ الله لا يخلف الميعاد﴾ [سورة الرعد، الآية : ٣١].

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية : (﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم

---

(١) السعدي : «تيسير الكريم الرحمن» : (٦/ ٦٥ ـ ٦٦).

جميعاً، ولكن لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ على كفرهم لا يعتبرون ولا يتعظون والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريباً منهم وهم مصرون على كفرهم)[١].

ب ـ عدم التصور الواضح لطبيعة السير إلى الله، وهو أن شأن طريق الحق قلة أهله، وأن شأن طريق الباطل كثرة سالكيها، وشواهد ذلك من القرآن والسنة وسير الرسل والدعاة غير منحصرة، ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١١٦].

**السبب الثاني: استمرار المحنة وتأخر النصر:**

حيث يرى المرء المسلمين وقد اشتدت بهم المحن والأرزاء، فلا يكادون يخرجون من محنةٍ إلا ويدخلون محنة أعظم وأخطر، بل ربما كان المرء نفسه يعاني من محنة خاصة في نفسه وأهله وخاصته، يقول الله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [سورة يوسف، الآية: ١١٠].

(يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق. ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل. حتى إن الرسل ـ على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده ـ ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جاءهم نصرنا فنجي من نشاء﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ أي: ولا يرد عذابنا عمن اجترم، وتجرأ على الله)[٢].

---

(١) السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٤/ ٥٥).

(٢) السعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٤/ ٣٢).

إن رسل الله قد استأخر عنهم النصر، ولكنه جاءهم بعد جهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة، ﴿ولقد كذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٤]. والامتحان والابتلاء لازم من لوازم الطريق إلى الله عز وجل، والدعوة إليه: ﴿آلم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقدفتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣].

**السبب الثالث : التوهم :**

إن توهم قوة الأعداء، وتوهم أنهم يملكون وسائل وقدرات لا يملكها أهل الإسلام، وأنهم يخططون لأعمال لا قبل للمسلمين بها، ولا قدرة لهم على مجابهتها يكون سبباً في بث الروح الواهنة في الأمة، وبث روح اليأس من النصر والقنوط من الفرج.

إنه عند وقوع هذا التوهم في النفوس يجب أن تستحضر الحقائق الآتية:

**الأولى**: أن القوة والعزة بيد الله جميعاً ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ [سورة فاطر، الآية: ١٠].

﴿ولا يحزنك قولهم. إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾ [سورة يونس، الآية: ٦٥].

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [سورة المنافقون، الآية: ٨].

**الثانية**: أن النصر منه سبحانه وبيده، ولكن النصر من الله موقوف على عمل العباد: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [سورة محمد، الآية: ٧].

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [سورة غافر، الآية: ٥١].

﴿ولينصرون الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾ [سورة الحج، الآية: ٤٠].

**الثالثة**: أنه لا يصح الاغترار بقوة الأعداء، فإنهم وإن ظهروا مجتمعين، فحقيقتهم ليست كذلك إذ قلوبهم شتى.

﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ [سورة الحشر، الآية: ١٤].

**الرابعة**: أن الأعداء لا يقع لهم كل ما يخططون، فهم كما قال الله ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٣٠].

وهذا المكر الكبّار من الكافرين يجب ألا يكون موقعاً في الحزن والضيق ﴿ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢٧].

إن مكر الكافرين صائر إلى خسارة وبوار ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ [سورة فاطر، الآية: ١٠].

وليس مكر كفار اليوم بدعاً من الفعل، فقد مكر الذين من قبلهم فرد الله مكرهم وكيدهم ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً﴾ [سورة الرعد، الآية: ٤٢]، نعم، إن مكر الكافرين عظيم، ولكن مكر الله بهم أعظم، فهو العليم بهم القادر عليهم سبحانه ﴿وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤٦].

* * *

إن اليأس يفعل فعله في النفوس، حيث يحطم حيويتها، ويحطم القوة الداخلية الباعثة لعمل الجوارح، والمحركة لقوى الإنسان الخارجية، وإذا تحطمت تلك القوة الداخلية توقف العمل (إن الدعوات حين يستولي على

عناصرها اليأس من جدوى الانتشار، فإن نشاطها يتوقف، وعلى قدر الأمل في جدوى انتشار الدعوة تتحرك عناصرها، ولكن مجرد هذا الشعور أيضاً خطر؛ لأن اليقين بأن الدعوة تنتشر أي أن نكون مفعمين ومترعين بالأمل فقط لن يكون كافياً ما لم يختلط بشعور آخر واضح محدد، وهو مثلاً: الخوف من التفريط في الأمانة)[١].

ولكن اليأس قد يكون نسبياً، فييأس الداعية من اهتداء الناس بأساليب معينة، فيدفعه ذلك اليأس إلى التوجه إلى أساليب أخرى.

إن من أسرار التوجه للعمل العنيف، والغلو في أساليب الدعوة: اليأس من جدوى الإصلاح والتغيير.

فربما يرى الإنسان ـ لفرط إعراض الناس عنه ـ أنه لا سبيل لهدايتهم إلا أن يؤطروا على الحق أطراً، ويلزموا بلزوم الطريق المستقيم، وهذه مهمة من بيده السلطان، وهو لم يقم بهذا، فعليه فلتتوجه العناية بهم، وليكن الجهد موجهاً إليهم، هكذا يتدرج الشأن حتى يصل الأمر بالإنسان إلى العنف

وتسلسل الأمر إذاً بدأ من اليأس من اهتداء الناس بالوسائل السلمية إلى العنف، والغلو في الدين.

إن اليأس يمثل الأرضية لبعض ما يسمى بالأفعال اليائسة، والتي هي بمثابة الحلول الأخيرة، أو السهام الأخيرة في جعبة الرامي.

❑ ❑ ❑

(١) خالص جلبي: «ظاهرة المحنة»: (٣٣).

## المطلب الثالث

## طبيعة الشباب

### تعريف الشباب:

الشين والباء أصل واحد يدل على نماء الشيء وقوته في حرارة تعتريه، وقد اشتق من هذا كلمة الشباب الذي هو الفتاء والحداثة وهو خلاف الشَّيْب[١].

### حدود مرحلة الشباب وأهميتها:

ينتقل الإنسان من طور إلى طور تختلف فيها قوى الإنسان، وقدراته، ومداركه، وعلومه، وتجاربه، وعواطفه.

وتعد فترة الشباب أميز أطوار حياة الإنسان ويعدالشباب أهم شرائح المجتمع؛ لأنهم وإن شاركوا في الحاضر إلا أنهم بناة المستقبل، بل إن بناء الأمة ونجاح خططها قائم ـ بعد فضل الله عز وجل ـ على سواعد الشباب القوية، وأذهانهم الفتية، ولتميز فترة الشباب خصها الرسول ﷺ في بعض الأحاديث مثل قوله: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[٢]، فخص مرحلة الشباب بالعناية، وحض الناس على اغتنام هذه الفترة وعدم تضييعها،

---

(١) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: (٣/ ١٧٧)، وابن منظور: «لسان العرب»: (٢/ ٢٥٩). مادة شب.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣٠٦) موصولاً عن ابن عباس، كتاب الرقاق، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (٤/ ١٤٨) من طريق أخرى مرسلاً، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل»: ص١٠١، وأخرجه البغوي في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٢٤)، كتاب الرقاق.

وقال ﷺ: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيم علم»(١). وما كان السؤال إلا لأهمية هذه المرحلة التي يجب استثمارها وعدم تضييعها.

ومهما يختلف النَّاس في تحديد سن الشباب فإن عهده يبدأ بثورةٍ هائلة في جميع مقومات الطبيعة البشرية فتهب عناصر الجسم والعقل والعاطفة من نومها الطويل لتقوم بوثبة سريعةفي كل الاتجاهات فينمو الجسم، وينبت الشعر. كما تتحرك الغريزة الجنسية. ويهمنا هنا التطورات النفسية والعقلية والروحية التي يمكننا أن نقول إنها مماثلة في قوتها للثورة الجسمية(٢).

والشباب في المجتمع يعبر عن تلك الفئة التي تتسم بأعلى درجة من النشاط والحيوية، وذلك من خصائصها المتفردة، غير أن الشباب عادة لا يدرك أن الوسط الاجتماعي المحيط به ليس نتاج نشاطه فحسب وإنما هو نتاج لأنشطة قامت بها أجيال سابقة، وبدلاً من أن يبدأ الشباب من حيث انتهى الآخرون يريد أن يبدأ بداية قوية وجديدة.

وقد تكون هذه الظاهرة هي المسؤولة عن الصراعات والتناقضات بين الأساليب التقليدية للحياة، والأساليب الجديدة التي يسعى الشباب إلى توكيدها.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» بهذا اللفظ: (٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٦)، كتاب صفة القيامة، بابٌ في القيامة، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يُضعَّف في الحديث من قبل حفظه.

(٢) ينظر: د. إبراهيم اللبّان: «إيمان الشباب صيانته ووسائل دعمه» بحث تجديدي على أسس علمية: (٢٠٠ ـ ٢٠٢).

* **مرحلة الشباب والصراع النفسي:**

إن مرحلة الشباب هي مرحلة الأزمات والصراع النفسي، وقد أشار بعض المختصين في علم النفس إلى ألوان الصراع التي يمر بها الشباب فذكر ما يلي:

١ـ **صراع الأجيال**: أي الصراع بين جيل الشباب وجيل الكبار، والاختلاف في وجهات النظر، وردود الأفعال، والحكم على الأمور وتفسير الأشياء.

٢ـ **صراع الجنس**: وأبان أن سبب ذلك هو التناقض بين المباديء والقيم الإسلامية وبين ما يراه الشاب في المجتمعات من ابتذال للجنس في الأغاني والأفلام والوسائل الأخرى فيقع في صراع بين المباديء التي آمن بها وبين الممارسات الاجتماعية في هذا المجال.

٣ـ **صراع القيم**: وقد أوضح أن الشباب يقع فيه لأنه نشأ على قيم فاضلة مستمدة من الدين الإسلامي ثم عندما يكبر ويشب عن الطوق يجد تناقضاً بين سلوك الناس وبين هذه المباديء والقيم التي تعلمها وهنا يقع في التناقض، وربما أداه ذلك إلى الرغبة في الانتقام[٢].

وأزمة الشباب ليست قاصرة على الشباب المسلم بل هي أزمة عالمية، وأزمة محلية داخلية في المجتمعات المسلمة، والشباب بصفة عامة بغض النظر عن المجتمع الذي ينتمي إليه يتميز بخصال وصفات محددة تجعل استجاباته وردود أفعاله في كل المجتمعات متقاربة[٣].

---

(١) د. محمد علي محمد: «الشباب العربي والتغيير الاجتماعي»: (٢٩ ـ ٣٠).

(٢) د. حامد الفقي: «الشباب الإسلامي حاضره ومستقبله»: (٦١٩ ـ ٦٢٠)، من بحوث ندوة الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية.

(٣) ينظر: د. سهام العراقي: «الاتجاه الديني المعاصر للشباب»: (١٥٤).

ويرى الدكتور: المهدي بن عبّود أن أزمة الشباب في العصر الحديث جاءت بسبب ما يعانيه الشباب من فراغ معنوي، ورثه عن آبائه الذين خاب أملهم في الحضارة المادية الحديثة، والذين وقعوا فريسة للقلق، وقامت المادة عندهم محل الجوانب الروحية؛ فوقع تمرد الشباب، وعندما تمرد تمزق باطنه، وأصبح يخرج من دور وتسلسل إلى دور وتسلسل، ومن فراغ إلى فراغ[١].

إنه (ليس من السهل أن نقدر حدة الأزمة بدقة ولكنها بالقطع ليست هينة، فبالرغم من الهدوء النسبي الذي تتسم به حركة الشباب في معاهد التعليم، والسير العادي للأمور في مواقع كثيرة أخرى، فإن ثمة شيئاً يجري تحت السطح وما الإضرابات والتمردات والسلوك غير الاجتماعي، وما إليها سوى مؤشرات على ذلك فمعظم الشباب في مجتمعاتنا يعانون، بعضهم يعاني في هدوء أو صمت لا يكشف عن أزمتهم غير الأطباء النفسيين، أو أجهزة الشرطة والقضاء، أو بعض المربين ذوي البصيرة.

والبعض الآخر تدفعه المعاناة إلى التمرد، وقد تدفعه إلى الثورة أو حتى الانتحار)[٢].

واستناداً إلى طبيعة التكوين السكاني لغالبية مجتمعات ما يسمى: (العالم الثالث) احتلت الشريحة الشبابية مكانة هامة في أبنيتها الاجتماعية. وترجع هذه الأهمية لثلاثة عوامل:

**أولها**: أن شريحة الشباب تمثل القطاع السكاني الغالب في تلك المجتمعات، وإذا كانوا هم الأغلبية فهم المتحملون لأعباء العملية الإنتاجية في المجتمع.

---

(١) ينظر: «دور الشباب القيادي وأهميته» نقلاً عن أحمد فراج كتاب الهلال عدد ٢٥٠، نوفمبر ١٩٧١م: (٨٩).

(٢) د. عزت حجازي: «الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها»: (٤٩).

**ثانيها**: أن شريحة الشباب هي الشريحة الأكثر احتياجاً لعطاء المجتمع وإيجابية؛ لأنهم في طور توفير الاحتياجات الرئيسة كالزواج والسكن والوظيفة.

**ثالثها**: أنهم الشريحة الأكثر وعياً في المجتمع ربما لأنهم في غالب مجتمعات ما يسمى (العالم الثالث) هم طلاب الجامعات وخريجوها. أو لأنهم الأكثر متابعة لحركة المجتمع وارتباطاته المتنوعة[١].

* * *

ولطبيعة الشباب صلة قوية بالغلو، ولذلك فإن المشتغلين بقضايا الغلو يجمعون على أن الشباب هم أوار تلك القضايا، وشهدت بذلك الدراسات الميدانية، إذ توصل أحد أساتذة علم الاجتماع بعد دراسة ميدانية إلى أن المتهمين بالغلو يتميزون بأنهم شُبّان إذ إن ما يقارب ٩٠٪ منهم كان في العشرينات أو الثلاثينات من عمره[٢].

ويمكن أن نتبين أثر طبيعة الشباب في حدوث الغلو من خلال الأوجه التالية:

**الوجه الأول**: أن الشباب بحكم التكوين النفسي والاجتماعي يتجه نحو رفض المعايير والتوجيهات التي تصدر عن الكبار، وأحياناً يتخذ موقفاً عدائياً منها، والعاطفية التي يوصف بها الشباب في معظم الدراسات الحديثة والتي تجعل الشباب ينزع إلى المثالية أكثر من تعامله مع الواقع، قد تدفع الشباب إلى بذل جهد أكبر فيعبر عن ذلك بالشجاعة والإقدام وإنكار الذات، وإذا لم تتوافر الظروف الواقعية والمناخ الملائم للإفادة من هذه الطاقات عن طريق النظام

---

(١) ينظر: د. علي ليلة: «الشباب في مجتمع متغير تأملات في ظواهر الإحياء والعنف»: (١٩).

(٢) ينظر: د. سعد الدين إبراهيم: «الصحوة الإسلامية المعاصرة» ندوة عمان: (٤٠٠).

التربوي أساساً فمن المتوقع أن تتخذ هذه الطاقة متنفساً سلبياً لها كما يبدو ذلك واضحاً في كثير من الظواهر المعتلة التي تتبدى وتنتشر بين الشباب[١].

ويوجه بعض الباحثين النظر إلى أنه وإن اتجه جمع من الشباب إلى العنف للإطاحة بالمجتمع، فإن فئات أخرى من الشباب قد فعل فيها اليأس فعله وملأ نفوسها السأم والقنوط والألم والضجر فاتجهت إلى الجرائم كالسرقة والاختلاس والسلب أو الانحراف الأخلاقي بل اتجه بعضهم إلى الانتحار[٢].

ويقول أحد المختصين في علم النفس: (قد أجمعت الدراسات على أن شباب اليوم يتسم بالقلق والسخط وعدم الرضى)[٣]، أياً كان توجههم أو طبيعة سلوكهم.

**الوجه الثاني**: لقد اتفقت نتائج بحوث كثيرة على أن مرحلة الشباب هي المرحلة التي يظهر فيها أكثر من كل ما عداه الشعور الديني لدى الفرد، وحين يفتقد الشباب التربية الرشيدة والقدوة الصالحة، أو يتعارض ما يتلقاه في المدارس أو في الحياة مع الشريعة ينتقل إلى ألوان من الشك والاضطراب سائقة إلى أنواع من الانحراف في الدين، ومن ذلك الوقوع في الغلو[٤].

**الوجه الثالث**: أن طبيعة مرحلة الشباب من جهة الحيوية والتحرر من المسؤولية ومحاولة إثبات الذات تسهل للشباب المشاركة في الأعمال المتسمة بالقوة والعنف، وفي ذلك يقول أحد الباحثين في كلامه عن ميل الشباب للمشاركة فيما

---

(١) ينظر: د. محمد علي محمد: «الشباب العربي والتغيير الاجتماعي»: (٢٩).

(٢) ينظر: عبد اللطيف خالص: «مساهمة الثقافة في معالجة مشاكل الشباب»: (٨٦).

(٣) د. حامد عبد العزيز الفقي: «الشباب الإسلامي في حاضره ومستقبله»: (٦١٧)، ندوة ضمن ندوات مؤتمر الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية، عام ١٣٩٦هـ.

(٤) ينظر: د. إبراهيم اللبّان: «إيمان الشباب صيانته ووسائل دعمه»: (٢٠٢ ـ ٢٠٥).

أسماه : الأنماط غير المشروعة : (لعل تفسير ذلك يكمن في الحيوية التي يشعر بها الشباب بحكم صغر السن ، وتحرر الشباب من المسؤوليات الأسرية والمهنية التي قد تجعل الفرد يتردد في أن يشارك في أي عمل إرهابي ، فضلاً عن امتلاك الشباب للوقت الذي يمكن أن يخصصه لذلك ، وتتسم أيضاً مرحلة الشباب بالتيارات (الأيدلوجية) المتطرفة التي تقود إلى الثورة أو التمرد على الأوضاع القائمة ، فضلاً عن حالة الرفض التي تميز مرحلة الشباب ، فالشباب رافض لكل القيم والتقاليد والأوضاع القائمة ، ويجعله تكوينه النفسي يعتقد في قدرته على الإصلاح والإتيان بالجديد ، وأن العنف هو أسرع وسيلة تمكنه من تحقيق هذا الهدف)[1].

**الوجه الرابع** : أن الشباب أقوى شرائح المجتمع تأثراً بأسباب مشكلة الغلو في العصر الحديث وسأذكر ثلاثة أسباب وأبين وجه كون الشباب أقوى تأثراً بها :

**١ ـ الأسباب الاقتصادية :**

إن الشباب الذي في مقتبل العمر يبدأ حياته العملية أو يبدأ على الأقل في التفكير فيها ، ويشعر بأهمية استقلاله الاقتصادي عن أهله ، وحاجته إلى بناء عائلته الجديدة التي ستبقى معه مدى الحياة ، ويرسم آمالاً عراضاً لذلك .

ولكن العوامل الاقتصادية قد تحول بينه وبين تحقيق تلك الآمال فيصبح ناقماً على المجتمع الذي قام بالحيلولة بينه وبين ما يريد ، ويدوم قلقه على دراسته وعلى مهنته التي هو مقبل عليها ، وقد تنتقل هذه النقمة بسبب الظلم أو الاستئثار بالمال إلى حركة وعمل ، وهذا مما يفسر ظهور المظاهر العدوانية لدى الشباب ضد المجتمع مثل : ظواهر العنف والإرهاب والغلو.

---

(١) إكرام بدر الدين : «ظاهرة الإرهاب السياسي» : (٦٤) .

(إن شريحة الشباب هي الشريحة الأكثر احتياجاً لعطاء المجتمع وإيجابيته . فهي مرحلة التفتح للإشباع لأنها البداية الحقيقية للدخول في عالم البالغين وتحمل مسؤولياتهم فهي في حاجة إلى المسكن وإلى فرصة العمل الملائمة ومستوى الدخول الذي ييسر ممارسة الحياة .

ومن هنا فإذا لم تشبع الحاجات فإن القطيعة والخصومة قد تحل بين الشباب والمجتمع ، وهي حالة لها آثارها الممزقة أو المدمرة للاثنين معاً)[١] .

وهذه الأسباب وإن وجدت وعانى منها المجتمع كله إلا أن تأثر الشباب بها ليس كتأثر الرجل الكبير الذي قد حقق الاستقلال الشخصي فاختار المهنة وتزوج وبدأ في الاتزان الانفعالي .

**٢ ـ مشكلة الهوية :**

إن تذبذبات المجتمع بين هويات مختلفة يعاني منها أشد المعاناة الشباب الذين لم يحققوا ذاتيتهم بعدُ فيعيش هؤلاء الشباب مذبذبين بين هويات مختلفة وحين الميل إلى هوية منها يحارب من المجتمع الذي يميل إلى هوية أخرى فيسعى الشباب إلى إثبات هويته التي يراها حقاً بأساليب الشدة والقوة .

وحتى حين يفتقد الهوية فإنه أيضاً يبقى ناقماً على المجتمع متمرداً عليه : (إن افتقار الشباب إلى الانتماء ، أو شعورهم بالاستبعاد أو التحرر المطلق يمكن أن يكون سبباً رئيسياً من أسباب التمرد والاستياء الذي يعبر عنه الشباب بصورٍ مختلفة)[٢] .

وفي ذلك يقول د. محمد عمارة : (أدعوكم إلى أن تتصوروا شاباً إسلامياً يقرأالقرآن الكريم ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ٩٢] ،

---

(١) د. علي ليلة : «الشباب في مجتمع متغير: تأملات في ظواهر الإحياء والعنف» : (١٩) .

(٢) محمد علي محمد : «الشباب العربي والتغيير الاجتماعي : (٣١) .

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [سورة المنافقون، الآية: ٨]، ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٩] يقرأ هذا الكلام ويؤمن به إيماناً مقدساً ثم ينظر إلى واقع الأمة . . . في كل البلاد حيث يبين الفارق لدى هذا الشاب بين العقيدة التي يدين بها وبين الواقع القائم، أليس هذا استفزازاً لهذا الشاب يخرجه عن حالة التوازن)[1].

### ٣ـ انحلال المجتمع الأخلاقي:

إن مشكلة الانحلال الأخلاقي لبعض المجتمعات يعاني منها الشباب أكثر من غيرهم فهم ضحايا الانحلال والخطر عليهم من الانحلال أكبر من الخطر على غيرهم لتوافر دواعي الشهوة، وإذا توجه الشباب إلى الاعتصام بالعفة والخلق السليم فإنه يعاني عقبات في سبيل ذلك يراها في الشارع والسوق والمدرسة ووسائل الإعلام، وهنا يبدأ الصراع في نفسه بين العفة التي اقتنع بها وبين الانحلال الذي يغلب على المجتمع فينقم الشباب على ذلك المجتمع، وربما سعى إلى تغيير الواقع بالثورة، أو سارع إلى الحكم على أفراد المجتمع أو على المجتمع كله بالجاهلية أو الكفر.

ودواعي الصراع هذا تقل مع كبر السن لضعف دواعي الشهوة، وضعف العاطفة، وتوجه الكبير في الغالب إلى النواحي العملية.

وبالجملة فإن ردود الأفعال عند الشاب في نوعها وحدتها ليست كردود الأفعال عند الكبار.

ولذلك يدعو الدكتور: محمد عمارة إلى التفريق بين ردود أفعال الشباب وبين ردود أفعال الكبار التي أسماها بالتحليل العقلاني البارد، ويقول: (كل منا في

---

(١) نقلاً عن د. عمرو عبد السميع: «المتطرفون: ندوات ودوائر حوار»: (٢٢٦).

المرحلة الشبابية كانت له آراء وأفكار وحمية وحماس مختلف عن الإنسان عندما يصل إلى مرحلة النضج، وهذه الظاهرة ظاهرة شبابية)[١]، ويرى أن كثيراً من الشباب يميل إلى نوع من الشدة فينضم إلى ما أسماه جماعات الاحتجاج والغضب ثم ما يلبث بعد أن يتزوج وينجب وتصبح لديه مسؤوليات اجتماعية ثقيلة أن يتحول عنها[٢].

❑ ❑ ❑

(٢) محمد عمارة نقلاً عن د. عمرو عبد السميع: «المتطرفون ندوات ودوائر حوار»: (٢٢٥).

(٢) ينظر المرجع السابق: (٥٢، ٢٢٥).

## المطلب الرابع

## اتباع الهوى

### الهوى في اللغة والاصطلاح :

جاء في «معجم مقاييس اللغة»: (الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلو وسقوط، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه، قالوا: وكل خال هواء، قال الله تعالى: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤٣]، أي خالية لا تعي شيئاً . . .

ويقال: هوى الشيء يهوي: سقط . . .

وأما الهوى: هوى النفس، فمن المعنيين جميعاً، لأنه خال من كل خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي، قال الله تعالى في وصف نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [سورة النجم، الآية: ٣]، يقال منه هويتُ أهوى هوًى)[١].

وجاء في «تهذيب اللغة»: (وقال الليث: الهوى مقصور، هوى الضمير، . . . والهواء ممدود: هو الجو، وأهل الأهواء واحدها هوًى)[٢].

يقول ابن الجوزي في تعريف الهوى، هو: (ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلبٌ له ما يفيد، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى

---

(١) ابن فارس: (٦/ ١٥ ـ ١٦) مادة: هوى.

(٢) الأزهري: (٦/ ٤٩٢) مادة: هوى.

على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار، ولما كان الغالب من موافق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع أطلق ذم الهوى والشهوات لعموم غلبة الضرر)[١].

وقال ابن رجب: (وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره، وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه)[٢].

وجمع الهوى أهواء[٣].

والمقصود بالهوى شرعاً كل ما خالف الهدى سواء سمي عقلاً أو غير ذلك.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (ولهذا كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعبّاد يجعل من أهل الأهواء كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدي الله الذي بعث به رسوله ﷺ)[٤].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «إنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه في النار»[٥].

ومعلوم أن الذي يهوي بأهله إلى النار هو الإعراض عن الحق والهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ. فكل حكم خالف حكم الله عز وجل ورسوله محمدٍ ﷺ فهو من أحكام الهوى لا من أحكام العقل، ومن أحكام الجاهلية لا من حكم العلم والهدى. ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن

---

(١) «ذم الهوى»: (١٢).

(٢) «جامع العلوم والحكم»: (٣/ ٢٢٧).

(٣) «لسان العرب»: مادة هوى: (١٥/ ٣٧٢).

(٤) «الاستقامة»: (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(٥) «الشرح والإبانة» لابن بطة: (١٢٤ ـ ١٢٥).

يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من النَّاس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٤٩، ٥٠]. فأخبر سبحانه أنه: ليس وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى الذي يضل عن سبيله، وليس وراء حكمه إلا حكم الجاهلية[١].

وهذه القاعدة متقررة في كثير من آيات التنزيل: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [سورة القصص، الآية: ٥٠]، ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ [سورة الجاثية، الآية: ١٨].

وأصل الهوى نابع من الحب والبغض والإرادة والكره (والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغوض ووجد وإرادة وغير ذلك، فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه)[٢].

وهذه المحبة التي تكون في القلب لا يلام عليها المرء، وإنما يلام على اتباعها، يقول شيخ الإسلام: (ونفس الهوى ـ وهو الحب والبغض الذي في النفس ـ لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه)[٣].

وإنَّما (الواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه: هل هو موافق لأمر الله ورسوله وهو هدى الله الذي أنزله على رسوله ﷺ بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض، ولا يكون متقدماً فيه بين يدي الله

---

(١) ينظر «الصواعق المرسلة» لابن القيم: (٣/ ١٠٤٦).

(٢) شيخ الإسلام: «الاستقامة»: (٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(٣) «الفتاوى»: (٢٨/ ١٣٢).

ورسوله)[١]، أو هو مخالف لأمر الله ورسوله ﷺ.

وإذا بالغ الإنسان في حب شيء أعماه حبه عما عداه، وأصمه عن سماع ما سواه، فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «حبك الشيء يعمي ويُصِمّ»[٢].

قال شيخ الإسلام: (وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله ﷺ في ذلك، ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله ﷺ ولا يغضب لغضب الله ورسوله ﷺ بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه)[٣].

والأهواء تكون في الشهوات والشبهات (واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب ... ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعبّاد يُجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله ﷺ، ولهذا قال الله تعالى في موضع ﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١١٩]، وقال في موضع آخر: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ [سورة القصص، الآية: ٥].)[٤].

* * *

(١) شيخ الإسلام: «الاستقامة»: (٢/ ٢٢٥).

(٢) رواه أبو داود في «سننه»: (٥/ ٣٤٧، رقم ٥١٣٠)، كتاب الأدب، بابٌ في الهوى.

(٣) «منهاج السنة»: (٥/ ٢٥٦).

(٤) شيخ الإسلام: «الاستقامة»: (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥).

لقد بين الله عز وجل أن أصل ضلال الضالين إنما هو اتباع الهوى والظن، والإعراض عن الوحي والعلم: ﴿... إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ [سورة النجم، الآية: ٢٣]، ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ [سورة القصص، الآية: ٥٠]، ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ [سورة الروم، الآية: ٢٩].

وأصل الضلال: اتباع الظن والهوى، كما قال الله تعالى في حق من ذمهم: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾، وهذا وصف للكفار، فكل من له نصيب من هذا الوصف فله نصيب من متابعة الكفار بقدر ذلك النصيب، وقال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [سورة النجم، الآيات: ١ ـ ٤]، فنزهه عن الضلال والغواية، اللذين هما الجهل والظلم، فالضال هو الذي لا يعلم الحق، والغاوي الذي يتبع هواه، وأخبر أنه لا ينطق عن هوى النفس، بل هو وحي أوحاه الله إليه، فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوى)[١].

والبدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء والمعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ورسوله، ومحبة ما يحبه[٢]، وإنما كان انحراف أهل الكتاب بسبب معارضة الوحي بالهوى، فاتبعوا أهواءهم وكذبوا الرسل: ﴿ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً، كلما جاءهم رسول الله بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٠].

---

(١) ينظر شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٣/ ٣٨٤).

(٢) ينظر ابن رجب: «جامع العلوم والحكم»: (٢/ ٣٩٧ـ٣٩٨).

ولما كان اتباع الأهواء بهذه المثابة، وأنه مفتاح شر وباب بدعة وضلالة حذرنا الله من سلوك طريق أهل الأهواء وبين لنا أنّ من اتبع هواه، فقد نزعت عنه ولاية الله ونصرته ووكل إلى هواه الذي اتبعه، وصار من الظالمين:

﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢٠]، ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٥]، ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق﴾ [سورة الرعد، الآية: ٣٧]، ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٧]، ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٥٠].

وكان تحذير السلف بليغاً من مجالسة أهل الأهواء ومجادلتهم، وعللوا ذلك بأن تلك المجالسة سبيل لمشاركتهم بدعتهم، وتلبيس الحق. قال أبو قلابة ـ رحمه الله ـ: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم مما تعرفون)[1].

وعن الحسن وابن سيرين ـ رحمهما الله ـ أنهما قالا: (لا تجالسوا أصحاب الأهواء، ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم)[2].

وقالا: (لا تجالسوا أهل الأهواء، فإنكم إن لم تدخلوا فيما دخلوا فيه لبّسوا عليكم ما تعرفون)[3].

---

(١) رواه ابن بطة في «الإبانة»: (٢/ ٤٣٥، رقم ٣٦٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: (رقم ١٢٤٤)، والدارمي: (١/ ٩٠)، في المقدمة، باب اجتناب أهل الأهواء.

(٢) رواه الدارمي في «سننه»: (١/ ٩١)، المقدمة، باب اجتناب أهل الأهواء.

(٣) رواه ابن بطة في «الإبانة»: (٢/ ٤٣٨، رقم ٣٦٧).

إن الناس الذين يقعون في الخطأ أصناف ثلاثة:

**الأول**: المجتهدون الاجتهاد العلمي المحض الذين ليس لهم غرض سوى الحق، فسلكوا طريق الاجتهاد.

**الثاني**: متبعو الهوى المحض الذين يعلمون الحق ويعرضون عنه.

**الثالث**: المجتهدون اجتهاداً مركباً فيه شبهة وشهوة وهؤلاء هم غالب الناس.

فالمجتهد المحض مغفورٌ له، ومأجور، وصاحب الهوى المحض مستوجب للعذاب، وأما المجتهد الاجتهاد المركب من شبهة وهوى فهو مسيء، وهم في ذلك على درجات بحسب ما يغلب وبحسب الحسنات الماحية[(١)].

قال الشاطبي: (وأما من لم يصح بمسبار العلم أنه من المجتهدين فهو الحري باستنباط ما خالف الشرع . . . إذ قد اجتمع له مع الجهل بقواعد الشرع الهوى الباعث عليه في الأصل)[(٢)].

وعند التأمل نجد أصحاب الأهواء يستدلون بأدلة شرعية على أهوائهم، وهذا لا يعني أنهم أهل اتباع، ذلك أنهم جعلوا الهوى أصلاً والدليل تابعاً لذلك الهوى.

إذ إن النصوص الشرعية فيها متشابه، ويمكن تأويلها على أوجه غير المراده في كلام الله ورسوله، فإذا انضم إلى ذلك الجهل بأصول الشريعة وعدم الاضطلاع بمقاصدها أمكن انقياد ألفاظ تلك الأدلة لما أراده أهل الأهواء فيها.

(والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعاً ممن يُنسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي فينزله على ما وافق عقله وشهوته . . . ولكن إنما ينساق

---

(١) ينظر شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٢٩/ ٤٤).

(٢) الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ١٩٧).

لهم من الأدلة المتشابه منها لا الواضح، والقليل منها كالكثير[١] وهو أدلّ الدليل على اتباع الهوى، فإن المعظم والجمهور من الأدلة إذا دل على أمر بظاهره، فهو الحق، فإن جاء على ما ظاهره الخلاف، فهو النادر والقليل، فكان من حق الظاهر ردّ القليل إلى الكثير والمتشابه إلى الواضح، غير أن الهوى زاغ بمن أراد الله زيغه، فهو في تيه من حيث يظن أنه على الطريق)[٢].

وإنما سمي أهل البدع أهل الأهواء: (لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك)[٣].

وهؤلاء صنفان: صنف قدموا عقولهم على الشرع وهم أهل التحسين والتقبيح ومن مال إلى الفلاسفة.

وصنف قدموا حظوظهم الدنيوية لنيل رئاسة أو حظوة عند ذي سلطان.

فالأولون ردوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة بعقولهم، والآخرون خرجوا عن الجادة حرصاً على إفادة ولي لهم أو الغلبة على عدو أو جر النفع للنفس[٤].

وصاحب الهوى يعطف كلام الله ورسوله ﷺ على ما يقتضيه هواه، ولذلك قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إن هذا القرآن كلام الله فلا يغرنكم ما عطفتموه على أهوائكم»[٥].

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب: لا الكثير.

(٢) الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٣) الشاطبي: «الاعتصام»: (٢/ ٦٨٣).

(٤) انظر الشاطبي: «الاعتصام»: (٢/ ٦٨٤).

(٥) رواه الدارمي في «سننه»: (٢/ ٣١٧، رقم ٣٣٥٨)، كتاب فضائل القرآن، باب القرآن كلام الله.

ولقد قال الله عز وجل في أهل البدعة والانحراف: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧].

(فجعل من شأن المتبع للمتشابه أنه يجادل فيه ويقيم[١] النزاع على الإيمان، وسبب ذلك أن الزائغ المتبع لما تشابه من الدليل لا يزال في ريب وشك، إذ المتشابه لا يعطي بياناً شافياً ولا يقف منه متبعه على حقيقة، فاتباع الهوى يلجئه إلى التمسك به والنظر لا يتخلص له فهو على شك أبداً، وبذلك يفارق الراسخ في العلم، لأن جداله إن افتقر إليه فهو في مواقع الإشكال العارض طلباً لازالته فسرعان ما يزول إذا بين له موضع النظر، وأما ذو الزيغ فإن هواه لا يخليه إلى طرح المتشابه، فلا يزال في جدال عليه وطلب لتأويله)[٢].

ومن علامات أهل الأهواء ردُّهم ما جاء على خلاف مذهبهم قال الشاطبي: (وعلامة من هذا شأنه أن يرد خلاف مذهبه بما قدر عليه من شبهة دليل تفصيلي أو إجمالي، ويتعصب لما هو عليه غير ملتفت إلى غيره، وهو عين اتباع الهوى وإذا ظهر اتباع الهوى، فهو المذموم حقاً، وعليه يحصل الإثم فإن من كان مسترشداً مال إلى الحق حيث وجده ولم يرده، وهو المعتاد في طالب الحق، ولذلك بادر المحققون إلى اتباع رسول الله ﷺ حين تبيّن لهم الحق)[٣].

ومن علامات أهل الأهواء: التعصب لمقدميهم وعظمائهم أو فرقهم وجماعاتهم دون دليل من كتاب أو سنة، يقول شيخ الإسلام: (ولهذا تجد قوماً كثيرين يحبون قوماً ويبغضون قوماً لأجل أهواء لا يعرفون معناها ولا دليلها، بل

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: فيقدم النزاع على الإيمان.

(٢) الشاطبي: «الاعتصام»: (٢/ ٧٣٩).

(٣) «الاعتصام»: (١/ ٢١٥).

يوالون على إطلاقها، أو يعادون من غير أن تكون منقولة نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ وسلف الأمة ومن غير أن يكونوا هم يعقلون معناها، ولا يعرفون لازمها ومقتضاها)[(١)].

(وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ومن عُرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ولا يخص أحداً بمزيد موالاة، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه)[(٢)].

ومن علامات أهل الأهواء القيام من أجل أهوائهم والانتصار لها، بل قد يكون المرء منكراً لمنكر من المنكرات الظاهرة ولكن إنكاره ذاك مشوب بشائبة من الهوى، فينكر وهو يظن أن ذلك الإنكار للدين، وهو إنما إقامه وأقعده هواه أو أن يكون مبدأ أمره الدين، فإذا أوذي أراد الانتصار لنفسه. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الإنسان عليه أولاً أن يكون أمره لله، وقصده طاعة الله فيما أمره به، وهو يحب صلاح المأمور، أو إقامة الحجة عليه فإن فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفته، وتنقيص غيره كان ذلك حمية لا يقبله الله، وكذلك إذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطاً ثم إذا رُدَّ عليه وأوذي أو نُسب إلى أنه مخطيء وغرضه فاسد طلبت نفسه الانتصار لنفسه، وأتاه الشيطان فكان مبدأ عمله لله ثم صار له هوًى يطلب به أن ينتصر على من آذاه، وربما اعتدى على ذلك المؤذي)[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (٢٠/ ١٦٣).

(٢) ابن تيمية: «الفتاوى»: (١١/ ٥١٢).

(٣) «منهاج السنة»: (٥/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

والناس في ذلك أقسام ثلاثة:

**الأول**: قوم لا يقومون إلا لهوى في نفوسهم فلا يرضون إلا بما يعطونه، ولا يغضبون إلا لما يحرمونه، فإذا أعطى أحدهم ما يشتهيه زال غضبه، وصار الأمر الذي كان عنده منكراً مرضياً عنده بل صار فاعلاً له وشريكاً فيه.

**الثاني**: قوم يقومون ديانة ولله عز وجل مخلصين لله مصلحين فيما عملوه، ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أُوذوا.

**الثالث**: قوم يجتمع فيهم هذا وهذا، وهم غالب المؤمنين ممن فيه دين وله شهوة تجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة.

وإبّان الفتن يكثر هذا النوع فإنه لما كان آخر خلافة عثمان وخلافة علي ـ رضي الله عنهما ـ كثر هذا القسم، فنشأت الفتنة التي سببها عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين. واختلاطهما بنوع من الهوى، مع أن كلا منهما متأول أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومع هذا التأويل نوع هوى، ففيه نوعٌ من الظن وما تهوى الأنفس وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى[١].

ومن خصائص هذه الأهواء أنها تتمكن من نفوس أصحابها وتكاد تدخل في كل عرق ومفصل كما قال النبي ﷺ: «وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»[٢].

---

(١) ينظر شيخ الإسلام: «الفتاوى»: (٢٨/ ١٤٧ ـ ١٤٩).

(٢) رواه أبو داود في «سننه» من حديث معاوية بن أبي سفيان: (٥/ ٦، رقم ٤٥٩٦)، كتاب السنة، باب شرح السنة، وأحمد في «مسنده»: (٤/ ١٠٢).

قال الإمام الشاطبي: (إن معنى هذه الرواية: أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما سيكون في أمته من هذه الأهواء التي افترقوا فيها إلى تلك الفرق، وأنه يكون فيهم أقوام تداخل تلك الأهواء قلوبهم، حتى لا يمكن في العادة انفصالها عنها وتوبتهم منها، على حد ما يداخل داءُ الكلب جسم صاحبه، فلا يبقى من ذلك الجسم جزءٌ من أجزائه ولا عرق ولا مفصل ولا غيرهما إلا دخله ذلك الداء وهو جريان لا يقبل العلاج ولا ينفع فيه الدواء، فكذلك صاحب الهوى، إذا دخل قلبه وأُشرب حبه لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان ولا يكترث بمن خالفه)(١).

ومثّل لذلك ببعض المتقدمين من أهل الأهواء، كمعبد الجهني وعمرو بن عبيد، وقال: (فإنهم كانوا حيث لُقُوا مطرودين من كل جهة محجوبين عن كل لسان، مبعدين عند كل مسلم، ثم مع ذلك لم يزدادوا إلا تمادياً على ضلالهم ومداومة على ما هم عليه ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤١].)(٢).

(وأهل الأهواء إذا استحكمت فيهم أهواؤهم، لم يبالوا بشيء ولم يعدوا خلاف أنظارهم شيئاً، ولا راجعوا عقولهم مراجعة من يتهم نفسه، ويتوقف في موارد الإشكال (وهو شأن المعتبرين من أهل العقول) وهؤلاء صنف من أصناف من اتبع هواه، ولم يعبأ بعذل العاذل فيه، ثم هناك أصناف أخر تجمعهم مع هؤلاء إشراب الهوى في قلوبهم حتى لا يبالوا بغير ما هو عليه)(٣).

---

(١) «الاعتصام»: (٢/ ٧٧٨).
(٢) «الاعتصام»: (٢/ ٧٧٩).
(٣) «الاعتصام»: (٢/ ٧٨١).

ويصبح أهل البدعة وإن بعدوا عن الحق يعتقد كل منهم أن الحق معه وأنه على السنة لما أشربوا من أهوائهم فصار كثير من أهل الأهواء ينتصر لجاهه أو رئاسته أو فرقته وما نسب إليهم ومن نسب إليهم، لا يقصد أن تكون كلمة الله هي العليا، بل يغضب على من خالفه وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضى عمّن وافقه وإن كان جاهلاً سيء القصد، فيحمد ما لم يحمده الله ويذم من لم يذمه الله ويوالي ويعادي على أهواء نفسه[1].

ولقد بين الله عز وجل لنا: (أن من الناس من يتخذ إلهه هواه أي يجعل ما يأله ويعبده هو ما يهواه، فالذي يهواه ويحبه هو الذي يعبده، ولهذا ينتقل من إله إلى إله كالذي ينتقل من محبوب إلى محبوب إذا كان لم يحب بعلم وهدى ما يستحق أن يحب، ولا عبد من يستحق أن يعبد، بل عبد وأحب ما أحبه من غير علم ولا هدى ولا كتاب منزل، قال تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٣]، . . . وقال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم﴾ [سورة الجاثية، الآية: ٢٣].

قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رماه وعبد الآخر. وقال الحسن البصري: ذاك المنافق نصب هواه فما هوي من شيء ركبه. وقال قتادة: أي والله كلما هوي شيئاً ركبه، وكلما اشتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى)[2].

وإذا زاغ صاحب هوى زين له سوء عمله وظن أنه على حق فتمادى في الضلالة ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾ [سورة محمد، الآية: ١٤].

---

(١) ينظر شيخ الإسلام: «منهاج السنة»: (٥/ ٢٥٥).

(٢) «الرد على الإخنائي»: (٩٣).

(فصاحب البدعة لما غلب عليه الهوى مع الجهل بطريق السنة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم دون غيره، فمضى عليه فحاد بسببه عن الطريق المستقيم فهو ضال من حيث ظن أنه راكب للجادة كالمار بالليل على الجادة وليس له دليل يهديه يوشك أن يضل عنها، فيقع في متابعه[١]، وإن كان بزعمه يتحرى قصدها، فالمبتدع من هذه الأمة إنما ضل في أدلتها، حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله)[٢].

* * *

ولا ريب أن أهل الغلو المعاصرين ليسوا بدعاً من أهل الابتداع في كل عصر فهم إنما قادتهم الأهواء حين خالفوا النصوص فتجاوزوا حدود ما أمر الله عز وجل به، وليس قولٌ من أقوالهم المنحرفة إلا من أمثلة تأثير اتباع الهوى في إحداث الغلو، ولكن لمَّا رأيت أن أَبْيَنَ مظاهر اتباع الهوى هو التعصب للجماعة أو للقائد وأفردته بمبحث تالٍ مستقل.

كما قد سبق بيان تأثير اتباع المتشابه في إحداث الغلو، واتباع المتشابه لون من اتباع الأهواء، إذ ترك المحكمات إلى المتشابهات لهوى في نفسه، ولزيغ في قلبه.

وفيما ذكر من قبل وما سيذكر من بعدُ غنية عن إطالة الكلام في التمثيل على اتباع الهوى عند الغلاة المعاصرين.

❑ ❑ ❑

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب متاهة.

(٢) الشاطبي: «الاعتصام»: (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

## المطلب الخامس

## الجدال

**تعريف الجدال في اللغة:**

الجيم والدال واللام أصلٌ واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكونُ فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام(١).

(والجدل اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلةً وجدالاً ورجلُ جدل ومجدل ومجدال: شديد الجدل، ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدْلاً، أي غلبته، ورجل جَدِل إذا كان أقوى في الخصام، وجادله أي: خاصمه مجادلةً وجدلاً والاسم الجدل وهو شدة الخصومة)(٢).

**تعريف المراء في اللغة:**

قال ابن منظور: (المراء: المهارة والجدل، والمراء أيضاً من الامتراء والشك، وفي التنزيل العزيز: ﴿فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٢] . . . وأصله في اللغة: الجدال وأن يستخرج الرجل من مناظره كلاماً ومعاني الخصومة وغيرها من مَرَيتُ الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها)(٣).

**المراد بالمراء والجدال هنا:**

الخصومات ومراجعة الكلام في الدين على أحد الأوجه المذمومة التي سيأتي بيانها.

---

(١) ينظر ابن فارس: «معجم مقاييس اللغة»: (١/ ٤٣٣)، مادة جدل.

(٢) ابن منظور: «لسان العرب»: (١١/ ١٠٥)، مادة جدل.

(٣) «لسان العرب»: (٣/ ٤٧٤)، مادة مرا.

إن من الجدال ما هو مذموم، ومنه ما هو ممدوح، وفيما يلي بيان لمظاهر الجدال المذموم السائق لأنواع من الانحراف والغلو:

**(١) المجادلة في القطعيات:**

إن وقوع الجدال في أمر يدل على اختلاف المتجادلين في إثبات ذلك الأمر أو نفيه، ولذلك كان الجدال في الأمور القطعية مذموماً، وفي القرآن العظيم جملة من النصوص التي نعى الله فيها على قوم جادلوا في الله عز وجل وآياته، فمن ذلك:

١ ـ قول الله عز وجل: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ [سورة غافر، الآية: ٤]. أي ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها بعد البيان وظهور البرهان إلا الذين كفروا وجحدوا آيات الله عز وجل فقابلوا الحق بالباطل، وأما الذين آمنوا فيخضعون للحق ليدحضوا به الباطل[1].

٢ ـ وقوله عز وجل: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ [سورة غافر، الآية: ٣٥]. (أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت)[2]؛ لأنهم (يجادلون فيها على وضوحها ليدفعوها ويبطلوها بغير سلطان أتاهم، أي بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي

---

(١) ينظر الطبري «جامع البيان»: (٢٤/ ٤٢)، وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»: (٦/ ١٢٣)، وابن سعدي «تيسير الكريم الرحمن»: (٧/ ٤٩).

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٦/ ١٣٩).

أصلاً»[١].

٣ـ وقول الله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ [سورة غافر، الآية: ٥٦]. يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل بغير بينة من أمره ولا حجة أن هذا من كبرٍ في صدره على الحق وعلى من جاء به، فهو يريد الاستعلاء بالباطل، ولكن هذا لا يتم وما هو ببالغه إذ كل من تكبر على الحق ذل[٢].

٤ـ وقال عز وجل: ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم﴾ [سورة الشورى، الآية: ١٦]. فأخبر سبحانه هنا أن الذين يجادلون المؤمنين في الله بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة من بعد ما استجاب له المؤمنون لما رأوا من الآيات القاطعة والبراهين، أن هؤلاء المجادلين ـ الذين يريدون صد المؤمنين ـ حجتهم داحضة باطلة مدفوعة عند ربهم لأنها حجة مشتملة على رد الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل. وهم متوعدون بالغضب لعصيانهم وإعراضهم وتكذيبهم، والعذاب الشديد عقوبة لهم[٣].

وعلى هذا النوع من الجدل المذموم يحمل ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المراءُ في القرآن كفر»[٤].

(١) ابن سعدي: «تيسير الكريم الرحمن»: (٧/ ٦٢).

(٢) ينظر «المصدر السابق»: (٧/ ٦٦).

(٣) ينظر «المصدر السابق»: (٧/ ٩٩).

(٤) رواه أبو داود: (٥/ ٩، رقم ٤٦٠٣)، كتاب السنة، باب النهي عن الجدال في القرآن، والحاكم: (٣/ ٢٢)، وصححه ووافقه الذهبي وأحمد: (رقم ٧٤٩٩)، تحقيق أحمد شاكر، وقد صححه. واللالكائي: (١/ ١١٦، رقم ١٨٢).

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: (والمعنى أن يتمارى اثنان في آية يجحدها أحدهما ويدفعها أو يصير فيها إلى الشك فذلك هو المراء الذي هو الكفر)(١).

**(٢) المجادلة بغير علم :**

يقول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ [سورة الحج، الآية: ٣]. ويقول سبحانه: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ [سورة الحج، الآية: ٨]. وفي هذا الذمُّ لقوم يخاصمون بغير علم، ويجادلون بغير هدى فيما ليس معهم فيه دليل ولا برهان ولا كتاب منير، فلا عقل صحيح ولا نقل صريح، بل مجرد الرأي والهوى. وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضون عن الحق المتبعون للباطل يتركون ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الحق المبين ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، وأشباههم(٢).

إنه لا بد في الجدال ـ المحمود ـ من علم وسلطان وهدى وكتاب منير، وإلا فلن يصل الجدال بالمتجادلين إلا لمزيد انحراف. قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: (إن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل)(٣).

إن المجادلة قد تكون من جاهل لعالم، أو من عالم لجاهل، فأما مجادلة

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله»: (٢/ ٩٢).

(٢) ينظر الطبري «جامع البيان»: (١٧/ ١٢٠)، وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»: (٤/ ٦١٣، ٦١٨).

(٣) «درء التعارض»: (١/ ٢٢٩)، وينظر «الفتاوى»: (٢٠/ ١٦٣).

الجاهلِ العالمَ فتجعل العالم يحتقر المجادل الذي يجادل بغير هدى من الله فيمنع عنه العلم، ويسكت رغبة عن المجادلة فتضيع على الجاهل علوم كثيرة ما كان ليفقدها لو أنه حرص على السماع من أهل العلم دون أن يماريهم أو يجادلهم.

وأما مجادلة العالم للجاهل فإن مؤداها أن تكون الغلبة للجاهل بما يكثر من التهويلات والشتائم.

قال لقمان لابنه: (لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك ولا تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك)[١].

وقال ميمون بن مهران ـ رحمه الله ـ: (لا تمار عالماً ولا جاهلاً، فإنك إذا ماريت عالماً خَزَن عنك علمه، وإن ماريت جاهلاً خَشَنَ بصدره)[٢].

والمجادلة بغير علم تفتح أبواباً عظيمة للفساد على المجادِل والمجادل إذ تفتح لهم إشكالات لا يستطيعون دفعها، فربما وقعت في أنفسهم موقعاً لا يستطيعون إزالته.

والمجادِلُون بغير علم حتى وإن كانوا يريدون الرد على المبتدعة قد ينهاهم أهل العلم (عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظِرُ ضعيف العلم بالحجة، وجواب الشبهة فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل عِلجاً قوياً من علوج الكفار، فإن ذلك يُضِرُّه ويضر المسلمين بلا منفعة)[٣].

---

(١) ينظر ابن عبد البر: «جامع بيان العلم»: (١/ ١٠٧).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم»: (١/ ١٢٩).

(٣) ابن تيمية: «درء التعارض»: (٧/ ١٧٣).

والمجادل بغير علم حين يُغلب ـ وهو على حق ـ قد يفتن فيتبع غالبه، أو يكون الجدل فتنة للآخرين لظنهم أن الحق مع الغالب ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ [سورة يونس، الآية: ٨٥].

ولقد بُلي أقوام بالمناظرة والمحاورة والمجادلة في أمور من الدين عظيمة وهم جهلة لا يفقهون، وصارت هذه المحاورة والمجادلة فتنة لهم قيل لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: في مسجد كذا حلقة يتناظرون في الفقه، قال: (ألهم رأس)؟ قالوا: لا، قال: (لا يفقهون أبداً)[1].

إذ من البلايا عدم وجود مرجعية في الجدل، فإذا كان المتجادلان لا يملكان من العلم قدراً يؤهلهما للحوار، وليس هناك مرجع يرجعان إليه بليا بألوان من الانحرافات، وانفتحت لهما أبواب من الإشكالات الموقعة في الغلو أو التفريط.

ولقد رأيت أقواماً غلوا، ورأيت منهم تحاوراً ساعات طوالاً في قضايا مهمة لا يملكون أهلية الفصل فيها، فعلمت أن من أسباب غلوهم الجدال.

**(٣) الجدال فيما لا يطلب من الإنسان معرفته:**

إن القدر الذي يحتاجه المرء من العلوم والمعارف الشرعية جاء في القرآن والسنة بما يكفي ويشفي، فما من امرىء يتطلب أمراً زائداً على ما أوتي إلا فتن، ذلك أن الله عز وجل سكت عن أشياء من غير نسيان رحمة بالعباد.

عن أبي ثعلبة الخشني ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت

---

(١) سبق تخريجه ص (١٩١).

عن أشياء من غير نسيان لها رحمة بكم فلا تبحثوا عنها»[(١)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقيء في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألاَّ تنازعوا فيه»[(٢)].

قال المباركفوري ـ رحمه الله ـ: (إنما غضب لأن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى، وطلب سره منهيٌّ عنه، ولأن من يبحث فيه لا يأمن من أن يصير قدرياً أو جبرياً، والعباد مأمورون بقبول ما أمرهم به الشرع من غير أن يطلبوا سر ما لا يجوز طلب سره)[(٣)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[(٤)].

**(٤) الجدال فيما لا يمكن العلم به:**

لقد سبق في الكلام عن المتشابه أنه نوعان:

---

(١) رواه الدارقطني: (٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، والطبراني في «المعجم الكبير»: (٢٢/ ٥٨٩)، والبيهقي: (١٠/ ١٢ ـ ١٣)، وابن بطة في «الإبانة»: (١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٩/ ١٧)، وقال النووي: إسناده حسن. وكذا قال الهيثمي في «المجمع»: (١/ ١٧١).

(٢) رواه الترمذي: (٤/ ٤٤٣، رقم ٢١٣٣)، كتاب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المرِّي، وصالح المرِّي له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها» وللحديث شواهد.

(٣) «تحفة الأحوذي»: (٦/ ٣٣٥)، بتصرف يسير.

(٤) سبق تخريجه ص (٨٨).

١ ـ نوع استأثر الله بعلمه وهو المتشابه الحقيقي.

٢ ـ نوع يعلمه العلماء وهو المتشابه النسبي.

ومن يجادل في المتشابه الحقيقي أو يجادل في المتشابه النسبي وهو غير عالم به فقد وقع في المحذور: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ حتى بلغ: ﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ [آل عمران، الآية: ٧] فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[(١)].

وإذا وقع الخلاف في المتشابه وجب رده إلى عالمه، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة[(٢)] إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: «مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إنَّ القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه ص (١١٤).

(٢) ناحية.

(٣) رواه أحمد في «مسنده»: (٢/ ١٨١)، وله شاهد عنده في: (٢/ ١٨٥)، وله أصل في «صحيح مسلم»: (٣/ ٢٠٥٣، رقم ٢٦٦٦)، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعه، والنهي عن الاختلاف في القرآن.

**(٥) المجادلة فيما يسع فيه الخلاف:**

إذا كان الخلاف في أمر يسع فيه الخلاف، وكان المختلفان كلاهما محسن لم يسغ لهما أن يتجادلا فيختلفا فيهلكا.

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من النبي ﷺ خلافها، فأخذت بيده فأتيت به رسول الله ﷺ، فقال: «كلاكما محسن»، قال شعبة ـ الراوي ـ أظنه قال: «لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»(١).

قال شيخ الإسلام: (واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء، تجده من هذا الضرب، وهو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيباً فيما يثبته، أو في بعضه، مخطئاً في نفي ما عليه الآخر، كما أن القارئين كل منهما كان مصيباً في القراءة بالحرف الذي علمه، مخطئاً في نفي حرف غيره؛ فإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب لا في الإثبات)(٢).

ولقد حمل بعض العلماء حديث الرسول ﷺ: «مراءٌ في القرآن كفرٌ» على المجادلة في الأحرف. قال الإمام الآجري: (فإن قال قائل: عرِّفنا هذا المراء الذي هو كفر، ما هو؟ قيل له: نزل هذا القرآن على رسول الله ﷺ على سبعة أحرف، ومعناها على سبع لغات، وكان رسول الله ﷺ يلقن كل قبيلة من العرب على حسب ما يحتمل من لغتهم، تخفيفاً من الله عز وجل

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» بهذا اللفظ: (٣/ ٨٨)، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، وقد أخرجه البخاري في مواضع أخرى وأطرافه حديث رقم (٣٤٧٦، ٥٠٦٢)، وأحمد في «المسند»: (١/ ٤١٢).

(٢) «اقتضاء الصراط»: (١/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

ورحمة بأمة محمد ﷺ فكانوا ربما إذا التقوا يقول بعضهم لبعض: ليس هكذا القرآن وليس هكذا علّمنا رسول الله ﷺ، ويعيب بعضهم قراءة بعض فنهوا عن هذا، وقيل لهم: اقرءوا كما عُلمتم، ولا يجحد بعضكم قراءة بعض واحذروا الجدال والمراء فيما قد تعلمتم)[١].

(٦) **المجادلة لأجل المجادلة لا للبحث عن الحق:**

إن المجادلة المحمودة هي التي يقصد بها التوصل للحق، وأما عندما تكون المجادلة مقصودة لذاتها فهنا تذم، لأن المجادلة وسيلة وليست غاية وهي وسيلة لهدف مشروع.

﴿. . . ما ضربوه لك إلا جدلاً . .﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٥٨].

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل أنهم ما مثلوا لك هذا المثل، ولا قالوا لك هذا القول إلا جدلاً وخصومة يخاصمونك به ﴿بل هم قوم خصمون﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٥٨]، فهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية لأنها لما لا يعقل في قوله سبحانه: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٩٨]، ثم هي خطاب لقريش، وقريش كانت تعبد الأصنام، ولم يكونوا يعبدون عيسى عليه السلام، فتعيّن أن مقالتهم تلك إنما كانت على سبيل الجدل واللدد في الخصومة وليسوا يعتقدون صحتها[٢].

* * *

---

(١) رواه الآجري في «الشريعة»: (٦٨ ـ ٦٩).

(٢) ينظر الطبري: «جامع البيان»: (٢٥/٨٨)، وابن كثير: «تفسير القرآن العظيم»: (٦/ ٢٣٢).

فهذه أنواع من الجدال المذموم، وإنما أردت بها الدلالة على ما وراءها، ولم يكن النهي عن الجدل عبثاً، بل كان لحكم عظيمة، من أظهرها:

**( ١ ) أن الخصومات في الدين والجدل فيه يؤديان بالمرء إلى تكذيب القرآن والسنة،** إذ يكون همَّ المرء التغلب على خصمه، فيرد دليله الصحيح ويخوض في آيات الله بالباطل، ويضرب القرآن بعضه ببعض، يدل على هذا جملة نصوص وآثار منها:

أ- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا! وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا! فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان، فقال: «بهذا أمرتم؟ أو بهذا بعثتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلّت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما ههنا في شيء، انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا»[١]. وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»[٢].

ب- عن محمد بن علي بن الحسين قال: (لا تخاصم فإن الخصومة تكذب القرآن)[٣].

---

(١) رواه أحمد: (٢/ ١٩٥ - ١٩٦)، ورجاله ثقات، وأخرج ابن ماجه نحوه في المقدمة، باب القدر: (١/ ٣٣، رقم ٨٥)، وقال صاحب «الزوائد» في حديث ابن ماجه: «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات».

(٢) رواه أحمد: (٢/ ١٧٨).

(٣) رواه ابن بطة: (٢/ ٤٩٥، رقم ٥٤٢).

ج- قال بعض السلف: (لا تجالسوا أصحاب الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله)[١].

(٢) **إن الخصومات مواضع الزلل**، فبها يستزل الشيطانُ العالمَ فضلاً عن الجاهل، فتكون ساعة الخصومة ساعة تظهر فيها أخطاء العالم.

قال محمد بن يسار ـ رحمه الله ـ: (إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم، وفيها يبتغي الشيطان زلته)[٢].

٣- أن الخصومات تؤدي إلى التلون في الدين، إذ المخاصم لا يثبت على وجه واحد لأن مرجعه صار الأقدر على الخصومة والأقوى في الجدال:

أ- كان مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ يعيب الجدال في الدين، ويقول: (كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أردنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ)[٣].

ب- وعن محمد بن سيرين ـ رحمه الله ـ قال: (إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾)[٤].

ج- وعن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ قال: (من عمل بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه، ومن كثرت خصوماته لم يزل يتنقل من دينٍ إلى دين)[٥].

---

(١) رواه ابن بطة: (٢/ ٤٩٥، رقم ٥٤٣).

(٢) رواه ابن بطة في «الإبانة»: (٢/ ٤٩٧، رقم ٥٤٧)، والدارمي في «سننه»: (١/ ٩١، رقم ٤٠٢)، المقدمة، باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة.

(٣) رواه ابن بطة: (٢/ ٥٠٧)، واللالكائي: (١/ ١٤٤، رقم ٢٩٣).

(٤) رواه ابن بطة: (٢/ ٤٩٨)، والآية في سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

(٥) رواه ابن بطة: (٢/ ٥٠٤، رقم ٥٧٠).

د- وعن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - قال: (من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل)(١).

(٤) **أن المجادل قد يكون سبباً في إضلال الآخرين**، فعلى سبيل المثال: قد يكون الكلام في القدر طريقاً للتكذيب به، إذ تنفتح على المرء أبواب شبه وشكوك فتورثه الخصومات دخولاً في الأهواء والآراء الضالة.

قال عمرو بن قيس - رحمه الله -: (قلت للحكم: ما اضطر الناس إلى الأهواء؟ قال: الخصومات)(٢).

ومجالسة أهل الأهواء ومجادلتهم مؤدية إلى دخول شيء من الشبه ذهن الإنسان.

قال أبو قلابة - رحمه الله -: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإنّي لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبِّسوا عليكم ما كنتم تعرفون)(٣).

ولذا جاء تنبيه بعض السلف إلى أن مصدرنا في الشريعة ليس ذلك الإنسان اللسن الذي يحسن المحاجة والمحاورة، بل المصدر مصدر شرعي، والاعتبار إنما هو للعالم حتى وإن كان عيياً لا يحسن الكلام.

لقد كان مالك بن أنس - رحمه الله - يعيب الجدال في الدين، ويقول: كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أردنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ(٤).

---

(١) رواه الآجري: «الشريعة»: (رقم ٥٦)، واللالكائي: (١/ ١٢٨، رقم ٢١٦)، والدارمي: (١/ ٩١)، وابن عبد البر: (٢/ ٩٣)، وابن بطة: (٢/ ٥٠٣).

(٢) رواه الآجري في «الشريعة»: (رقم ٥٨)، واللالكائي: (١/ ١٢٨)، رقم ٢١٨)، من طريق الأشجعي عن سفيان. وأحمد في «السنة»: (رقم ١٨).

(٣) سبق تخريجه ص (٣٨٢).

(٤) سبق تخريجه ص (٤٠٢).

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: (القرآن هو الإمام، فأما هذا المراء فما أدري ما هو)[١].

والمسألة في الاتباع ليست باستطالة لسان امرىء على الآخر، بل بالعلم، فعن معن بن عيسى ـ رحمه الله ـ قال: (انصرف مالك بن أنس رحمه الله يوماً من المسجد، وهو متكيء على يدي فلحقه رجل يقال له: أبو الحورية، كان يُتَّهم بالإرجاء، فقال: يا عبد الله اسمع مني شيئاً أكلمك به، وأحاجك، وأخبرك برأيي، قال: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتك اتبعني، قال: فإن جاء رجل آخر فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال مالك ـ رحمه الله تعالى ـ يا عبد الله: بعث الله عز وجل محمداً ﷺ بدينٍ واحد، وأراك تتنقل من دين إلى دين، قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل)[٢].

وقد (أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدعٍ وزيغٍ ولا يُعدّون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم)[٣].

فالمتكلمون ليس معهم علم يهتدون به، بل (غاية ما عند هؤلاء المتقعرين من العلم عبارات وشقاشِقُ لا يعبأ الله بها يحرفون بها الكلم عن مواضعه قديماً وحديثاً، فنعوذ بالله من الكلام وأهله)[٤].

---

(١) رواه ابن بطة: (٥١٠).

(٢) الآجري: «الشريعة»: (٥٦ ـ ٥٧).

(٣) ابن عبد البر: «جامع بيان العلم»: (٢/ ٩٥ ـ ٩٦).

(٤) الذهبي: «سير أعلام النبلاء»: (١٠/ ٥٤٧).

لقد (كان أئمة السلف لا يرون الدخول في الكلام ولا الجدال بل يستفرغون وسعهم في الكتاب والسنة والتفقه فيهما ويتبعون ولا يتنطعون)[١].

**(٥) إن المجادلة تفضي إلى المغالبة والمعاندة :**

فربما انفتح للمجادل أبواب من الانحراف والشر أثناء المجادلة وهو يعلم بطلانها أو لا يعلم، لكنه يبقى مصراً عليها مغالبة لمحاوره ومعاندة لخصمه، وربما أصر الجاهل على الباطل معاندة لبعض أهل الحق الذين لم يحسنوا عرضه على الناس.

نقل الإمام الشاطبي عن الغزالي ـ رحمهما الله ـ قوله : (أكثر الجهالات إنَّما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق، أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلال.

ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها)[٢].

**(٦) إن الجدال مشغل عن العمل :**

وإذا انفتح للمرء باب جدال كان ذلك سبباً في سد أبواب كثيرة من الخير.

قال بعض السلف : (إن الله عز وجل إذا أراد بعبدٍ خيراً فتح له باب عمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد بعبد شراً فتح عليه باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل)[٣].

إن الجدال بل الاسترسال مع النفس في الشبه مؤدٍ إلى أمورٍ لا تحمد

---

(١) الذهبي : «سير أعلام النبلاء» : (١٢/ ١٢٠).

(٢) الشاطبي : «الاعتصام» : (٢/ ٧٣٢).

(٣) رواه ابن بطة في «الإبانة» : (٢/ ٥١٠، رقم ٥٨٩).

عقباها.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له، من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله ولينته»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يسألونكم عن العلم، حتى يقولوا: هذا الله خلقنا فمن خلق الله»(٢).

ولقد كان الاختلاف في الكتاب بغياً، والمماراة فيه سبب هلاك من قبلنا ممن حرفوا التنزيل، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: هجّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنّما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»(٣).

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: (المراد بهلاك من قبلنا هلاكهم في الدين بكفرهم وابتداعهم، فحذر رسول الله ﷺ من مثل فعلهم)(٤).

كما أنه موصل بالمرء إلى الخسارة، قال بلال بن سعد ـ رحمه الله ـ: (إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً يعجب برأيه فقد تمّت خسارته)(٥).

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه»: (١/ ١٢٠، تابع لرقم ١٣٤)، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»: (١/ ١٢٠، رقم ١٣٥)، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه»: (٣/ ٢٠٥٣، رقم ٢٦٦٦)، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعه، والنهي عن الاختلاف في القرآن

(٤) «النووي على مسلم»: (١٦/ ٢١٨).

(٥) ابن بطة: «الإبانة»: (٢/ ٥١١، رقم ٥٩١).

والمتأمل لأحوال المنحرفين عن الحق من أهل البدع والأهواء يجد من سماتهم الظاهرة وعلاماتهم البينة: المجادلة، ولذلك سمي بعضهم أهل الكلام في مقابل أهل الاتباع والأثر، ولقد نهى السلف عن الكلام ومجالسة أهله، وحذروا منه ونفروا.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: (والله لئن يبتلي المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك به خير له من النظر في الكلام)[١].

وكان أبو يوسف ـ رحمه الله ـ يقول: (العلم بالكلام جهل، والجهل بالكلام هو العلم)[٢].

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ: (من طلب الدين بالكلام تزندق)[٣].

وكذلك كل أهل الأهواء، فإن شأنهم كثرة الكلام، وطول الجدال، وشدة الخصومة، وليس شأن أهل الأهواء المعاصرين ومنهم الواقعون في الغلو عن هذا ببعيد.

لقد كان أسلوبهم في المجادلة سبباً في انصراف أقوام إليهم، يقول أحد من بلي بالانتماء إلى جماعة شكري مصطفى ثم وفق للعودة إلى منهج أهل السنة والجماعة: (تبين لي أن منهج هذه الفرقة قد جمع بين الجهل المركب حتى إنه ليؤتى بالكلام المتناقض ويتحدى به على أنه الحق المبين، وبين لبس الحق بالباطل لبساً غريباً عجيباً . . وبين المجادلة بالباطل والمكابرة بصورة تستفز الأعصاب وبين

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «مناقب الشافعي»: (١٨٢)، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن عساكر في «تبيين كذب المفتري»: (٣٣٥)، وأبو الفتح نصر المقدسي في «الحجة»: (٥٠)، وابن بطة في «الإبانة»: (٢/ ٥٣٤، رقم ٦٦١).

(٢) رواه ابن بطة في «الإبانة»: (٢/ ٥٣٥، رقم ٦٦٨).

(٣) رواه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»: (٥)، وأورده الذهبي في «السير»: (٨/ ٥٣٧).

الغرور والإعجاب بالنفس . . . ثم يساق هذا كله في أسلوب بياني رائع، ومن خلال بلاغةٍ في التعبير وفصاحة في القول وثقة كبيرة تبدوا من أسلوب عرض هذه الأفكار مع التأكيد على مقررات سابقة معروفة ومتفق عليها بين المتكلم والسامع، وصياغة شبهات وهمية ثم الرد عليها مما يشعرك بالإنصاف والموضوعية والحيدة الكاملة، والنزاهة التامة . . . لقد كان صاحب هذه الأفكار . . . ينفعل على أقل القليل من دين الله، تشعر حين تجالسه أنه متأجج العاطفة لنصرة دين الله شديد الحماس لكل ما يراه حقاً، غيور أشد الغيرة ومتحسر غاية الحسرة على ضياع كثير من أوامر الله . . . كل هذه الأمور مجتمعة تخلب نظرك، وتستثير إعجابك، وتشعر أنك أمام رجل فذ، منقطع النظير، قوي الحجة ظاهر الدليل، . . . فما إن وقعت أعين البعض على هذا الرجل ورأوا قوة عرضه لما يحمله من الأفكار حتى انبهروا به واشتد إعجابهم به لما وجدوه من استيعاب منهجه لكثير من الأمور التي لم يجدوها عند غيره، فضلاً عن هزيمته لكل من يناقشه، وبراعته في كشف جوانب القصور في المناهج الأخرى، فشعروا أنهم قد وجدوا ضالتهم ووصلوا إلى أول الطريق، فألقوا عنده رحالهم، وأولوه ثقتهم ومحبتهم مبايعين له ـ كما طلب منهم ـ على اتباع منهجه جملة وتفصيلاً)[(١)].

فبين من هذا النص الذي كتبه رجل كان من كبار القوم أن القدرة على الجدال والقوة في العرض والبيان وسوق الشبه هي التي جعلت القوم ينبهرون بشخص الرجل وقدراته.

وهذا بين من الأشرطة المسجلة بصوته والكتب، حيث يملك مقدرة باهرة على الحوار والجدل، وتقليب الألفاظ وتشقيق المسائل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

---

(١) رجب مدكور: «التكفير والهجرة وجهاً لوجه»: (٦ ـ ٧).

ويسوق الرجل نفسه واقعة وقعت له مع شكري مصطفى تنبيء عن لون من ألوان من الجدل المفضي إلى الغلو، يقول: (كنا ذات يوم في أواخر عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م نجلس مع مؤسس هذه الفرقة في منزل أحد الإخوة، فثار حديث حول قول الرسول ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة»، فأكد مؤسس هذه الفرقة أن هذا الحديث للحصر، وأن هذه الأصناف الثلاثة هي فقط التي يحل دمها، وأن كل من أباح الإسلام دمه إذا لم يكن ثيباً زانياً ولا قاتل نفس فلا يكون قطعاً إلا من الصنف الثالث وهو التارك لدينه المفارق للجماعة فسأله أحد الإخوة الحاضرين: ماذا تقول في الذي ترك دينه ثم تاب ورجع إلى الإسلام، أيجوز قتله؟

فأجاب: نعم يجوز قتله ويكون مسلماً ويدخل قتله في باب التارك لدينه باعتبار ما كان عليه وما وقع منه!! ولم أناقش في صحة الحكم، ولكنني فقط - على اعتبار أن حكمه هذا صحيح جدلاً - قلت له: إذن الحديث ليس للحصر، وأن القتل ليس لثلاث وإنما لأربع، ثلاثة أصناف مسلمين والرابع كافر، فأجابني منفعلاً: لا، هو للحصر، فلما راجعته قائلاً: لا إن الحديث على هذا الفهم لا يكون للحصر، صرخ في وجهي قائلاً باللهجة العامية: (أكفرك على طول) ومعناه: أحكم عليك بالكفر إذا فهمت الحديث على هذا النحو)[1].

فانظر كيف بدأ الجدال في أمر لا يملك المتحاوران فيه علماً، وليس معهما هدى ولا كتاب منير، فصار ذلك الجدل سبباً في الغلو حيث أفضى إلى التهديد بالتكفير، ولولا أن أحدهما مبايع على السمع والطاعة للآخر[2] لكان لهما شأن

---

(١) رجب مدكور: «التكفير والهجرة وجهاً لوجه»: (٢٧٧ - ٢٧٨).

(٢) انظر «المرجع السابق»: (٢٧٨).

آخر يبدأ بالتكفير وينتهي بالقتل.

والمتأمل في تاريخ نشوء هذه الفرقة يجد أن الإرهاصات الأولى كلها بدأت في السجون وعن طريق الجدل، حيث كانت المجادلات تجري في الكلام عن تكفير الحاكم والمحكومين، الأمر الذي دفع بعض الكتاب المعايشين لنشوء هذه الفرقة إلى القول بأن أول ظهور الغلو في التكفير كان من مناظرات سجن أبي زعبل حيث سجن بعضهم في أماكن خاصة (وفيها تمخضت المناقشات عن ميلاد التكفير بصورة محدودة ومعلنة)[١].

ومع ما كانوا يتصفون به من تمسك بمظاهر التدين السلوكية من صلاة وصيام ونحو ذلك إلا أنهم كانوا جدليين يقول عبد الرحمن أبو الخير: (لقد كانوا واقعاً يتحرك بالإسلام على الأرض بقدر ما كانوا جدليين كذلك، كانت إذا أثيرت مسألة ثار الجدل حولها بالساعات أو قد يطول يوماً أحياناً)[٢].

□ □ □

---

(١) سالم البهنساوي: «الحكم وقضية تكفير المسلم»: (٣٠)، وينظر: (٢٩).

(٢) «ذكرياتي مع جماعة المسلمين»: (١٣٩ ـ ١٤٠).

## المطلب السادس

## اختلال مناهج التعليم

من المباديء الأساسية التي دعا إليها الإسلام طلب العلم حيث كانت أوائل الآيات التي نزلت من القرآن الكريم دعوة إلى العلم بالقراءة التي هي من مفاتيح العلم: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [سورة العلق، الآية: ١]، وامتناناً على البشر بتعليمهم الكتابة التي هي من طرق حفظ العلم: ﴿الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [سورة العلق، الآية: ٤]، والعلوم قسمان:

**الأول**: علوم الدين التي تزكي النفوس وتهذب الأخلاق، وتصلح العقائد، وتكون الأعمال بها صالحة مثمرة للخير، وهذه هي العلوم الشرعية المبنية على الوحيين، ويلحق بها ما هو مكمل لها كعلوم اللغة.

**الثاني**: علوم الدنيا التي لا يقصد بها تهذيب الأخلاق، وإصلاح العقائد والأعمال، وإنما يقصد بها المنافع الدنيوية فقط.

فالقسم الأول هي علوم السيادة التي تتعلق بها نصوص مدح العلم والثناء على العلماء.

وأما العلوم البشرية فهي علوم الخدمة؛ لأنها تدور حول تحقيق الرفاهية لبدن الإنسان وعيشة المادي، وأحكامها تختلف باختلاف مقاصد المتعلم؛ فإن قصد بها الخير، وبنيت على الإيمان والدين صارت علوماً دنيوية دينية محمودة.

---

(١) ينظر الشيخ عبد الرحمن السعدي: «الفتاوىٰ السعدية»: (١٠٤ ـ ١٠٥).

وإن لم يقصد بها الدين صارت علوماً دنيوية محضة لا غاية شريفة لها؛ وقد تكون ضارة إذا ساءت المقاصد.

ولقد شهد تاريخ المسلمين منذ فجر الإسلام نهضة فكرية علمية واسعة، وألفت في تاريخ المسلمين مؤلفات كان لها تأثير في تاريخ البشرية كلها.

واتخذ المسلمون المسجد في البدء داراً للتعليم، ثم أوجدت الكتاتيب لتكون مكاناً لتعليم الناشئة القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم، ثم أنشئت المدارس المستقلة التي أوقف عليها الموسرون أوقافاً تساعد على استمرار التدريس فيها، ولم تكن تلك المدارس قاصرة على العلوم الشرعية بل كانت تدرس الأدب والتاريخ والتراجم والحساب والفلك والطب.

ولكن ما لبث الأمر أن تغير، وصار المسلمون إلى تأخر وتخلف في العلوم إن الشرعية وإن البشرية بينما كان الغرب يتقدم بانياً تقدمه على ما حصله المسلمون من العلوم، ومع التقدم تسارعت حركة الغزو العسكري والفكري، وصدم كثير من النَّاس بحضارة الغرب بما يمكن أن يسمى: (الصدمة الحضارية) فهالهم التقدم الغربي وأولعوا به، ولم يفرقوا بين ضاره ونافعه.

واجتهد المستعمرون في استخدام التعليم لتحقيق مآربهم الاستعمارية، وكانوا عالمين بمدى تأثير التعليم في الوصول إلى تغريب المجتمع يقول المستشرق: جب: (السبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب «أو الفرنجة» هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المباديء الغربية، وعلى التفكير الغربي . . . هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين، وقليل من الزعماء الدينيين)[1].

(١) نقلاً عن د. محمد محمد حسين «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»: (٢/ ٢١٦ـ٢١٧).

ويقول اللورد ميكالي ـ إبان استعمار بريطانيا للهند ـ: (يجب علينا أن ننشيء جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين الملايين من رعيتنا، وستكون هذه الجماعة هندية في اللوم والدم، وانجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير)[١].

كما يلاحظ هنا مدى ضيق المستشرقين بوجود المعاهد الإسلامية يقول المستشرق جب: (ومع أن الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية ومع أنَّ الثقافات القومية قد أخذت مكانها في المدارس ومع أن الفوارق الاجتماعية قد أصبحت أكثر وضوحاً، ومع أن الثقافة الدينية التقليدية قد أصبحت محصورة في عدد قليل محدود، مع ذلك كله فالمعاهد الدينية نفسها لا تزال قائمة، ولا يزال حفاظ القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم، ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين)[٢].

واجتهد هؤلاء المستشرقون مع السلطات الاستعمارية في البلاد الإسلامية في إنشاء المدارس الأجنبية التي تتبع الإرساليات النصرانية، وكانت أولُ مدرسةٍ من هذا النوع هي: مدرسة الأمريكان وهي مدرسة ابتدائية أنشئت في عام ١٨٢٨م وألحقت بالكنيسة الأرثوذكسية في بولاق بمصر، وفي عام ١٨٢٩م أنشئت مدرسة أخرى في الموسكي بالقاهرة وكانت تدرس فيها اللغات: العربية، والفرنسية، والإيطالية ثم تتابعت المدارس المختلفة التابعة للإرساليات كالمدارس الكاثوليكية، ومدارس الكنيسة الانجليزية، والمدارس الألمانية[٣].

---

(١) نقلاً عن أبي الحسن الندوي: «نحو التربية الإسلامية الحرة»: (٢٨)، واللورد ميكالي هو رئيس اللجنة التعليمية بالهند عام ١٨٣٥، وهو الذي قرر جعل الانكليزية لغة التعليم في الهند.

(٢) نقلاً عن د. محمد محمد حسين: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»: (٢/ ٢٢٠).

(٣) ينظر منير عطا الله سليمان وزملاؤه: «تاريخ ونظام التعليم في جمهورية مصر العربية»: (٩٠ ـ ٩١).

وكان من أول ما سعوا إليه في البلاد الإسلامية إماتة دور الحواضر التعليمية الكبرى في البلاد الإسلامية، ففي مصر مثلاً (حاول محمد علي في أول الأمر أن يُدخل العلوم الحديثة ضمن مناهج الأزهر إلا أنه خشي معارضة الأزهريين فقام على الفور بإنشاء نظامه التعليمي الحديث وهكذا انقسم التعليم في مصر إلى نظام ديني ونظام مدني حديث)[١]، ولكن هذه الثنائية لم تترسخ إلا في عهود الاستعمار وفي ذلك يقول اللورد كرومر: (إنَّ التعليم الوطني عندما قدم الانجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة تقف أمام أي إصلاح تعليمي وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من التعصب الديني، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً من مرونة التفكير والتقدير، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركةٍ تنبثق من داخله لكانت خطوة جليلة الخطر، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمر غير متيسر تحقيقه فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح وعندئذٍ سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين إما أن يتطور وإما أن يموت ويختفي)[٢].

لقد عمد المستعمرون إلى محاولة إنهاء دور المؤسسات التعليمية الإسلامية فأهملوها وحاربوها، وراحوا يبنون المدارس اللادينية (المدنية) وجعلوا معايير لتوظيف خريجي المدارس لا تنطبق إلا على خريجي مدارسهم وجامعاتهم.

ثم جاء أفراخ المستعمرين من بعدهم ليكملوا المسيرة ولكنهم اختلفوا في منهج تغيير التعليم.

---

(١) منير عطا الله وآخرون: «تاريخ ونظام التعليم في مصر»: (٧٩).

(٢) «الغارة على العالم الإسلامي»: (١٥). وينظر: د. شبل بدران: «المؤسسة التعليمية والتطرف»: (٣١٢).

وابتغاء لتوضيح الأمر فإني أبين أركان التعليم المنهجي الرئيسة، ثم أثني بتفصيل القول في كل ركن، والاختلال الواقع فيه، ثم أختم ببيان أوجه تأثير ذلك في إحداث الغلو، أما أركان التعليم فإن أهمها الأركان الآتية:

**الأول**: السياسة التعليمية وهي المشتملة على أهداف التعليم الكبرى، والغايات العامة منه، والأسس والقواعد التي يقوم عليها.

**الثاني**: الخطة الدراسية ويقصد منها: تحديد المواد الدراسية وتحديد عدد الساعات الدراسية لكل مادة في كل مرحلة من المراحل الدراسية.

**الثالث**: الكتاب: وهو الذي يُعتمد في شرح المادة ويعتمده الطالب في مراجعة المادة، ويشتمل على تفصيل لعناصر المنهاج المقررة للمادة مع شرحها.

**الرابع**: المعلم، وهو الذي يشرح المعلومة للطالب، وينفذ السياسة التعليمية، ويسير وفق الخطة الدراسية والمنهاج والكتاب(١).

وهذا تفصيل القول في كل ركنٍ من هذه الأركان:

### * أولاً: السياسية التعليمية:

بنيت السياسة التعليمية في معظم البلاد الإسلامية على أسس غير إسلامية وسأذكر نماذج من تلك السياسات:

١ - حددت السياسة التعليمية في مصر الصادرة بقرارٍ من مجلس الوزراء عام ١٩٧٢م أهدافاً للتعليم منها: في المرحلة الابتدائية: التنشئة على الاعتزاز بالوطن وبالقومية العربية، وتربيته للحياة في المجتمع الديمقراطي الاشتراكي(٢).

---

(١) ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني: «غزوٌ في الصميم»: (١٠ - ١١).

(٢) ينظر محمد منير مرسي: «التعليم العام في البلاد العربية»: (١٩٦).

٢ـ وفي سوريا حددت أهداف التربية والتعليم بما يلي:
إنشاء جيل عربي قومي اشتراكي، علمي التفكير، مرتبط بتاريخه، معتز بتراثه مشبع بروح النضال من أجل تحقيق أهداف أمته في الوحدة، والحرية، والاشتراكية، وفي خدمة الإنسانية وتقدمها، وتشجيع الدولة الثقافة القومية الاشتراكية التي تهدف إلى تحقيق المثل العليا للأمة العربية، وقضايا الإنسانية وتعتبرها أساساً لبناء المجتمع(١).

٣ـ أما في العراق فقد حددت أهداف التربية والتعليم في الدستور العراقي بالآتي: رفع وتطوير المستوى الثقافي العام، وتنمية التفكير العلمي، وإيجاد جيل قومي متحرر تقدمي قوي في بنيته وأخلاقه، ويعتز بشعبه ووطنه وتراثه . . . بحقوق قومياته كأمة، ويناضل من أجل تحقيق الوحدة العربية والحرية والاشتراكية(٢).

ومعظم السياسات التعليمية للبلاد الإسلامية مبنية على مثل هذه الأسس.

وقد عمدت بعض الحكومات إلى قوة القرار السياسي في تغيير التعليم وإنهاء دور التعليم الشرعي ففي تركيا ـ مثلاً ـ ألغي التعليم الشرعي بقوة القرار السياسي فقد كانت المدارس الشرعية تغذي مساجدَ القرى والمدن بالأئمة والخطباء والوعاظ والحفاظ والمرشدين، وكانت منتشرة بكثرة ففي ولاية قونية ـ على سبيل المثال ـ عام ١٣١٧هـ (٦٦) ست وستون مدرسة فيها (٣٦٦٦) ثلاثة آلاف وستمائة وستة وستون طالباً، فألغيت تلك المدارس، وكان إلغاؤها في نفس الجلسة التي ألغيت فيها وزارتا الأوقاف والشرعية وذلك بالإجراءات التالية:

**أولاً:** جميع المؤسسات العلمية والتدريسية في الجمهورية تربط بوزارة المعارف.

---

(١)، (٢) ينظر المصدر نفسه.

**ثانياً**: جميع ما يدار من قبل وزارتي الأوقاف والشرعية أو الأوقاف الخصوصية من مدارس ومكاتب تربط بوزارة المعارف.

**ثالثاً**: جميع ما في ميزانية الأوقاف والشرعية من مخصصات للمدارس ينقل إلى ميزانية المعارف.

**رابعاً**: وزارة المعارف تنشيء في الجامعة كلية إلٰهيات عالية لتنشئة متخصصين في الأمور الدينية كما تنشيء مدارس خاصة لتخريج الأئمة والخطباء وغيرهم من أصحاب الوظائف الدينية، ولكنّ مصطفى كمال أتاتورك ما لبث أن ألغى كلية الإلٰهيات، والمدارس الدينية التي تخرج الأئمة وذلك عام ١٩٣٠م ووصل الأمر به إلى إلغاء التعليم الشرعي نهائياً، وتلقين الطلاب في المدارس أن الدين الإسلامي كان من عوامل تأخير الدولة التركية وجمودها.

وأصبحت مسألة تعليم القرآن الكريم وأمور الدين للأولاد مسألة شخصية منوطة بجهد من يريدها، وهذا قليل وآخذ بالقلة يوماً بعد يوم وذلك لانعدام أسبابه من رغبة الآباء من جهة، وعدم المعلمين الصالحين من جهة أخرى[١].

ومع ذلك فإنه ـ بحمد الله ـ تميزت بعض السياسات التعليمية العربية ببنائها على أسس إسلامية كما في السياسة التعليمية في المملكة العربية السعودية التي نصت على أن منطلق السياسة التعليمية الإسلام فقالت: (السياسة التعليمية في المملكة العربية السعودية تنبثق من الإسلام الذي تدين به الأمة عقيدة، وعبادة، وخلقاً، وشريعة، وحكماً، ونظاماً، متكاملاً للحياة)[٢].

---

(١) ينظر محمد عزة دروزة: «تركيا الحديثة»: (٧٢). وعبد الكريم مشهداني: «العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا»: (٢٨٠ ـ ٢٨١).

(٢) «السياسة التعليمية»: (١)

وفي سياق بيان غاية التعليم وأهدافه العامة تقول السياسة التعليمية : (غاية التعليم فهم الإسلام فهماً صحيحاً متكاملاً وغرس العقيدة الإسلامية ونشرها، وتزويد الطالب بالقيم والتعاليم الإسلامية، وبالمثل العليا، وإكسابه المعارف والمهارات المختلفة، وتنمية الاتجاهات السلوكية البناءة وتطوير المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وتهيئة الفرد ليكون عضواً نافعاً في بناء مجتمعه)[1].

* **ثانياً : الخطة الدراسية :**

إنَّ الأمة الإسلامية أمةٌ ذاتُ مبدأ وعقيدة، والتعليم أداةٌ لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذا المبدأ، وتدين بهذه العقيدة، وتحمل هذه الرسالة وكل تعليمٍ لا يؤدي هذا الواجب فليس هو التعليم الإسلامي المنشود.

إن مهمة التعليم في البلاد الإسلامية ليست مجرد تعليم العلوم والفنون، ونقل ذلك عن اللغات الأجنبية، وإنما يحتاج الأمر إلى تعليم العلوم الأساسية : الشرعية والعربية، ثم تعليم العلوم الخادمة كالعلوم الإنسانية والعلوم التجريبية، والملاحظ في الخطط الدراسية لكثيرٍ من البلاد الإسلامية عدم مراعاة ذلك إما بنقص التعليم الشرعي، أو بالتعارض بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم، وهذه جملة من الشواهد :

١ ـ كان حق العلوم الشرعية أن يكون لها نصيب وافرٌ في الجدول الدراسي للطلاب، لكن الواقع أنها حصة واحدة في الأسبوع أو حصتان على أكبر تقدير في معظم البلاد الإسلامية، وبهذا تتساوى مع حصة الموسيقىٰ أو التربية الرياضية أو التربية الفنية، وتزيد عنها حصص اللغات الأجنبية في الغالب، كما توضع على أنها مادة إضافية في بعض البلدان العربية، وهذا

---

(١) المصدر نفسه.

يعني أنها غير معتبرة ضمن المواد الأساسية فتحذف في جدول الصيف المختصر الذي حذفت منه المواد التالية: التربية الرياضية، والرسم، والأشغال اليدوية، والتربية الدينية.

كما جعلت المادة في بلدانٍ أخرى غير ذات أثر في نجاح الطالب ورسوبه، أو في معدلاته النهائية، وبهذا تصبح المادة هامشية ليس لها اعتبار في أذهان الطلاب وأهليهم.

يقول أحد التربويين: إنه طلب إضافة درجات مادة التربية الإسلامية إلى المجموع حتى يقبل الطلاب على دراسة هذه المادة بجدية، ولكن الطلب تم تجاهله[١].

٢ ـ أن مادة القرآن الكريم التي يجب أن تكون مادة أساسية في جميع مراحل التعليم لا تدرس في كثير من البلاد الإسلامية، ولذلك تكثر المطالبات بتدريس مادة القرآن الكريم وجعلها مادة أساسية في جميع المراحل[٢].

٣ ـ أن الجامعات والمعاهد في كثير من البلاد الإسلامية لا يدرس فيها أي مادة متعلقة بالعلوم الشرعية إلا في الكليات المتخصصة إن وجدت، وهذا له أثره في انحراف الشباب، ففي اجتماع للجنة الشؤون الدينية بمجلس الشعب المصري دارت مناقشات حول مناهج التعليم، وقد نشرت بعض الصحف ملخصاً لما دار في ذلك الاجتماع فمن ذلك:

---

(١) أحمد حمزة: مستشار التربية الإسلامية بوزارة التربية بمصر ينظر جريدة الجمهورية في ٢٥/ ١٠/ ١٩٩١م نقلاً عن محمد عبد الرحمن طبل وزميلة: «المؤامرة على مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية»: (٥٥).

(٢) ينظر: محمد عبد الرحمن طبل وزميله: «المؤامرة على مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية»: (٥٥).

أن علماء اللجنة يجمعون على أن فقدان مناهج الثقافة الإسلامية في جامعاتنا ومعاهدنا وراء ظاهرة الانحراف الفكري والتطرف عند شبابنا(١).

٤ـ أن مادة التربية الدينية تدرس بطريقة علمانية أي بطريقةٍ تفصل الدين عن العلم والحياة، فدرس الدين إنما هو درسٌ في علاقة العبد بربه فهو شيء يسير من العقائد، وشيء يسير من الفقه، دون أن يكون هناك ربط للأمر بحياة الناس(٢).

بل إن هناك تناقضاً بين ما يدرس في مادة (الدين) وما يدرس في بعض العلوم التطبيقية أو العلوم الأخرى المسماة بـ (العلوم الإنسانية) فبينما يقال في العلوم التطبيقية: إن الطبيعة خلقت ووهبت، يقال في مادة (الدين) أن الله هو الخالق. كما تدرس نظريات دارون في الكلام عن خلق الإنسان وتدرس نظريات فرويد في علم النفس مع أن معارضتها للدين ظاهرة بينة.

بل إن تسمية الدرس بدرس (الدين) أو (التربية الدينية) مشعر بهذه العلمانية فكأن الدين شيء وكل ما في الحياة شيء آخر.

٥ـ غالباً ما تكون حصة (الدين) في نهاية الجدول الدراسي فيتلقىٰ الطلاب درس (الدين) وهم في حالة من الضجر والإعياء، وهم ينتظرون نهاية الدرس لينطلقوا إلى الشوارع والبيوت.

وهذا مناقض لما يقع في المدارس التنصيرية التي يؤمها طلاب مسلمون، إذ يقام درس (الدين) في الصباح الباكر، والتلاميذ مقبلون بنشاط وراحة.

وفي الجملة فإن تدريس المواد الشرعية يفتقد الخطة المنظمة التي تقدر للمادة

---

(١) ينظر: جريدة الجمهورية المصرية في ٢٥/ ١٠/ ١٩٩١م نقلاً عن د. محمد عبد الرحمن طبل وزميله: «المؤامرة على مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية»: (٥٤).

(٢) ينظر: محمد قطب: «واقعنا المعاصر»: (٢٢٣).

أهميتها كماً وكيفاً يقول أحد المهتمين بالموضوع: (إنه لا توجد خطة للتربية الدينية بالمدارس رغم أنها أساس لكل الخطط التربوية والاجتماعية والثقافية فالحصة الوحيدة المهملة والهامشية في مدارسنا هي حصة الدين)[١].

٦ـ أن المادة العلمية التي كانت تدرس تحت مسميات علومٍ مختلفة: القرآن الكريم، التفسير، الحديث، التوحيد، الفقه . . صارت تدرس تحت مسمى واحد وفي منهج يلتقط نتفاً يسيرة من هذه العلوم أو بعضها، وصار ذلك المنهج يسمى بالتربية الدينية وكأنه نظيرٌ للتربية الفنية أو التربية الرياضية.

واللغة بنحوها وصرفها وأدبها وبلاغتها وغير ذلك من علومها أضحت تدرس بطريقة موجزة لا يخرج منها الطالب بكبير فائدة.

*** ثالثاً: الكتاب:**

يعد الكتاب المدرسي من أركان التعليم المنهجي، إذهو الذي يعتمده المدرس في شرح المادة، ويعتمده الطالب في مراجعتها ووظيفة الكتاب شرح وتفصيل عناصر المنهج المقرر للمادة[٢].

وبنظرة تأملية في الكتب المؤلفة لمدارس كثيرمن بلادالعالم الإسلامي تظهر أوجه اختلال خطيرة، وسأذكر شواهد لذلك:

١ـ التمييز في إعداد الكتب المدرسية:

إذ توجه العناية الفائقة لكتب المواد، وذلك بتجويد تأليف هذه الكتب، وجعلها مصوغة بأسلوب العصر ومنهج كتابته، وبإتقان طباعتها،

---

(١) د. محمود زقزوق ينظر جريدة الجمهورية في ٢٥/ ١٠/ ١٩٩١م نقلاً عن محمد عبد الرحمن طبل وزميله: «المؤامرة على مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية»: (٥٥).

(٢) ينظر: د. عبد الرحمن حبنكة الميداني: «غزوٌ في الصميم»: (٥٩).

وتزويدها بالصور والخرائط والجداول والوسائل التعليمية المؤثرة والجذابة .

وتهمل كتب التربية الإسلامية، وتصاغ بعبارات معقدة، أو بأساليب غير مناسبة لسن الطلاب .

وبسبب ذلك تنصرف نفوس الطلاب إلى الكتب العصرية المعتنى بها، وتزهد بالكتب الأخرى التي منيت بالإهمال والتقصير وعدم العناية .

٢ ـ التمييز في كتابة الموضوعات ضمن الكتاب الواحد : فتبسط في الكتاب الواحد الموضوعات المختلفةغير التربية الإسلامية بسطاً واسعاً يتناول تفصيلات جزئية، وفي الوقت نفسه تضغط وتختزل موضوعات التربية الإسلامية ويكون المرور عليها مروراً سريعاً في فقرات مجملة[1] .

٣ ـ أن في كتب بعض المواد العلمية أو الأدبية أو اللغات ما يتعارض مع الدين والأخلاق، ومن أمثلة ذلك :

**المثال الأول**: ما ذكره مؤلفو كتاب المؤامرة على الأخلاق في كتب اللغات الأجنبية من الأخطاء الأخلاقية والتربوية في كتب المرحلة الإعدادية في بعض البلاد العربية، وكانت هذه الأخطاء على سبيل المثال كما يلي :

أ ـ الحض على العُري والاختلاط .

ب ـ جعل المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات ولاعبي الكرة مثلاً عُليا .

ج ـ الحض على العشق والغرام .

د ـ الحض على الذهاب إلى السينما .

هـ ـ إضعاف الحس الإسلامي والوطني .

(١) ينظر المرجع السابق : (٦١ ـ٦٣)، وانظر الأمثلة على ذلك عند : د. جمال عبد الهادي ورفيقه : «التطوير بين الحقيقة والتضليل» : (٢٥ ـ ٥٦) .

و ـ الحض على العزف والرقص.

ز ـ السخرية من خليفة المسلمين: هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ.

ح ـ ذكر أعمال اليوم والليلة مع إغفال فرائض الصلاة والأعمال الصالحة[١].

**المثال الثاني**: ما ذكره مؤلفو كتاب: المؤامرة على التاريخ الإسلامي من مخالفات منهجية في مناهج مادة التاريخ في بعض البلاد العربية من مثل:

أ ـ إغفال الهدف التربوي من دراسة التاريخ، وتجاهل الدروس والعبر.

ب ـ الاعتماد على مراجع مشبوهة لبعض الحاقدين على الإسلام، والعزوف عن المصادر الأصيلة.

ج ـ إخفاء سوءات اليهود، وتزيين عقيدتهم، وإثبات حقوق مزعومة لهم في جزيرة العرب وغيرها من ديار الإسلام.

د ـ إحياء النزاعات القومية والنعرات العنصرية والوثنية التي خطط لها المستعمر.

هـ ـ الادعاء بأن الوثنية كانت مظهراً من مظاهر الحضارة.

و ـ إهدار الجانب الروحي، وإغفال دوره في قيام الحضارات.

ز ـ اعتبار الدين من اختراع العقل البشري.

ح ـ تمجيد الحكم اليوناني والروماني لبعض البلاد وإظهار الفتح الإسلامي على أنه غزو[٢] وقد فصل المؤلفون في هذين المثالين وذكروا نصوصاً معينة شاهدة على ما ذكروه.

---

(١) ينظر: عبد المنعم أبو الخير وزملاؤه: (٥ ـ ١٣).

(٢) ينظر: د. جمال عبد الهادي وزملاؤه: (٣ ـ ٤).

* رابعاً: المعلم:

إن المعلم يعد ركناً ركيناً من أركان العملية التربوية، وخصوصاً في المواد الشرعية التي تجمع بين التعليم والتربية والتوجيه، وطريقةُ المدرس بل وهيئته لها تأثيرها في نفوس الطلاب، وفي سياق إضعاف العلوم الشرعية تم التركيز على المعلم حتى لا يعود للمادة تأثيرها في النفوس وشواهد ذلك كثيرة منها:

١ ـ إسناد تدريس المادة الوحيدة (مادة التربية الدينية) إلى غير المختصين، وفي ذلك يرى أحد التربويين أن من المشكلات الخطيرة المتعلقة بتدريس مادة التربية الدينية قصور المدرسين إذ يسند تدريس المادة إلى مدرسي اللغة العربية، ويطالب بأن يسند تدريسها إلى المختصين مع وضع الحوافز لهم ويقول: (إن مدرسي اللغة العربية الذين يسند إليهم تدريس مادة التربية الدينية لا يأبهون بهذه المادة، ويهتمون باللغة من أجل مكافآت مجموعات التقوية والدروس الخصوصية)[1].

ويقول أحد المهتمين بالموضوع أيضاً: (إنه لا توجد خطة للتربية الدينية بالمدارس رغم أنها أساس لكل الخطط التربوية والاجتماعية والثقافية، فالحصة الوحيدة المهملة والهامشية في مدارسنا هي حصة الدين، وليس هناك أي اهتمام بمدرس التربية الدينية، وغالباً ما تسند هذه الحصة لمدرس اللغة العربية) وقال: (كيف نغرس القيم الدينية النبيلة في نفوس أطفالنا في حين أن الذين يقومون بهذه المهمة لا يعرفون من الإسلام إلا القشور)[2].

---

(١) الأستاذ: أحمد حمزة مستشار التربية الإسلامية بوزارة التربية المصرية ينظر جريدة الجمهورية في ٢٥/ ١٠/ ١٩٩١م نقلاً عن محمد عبد الرحمن طبل وزميله: «المؤامرة على مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية»: (٥٥، ولمزيد من التوضيح ينظر المصدر نفسه: (٥٣ ـ ٥٤).

(٢) د. محمود زقزوق: ينظر جريدة الجمهورية في ٢٥/ ١٠/ ١٩٩١م، والمرجع السابق: (٥٥).

ويقول أحد التربويين أيضاً: (التربية الدينية، مستبعدة والاهتمام غير موجود مثلها مثل مواد أخرى كالتربية الفنية والبدنية والموسيقية . . . وعادة ما يسند تدريس التربية الدينية لمعلم اللغة العربية باعتبار أن اللغة هي الوعاء الذي يحمل الدين، ويأتي الاهتمام في المؤخرة لاستبعادها من مجموع الدرجات)[١].

٢ـ إضعاف كيان مدرسي العلوم الشرعية والعربية، وفي ذلك يذكر محمد قطب أن المستعمرين اجتهدوا في أن يكون وضع مدرس (الدين واللغة) المادي ضعيفاً مقارنة بزملائه مدرسي المواد الأخرى ولا شك أن لذلك الوضع انعكاساته سواءٌ في داخل المدرسة أو في المجتمع على اتساعه، ثم ينتقل تصور الضعف من المدرس إلى المادة التي يدرسها.

ويضيف إلى ذلك أن مدرس مادة (الدين) واللغة غالباً ما يكون أكبر المدرسين سناً، وبهذا يقترن درس (الدين) في نفوس الطلاب بالعجز والفناء[٢].

٣ـ إساءة اختيار مدرسي المادة حيث لا يمثلون القدوات الصالحة للطلاب في سلوكهم ومظاهرهم وتمسكهم بالدين في غالب الأحوال.

٤ـ إن تدريس جميع المواد ـ تقريباً ـ يتم بطريقة مشوقة يلزم بها المعلم فيحضر الوسائل التعليمية، ويحرص على إيصال المعلومات إلى الطالب بطرق محببة إلى النفس.

وأما في مادة (الدين) فتدرس المادة بطريقة الحفظ مع عدم الاهتمام بإقناع الطالب أو إفهامه ما يدرس ويحفظ فلا يقوم المعلم ـ في الغالب ـ بجهد،

---

(١) أ. د: شبل بدران: «المؤسسة التعليمية والتطرف»: (٣٢٨).

(٢) ينظر: «واقعنا المعاصر»: (٢٢٠ـ٢٢٣).

ولا يلزم بجهد، لإيصال المعلومات إلى الطالب بطريق مشوق، فصار الأمر عائداً على المادة بالتنفير بدل التحبيب والترغيب[١].

* * *

إن هذا العرض يبين المدى الذي وصلت إليه مؤسسات التعليم في البلاد العربية؛ إلا من عصم الله مثل بلادنا: المملكة العربية السعودية، كما يظهر هذا العرض مدى التأثير السلبي للتعليم أجيال المسلمين في العصر الحاضر، وعلاقة ذلك بانحراف الأجيال إما إلى الغلو أو إلى التفريط والإضاعة، وسأبين هنا بعض أوجه تأثير اختلال مناهج التعليم في أحداث الغلو وهي كما يلي:

* **أولاً: ضعف التحصيل في العلوم الشرعية:**

فالملاحظ أن السياسات التعليمية في معظم البلدان العربية لم تعطِ عناية بالعلوم الشرعية الأمر الذي انطبع على الخطط الدراسية، والكتب المدرسية، وأداء المعلمين وقد أنتج ذلك آثاراً منها:

١ ـ نقص العلماء الشرعيين.

٢ ـ ضعف العلماء الموجودين لضعف المناهج التي درسوا عليها.

٣ ـ ضعف الحصيلة العلمية لجميع الناس.

ونقص العلم الشرعي الذي يمكن أن يُحصَّل في المدارس والجامعات أفضى بأقوام إلى سلبيات في التلقي خطيرة من أظهرها:

١ ـ الأخذعن الكتب مباشرة.

٢ ـ التلقي عن غير الثقات أو المؤهلين.

---

(١) ينظر: «المصدر السابق»: (٢٢٤).

وهذا الأمر وإن كان خطأً من الفاعلين أنفسهم إلا أن المسؤولية تقع أيضاً على من يتولى سياسات التعليم فلا يضع للناس ما يشبع حاجاتهم من العلوم الشرعية.

وإذا أمعن المرء النظر في أسباب الغلو المتعلقة بالجهل، أو بالخلل في مناهج التلقي أو الفهم يجد أن علاقتها ظاهرة بمناهج التعليم، وقصورها خاصة في العلوم الشرعية.

ولقد لحظ بعض الأساتذة المهتمين بموضوع الغلو أن الغلو يقل في أوساط المتعلمين للعلوم الشرعية بينما يزيد في أوساط غيرهم إذ يقول: (كنت في فترة مدرساً للقانون الدولي في جامعة الأزهر، وكنت منتدباً في بعض الجامعات الأخرى . . . ، وقد لاحظت ملاحظة هامة وهي: أن الطلبة في جامعة الأزهر لا ينتسبون أو يتصفون بالتطرف على الإطلاق، وإنما هم طلاب معتدلون في أفكارهم يقبلون الأمور ببساطة، ويفهمون دينهم فهماً واسعاً عميقاً مختلطاً بالعلوم المدنية الحديثة.

وعلى الجانب الآخر كنت أجد في الجامعات الأخرى كثيراً من التطرف ربما يكون سببه من وجهة نظري مظاهر الاستفزاز الموجودة داخل هذه الجامعات من بهرجة قد تستفز بعض الطلاب، وربما يكون افتقاد دراسة الدين الصحيح في هذه الجامعات)[1].

وفي اجتماع للجنة الشؤون الدينية بمجلس الشعب المصري دارت مناقشات حول مناهج التعليم، وقد نشرت بعض الصحف ملخصاً لما دار في ذلك الاجتماع، وكان من ذلك: (إن علماء اللجنة يجمعون على أن فقدان مناهج

---

(١) أ. د: محمد إسماعيل علي: «المؤسسة التعليمية والتطرف»: (٣٢٢).

الثقافة الإسلامية في جامعاتنا ومعاهدنا وراء ظاهرة الانحراف الفكري والتطرف عند شبابنا)[١].

هذا فيما يتعلق بالمراحل الدراسية العليا أما مراحل الدراسة دون الجامعية فقد وصف المشاركون مناهج التربية الإسلامية بالمدارس بأنها عقيمةِ وهامشية ومهملة، ولا تستطيع أن تشكل خطاً دفاعياً قوياً يحصّن الأطفال والشباب من الانحراف والسلوكيات البعيدة عن الإسلام[٢].

* **ثانياً: التأثير على المجتمع كله بالتغريب والبعد عن الدين مما أثر في إحداث جملة من أسباب الغلو وسأذكر لذلك مثالين:**

**الأول**: من أسباب الغلو: مشكلة الهوية في المجتمع ومناهج التعليم تساعد على ترسيخ هذه المشكلة فيدرس مثلاً تاريخ الفراعنة في بلد إسلامي في ثلاثمائة وسبع عشرة صفحة (٣١٧) وفي جميع مراحل التعليم، أما تاريخ الدولة الإسلامية منذ عصر النبي ﷺ حتى نهاية الخلافة العثمانية فيدرس في اثنين وثلاثين صفحة وفي المرحلة الإعدادية فقط.

وبذلك انخفض تدريس سيرة النبي ﷺ جميعها إلى عشرصفحات بينما تدرس سيرة الملك مينا ـ وحده ـ من ملوك الفراعنة في تسع صفحات.

واختزل تاريخ خالد بن الوليد وفتوحاته إلى ستة أسطر في حين يدرس نابليون والغزو الفرنسي لمصر في أربع وثلاثين صفحة[٣]. ولا شك أن ذلك جعل هوية المجتمع مزعزعة بين الهوية الإسلامية، والهوية الفرعونية، والهوية الغربية

---

(١) جريدة الجمهورية المصرية في ٢٥/ ١٠/ ١٩٩١م نقلاً عن د. محمد عبد الرحمن طبل وزميلة: «المؤامرة على مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية»: (٥٤).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ينظر: د. جمال عبد الهادي وزملاؤه: «تطوير أم تضليل في التاريخ الإسلامي»: (٣).

مما أثر في إحداث وتنمية مشكلة الغلو.

**الثاني**: من أسباب الغلو: مشكلة الانحلال الأخلاقي وقد ذكرت فيما مضى أمثلة من كتب اللغة الانجليزية تساعد على الفساد والتحلل الأخلاقي ولذلك أثره في إحداث مشكلة الغلو.

**ثالثاً**: رد الفعل: حيث يثير سوء هذه المناهج والتطوير فيها والتغيير والإبدال ردود أفعال مما ينتج رغبة البعض في التغيير بعنف لمعالجة الأوضاع القائمة.

❑ ❑ ❑